دعوة الحق

نظرات في قصص القرآن

٢

محمد قطب عبد العال

السنة السابعة - العدد ٧٥ - شعبان ١٤٠٨هـ - مارس ١٩٨٨م





قال تعالى :

﴿نَحْنُ نقُصُ عَلَيك أحْسَنَ القَصَصِ بما أوْحَيْنا إليْك هَذَا القرْآنَ﴾

(صدق الله العظيم)

مدخــل

القصة فى القرآن الكريم على جانب كبير من الأهمية فهى قالب تربوى وإعلامى تنفذ من خلاله الدعوة إلى القلوب فتهزها . وإلى النفوس فتنفضها ، وهى تحتشد بعوالم زاخرة وبحيوات متغيرة ، وبأشخاص متنوعة ، وبصراع يدور بين خير وشر ، وعدل وظلم ، فتثير فى النفس العواطف ، وتجذب القلوب وتهيىء العقول إلى الترقب والتلقى فالفعل والمسلك .

وإذا كانت القصة فى القرآن تنطلق من منطلق دينى وعقائدى ، فإنها قد وفَّت بمتطلبات الفن القصصى وتضمنت خصائصه وعناصره وأنواعه وتنوعه وأهم ملامحه .. ولكن ذلك كله جاء على طريقتها الخاصة ووفق المنهج القرآنى فى إيراد القصص ، والنظام القصصى فى حلقاته ومواقفه وملاءمته مع السياق القرآنى وموضوعات السور القرآنية .

فالقصة القرآنية تتوزع على سور القرآن الكريم توزعاً يربط القصة أو الجزء من القصة بالغرض الدينى . وهذا الربط متناسق مع الموقف السياقى للقصة . ذلك أن القصة القرآنية ليست عملاً فنياً مستقلاً بذاته وإنما هى إحدى وسائل القرآن لتقديم العقيدة . ومن ثم فهى أداة تعبيرية تمتزج امتزاجاً عضوياً بين الغرض الدينى والغرض الفنى .

والإنسان مهيأ إلى أن يجذبه ما فى القصص من أفكار وخيالات وأحداث وسرد جميل له طلاوته ورونقه التعبيرى ، مما يجعل القصة أداة فعالة فى تشكيل الإنسان وتكوينه تكويناً فكرياً ووجدانياً وعقائدياً ، على نحو مقصود الهدف والغرض . والقصة القرآنية لعبت وتلعب هذا الدور الخطير فى صياغة الإنسان المسلم صياغة جديدة ومتجددة ، بحيث يتقبل ـ فى ثقة قادرة مطمئنة ـ ما يناط به من أمور دينية .

وقد أدرك رسول الله ﷺ الدور الخطير الذى تقوم به القصة ، فاستخدمها من أجل إبراز الهدف الدينى والتربوى باعتبارها وسيطاً مؤثراً فى الوجدان والفكر والسلوك ، وقد كان ﷺ يضمن قصصه معانى عظيمة ومثلاً عليا وقيماً أخلاقية عليا رفيعة .. فى إشارات تضمينية يساعد على توصيلها إلى السامع أو المتلقى روعة التصوير وجمال السرد ، وإثارة التشويق والقبض على احداث القصة وأنفاس السامع معاً ..

والقصة كوسيط مؤثر حظيت بمكانة عالية فى القرآن الكريم ، فلا تكاد تخلو سورة من قصة أو من جزء من قصة ، أو من إشارة إلى قصة ـ أو تسجيل هدف سريع لقصة إشارية سريعة .. وهى فى جميع الحالات تراعى فى الصياغة التعبيرية حسن الملاءمة بين الغرض الدينى الذى وردت فيه وجاءت من أجله . ودراسة الإشارات النفسية والدينية فى القصة القرآنية يكشف عن علاقة الشعور الدينى بالعاطفة وارتباط الجانب العقيدى بالنفس ، لما تتضمنه القصة من إثارات متنوعة ، وتجارب دينية مختلفة كان

الإنسان محورها ، ومن دعوات سماوية استفزت مشاعر الداعية والمدعوين على السواء ـ وتولد عنها صراع طويل بين الحق وأهله ، والباطل وناسه ، وكانت عين القصة القرآنية تسجل وترصد ، وتؤازر الحق وأهله ، وتصور ما حاق بالكفر وناسه . والقصة القرآنية أقدر الفنون على تصوير المعانى المجردة إلى وقائع محسوسة ، وصور مجسمة ، ومشاهد مصورة ، مما تؤدى إلى التفاعل فالتأثر الوجدانى العميق .

ولقد سجلت القصة القرآنية وحدة الرسالات السماوية وجوهر الديانات ومحورها الأكبر وهو التوحيد واقرار العبودية لله وحده ، فضلاً عن بيان الأثر الفعَّال فى سلوك الإنسان بوصفه مجالاً لحركة القصة ومقصدها .. ومن ثم تسجل جانب الخير والتناسق المنسجم مع سنن الله فى الكون ، من حيث الفطرة الصافية ، والتوجه الدينى الصحيح ، وكذلك تسجل فى الجانب المقابل .. الضلال وانطماس الفطرة المؤدى إلى النهاية المؤلمة ..

ولقد جاءت القصة القرآنية فى أنواعها وتنوعها ـ لترصد فى صور مجسمة تلك المعركة الأبدية بين الخير وقادته ، والشر وأهله .

سواء جاءت على هيئة المثل أو جاءت فى نسق تاريخى ، أو عبرت عن الجانب النفسى فى الإنسان ، أو وشت بجوانب تعليمية تصقل العقل وتفتح الادراك ، أو أشارت فى رمزية سريعة إلى قصص كانت خلف الرمز . أو سيقت لهدف العظة والعبرة .. فهى فى كل هذه الأنواع أداة راصدة لحركة الفعل البشرى بين حركتين كبيرتين ، حركة الإيمان وما يقابلها من حركة الكفر .. كما أن طرائق

التنوّع فى الشكل القصصى من إبراز المشاهد الحسية ، ومن إجمال وتفصيل وبسط وإيجاز ، وطول فى القصص وقصر ، وطريقة التعامل مع القصة من حيث زمن البدء وتناميه مع موضوع السورة والسياق ، وإبراز الخوارق والمفاجآت فى الاطار التعبيرى المتوحِّد ، فضلاً عن الاثارة والتشويق ، والرمز . والفجوات المتصورة عقلاً .. وغير ذلك .. من ألوان التنوع .. بسطته القصة القرآنية فى مجاله الموضوعى والدينى ، ليتضافر ذلك كله فى وحدة فنية كاملة ، تفى بالغرض الدينى والفنى معاً .

وهذه الدراسة تتناول أنواع القصة وتنوعها فى إطار البحث والتحليل عبر السرد والحوار وإبراز الصورة وتوضيح العظة والعبرة . مما ينمى طاقة الفرد المسلم النفسية والروحية وتمنحه متعة فنية خالصة .

وإننى إذ أقدم هذه الدراسة ، لأسأل الله سبحانه وتعالى أن يتقبل منا ، وأن يجعل مما نكتب ضياءً نستكشف به بعض الفيض من كنوز القرآن الكريم ، كتاب الله ، ودستور المسلمين .

محمد قطب عبدالعال

أنواع القصة القرآنية

ساق القرآن الكريم قصصه للعبرة والعظة ، وفى ذلك السياق يتجلى الصراع بين الخير والشر وتتضح الوسائل الفاعلة لتغليب الخير ، ولابراز الهدف الدينى الكلى وهو وحدة الأديان ، ووحدة الرسالة الإلهية ، ذلك أن جوهر ذلك كله هو التوحيد ، وخلوص العبادة لله مبرأة من الشرك ، والخرافة والوثنية .

والقرآن الكريم كتاب دعوة إلى معرفة الحق وهو الإيمان بالله . ووسائل الدعوة إلى الله كثيرة ومتنوعة والقصة احدى هذه الوسائل الفعالة التى استخدمها القرآن الكريم لإبلاغ الدعوة وتوضيح أطوارها وكشف الماضى السحيق منها . والقصة القرآنية شأنها شأن الوسائل التعبيرية الأخرى التى تدعو إلى وحدانية الله عن طريق تصوير مشاهد يوم القيامة ، والجنة ، والنار ، والنعيم والعذاب ، وكذلك شأنها شأن الأدلة على البعث والجزاء ، وعلى القدرة الإلهية ، وعلى تفرد الله بالخلق والموت والإحياء .. وكذلك الشرائع التى فصلت والأمثلة التى ضربت .. [1]

وهى فى مجملها مواقف تقتضى العظة والعبرة ، وتدعو إلى التأمل والتفكير وتبعث على الاقتناع الكامل وتؤكد على وحدانية الله

---

(١) نظرات فى قصص القرآن جـ ١ ص ٣٩ .

ووحدة الرسالة الإلهية .

والقصص فى القرآن فيه إيناس لرسول الله ومؤازرة له وتثبيت لقلبه عبر قصّ أخبار الأنبياء والرسل فى صراعهم الضارى ضد قوى الطغيان والوثنية والشرك .

وهى من هذه الوجهة ـ وجهة القص التاريخى ـ يتحدى القرآن بها العرب ، كما تحداهم بإعجاز القرآن فى أسلوبه ونظمه ، وهى أيضاً دليل قطعى على أن القرآن وحى من الله .. فما كان الرسول ﷺ يدرى شيئاً وهو فى بطن الغيب عن تلك الأخبار والقصص الصادقة التى تناولت الأنبياء والأمم . ولقد أورد القرآن تلك الحقيقة .. فى آيات كثيرة .. منها قوله تعالى : فى سورة آل عمران ﴿.. **وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون** .﴾[1] .

فالقصص شعبة جليلة من شعب القرآن الكريم ، اختصه الله منه بنصيب كبير ، لمكانه من الدعوة ، وحسن بلائه فى المعاونة على أدائها . فإن تكن شعبه الأخرى هدى وإرشاداً وشرعاً ونظاماً وتقويماً وإصلاحاً ـ فإن القصص هو الزاد الإلهى الذى يمد الله به رسوله فى رحلته البعيدة المدى ، الكثيرة الهموم ، الثقيلة الأعباء ، تحف من حولها المكاره والشرور[2] . ولقد تعرض ﷺ إلى أزمات نفسية وعصبية بلغت حدّ المساومة فى الوحى وإنكاره ، علّهم يفتنونه أو يؤثرون فى موقفه الإيمانى الراسخ . ولقد سجل القرآن

---

(١) سورة آل عمران آية ٤٤ .

(٢) مع القرآن الكريم دراسة مستلهمة ص ١٩ .

الكريم هذه المواقف فقال تعالى ﴿**فلعلك باخعٌ نفسك على آثارهم إنْ لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً**﴾[1]

ولأن القصص أحفل بالأسوة وأعمل فى النفس وأبعث على الطمأنينة والرجاء فقد وردت على أنواع ، يخاطب كل نوع جانباً من جوانب النفس البشرية ـ حيث يقرن العمل بالجزاء ، فيسرى الهدف الدينى والموعظة الحسنة سرياناً حيًّا ، فيتمكن المغزى من القلب ويختلط بمشاعر الوجدان .

---

(١) سورة الكهف آية ٦ .

القصة المَثَل

المثل نوع من التعبير الأدبى ، يبرز المضمون فى صورة حسية . كما يقرب المعنى ، ويكشف الحقائق ، ويجمع المعنى الرائع فى عبارة موجزة ، تثبت فى الذهن .. وتدفع إلى الاقناع والتأسى وإلى العظة والعبرة .

ولقد ورد المثل فى القرآن الكريم على نوعين كبيرين :

الأول يوجه النظر إلى حقائق الوجود ، وإلى ملكوت الله ومخلوقاته . وهو إذن يضرب كإشارة رمزية لإبراز الحقائق التعبدية للتأثير فى فهم القارىء وإيضاح المقاصد له .[1]

والأمثال تبرز المعقول فى صورة المحسوس ، وتكشف عن الحقائق ، وتقرب المعانى إلى الافهام وتعرض الغائب فى معرض الحاضر (وتجمع المعنى الرائع فى العبارة الموجزة السهلة ، وتثبت المعنى فى الذهن وتسهل طرق الوعظ والتأسى ، وتدفع إلى الاقناع بأوجز سبيل)[2] .

ولا شك أن الأمثال القرآنية سبيل من سبل القرآن الكريم إلى العظة والعبرة .

---

(١) القرآن كتاب أحكمت آياته أحمد محمد جمال جـ٣ ص ١٦٤ .

(٢) التعبير الفنى فى القرآن ص ٢٢٨ د . بكرى شيخ أمين .

ولقد ذكر الله سبحانه فى القرآن أنه يضرب الأمثال ويبين الحقائق .

وضرب الأمثال تقرب الحقائق وتوضح المعانى الكلية بالمشاهد الجزئية وتستدل بحال الحاضر على الغائب .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿**إن الله لا يستحى أن يضرب مثلاً ما بعوضةً فما فوقها** ..﴾

والآية تبرز اختلاف الناس فى تلقى الدليل .. فريق يصغى إلى الحق ويأخذ به وفريق يصيبه العناد والضلال .

ويأتى المثل فى مجال التحدى حيث يظهر عجز الأصنام الآلهة ومن يعبدونها . على حين يؤكد على القدرة الالهية فى كل شىء ..

قال تعالى : ﴿**يا أيها الناس ضُرب مثل فاستمعوا له . إنَّ الذين تدعون من دون الله ، لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له . وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالبُ والمطلوب .. ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيزٌ**﴾[1]

فالدليل واضح وقاطع على إقامة الوحدانية . فالقدرة هنا واضحة ، أما العجز فواضح فى جانب الوثنية ، فإنهم عاجزون عن خلق حشرة ضعيفة مستحقرة كالذبابة ، بل إذا سلبتهم الذبابة شيئاً فهم عاجزون عن رده .. إنهم والذباب سواء فى الضعف والعجز والحقارة . ومن ثم يثير المثل التساؤل الملح على العقل الواعى (كيف يكون الذين يدعونهم آلهة ، أمام قدرة الله ؟ وكيف يعبدونهم معه ،

---

(١) سورة الحج آية ٧٣ ـ ٧٤ .

وهم لا وجود لهم .. وهذا المثل سيق مساق الاستدلال وكان دليلاً قوياً ، إن كانوا طلاب حق يلتمسون الدليل عليه ، وإن كانوا طلاب باطل ضلوا سواء السبيل ، لا يزيدهم الدليل إلّا كفراً[1]

.. ولا شك أن ضرب المثل تمثيل يقرب الحقائق فى صورة حسية وفى نسق تعبيرى أخاذ يأخذ باللب ، ويوضح المعنى وضوحاً كاملاً .. مما يوحى بأن ثمة تحدياً فى سوق الدليل ، وافحاماً للمعارضين ، وإرشاد المدركين إلى الحق وتوجيه النظر إلى الحقائق ..

ومن الأمثال التى تساق مساق الدليل .. قوله تعالى :

﴿ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شىء ، ومن رزقناه منّا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون ، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾[2]

ويوضح المثل حال رجلين أحدهما عبد مملوك لا يقدر على شىء لأنه مملوك لغيره ، فلا مال له ، ولا حرية له ، وعجزه عن التصرف واضح ، وحال الرجل الغنى ، الذى رزقه الله رزقاً وفيراً .. وبين المثل أن الحالتين لا تستويان .. إن التسوية غير معقولة بين من له مال يعطى منه غيره أو ينفق منه فى الخير سراً وجهراً . وبين المملوك الذى لا مال له . وإذا كانت التسوية غير معقولة ، فتسوية أولئك المشركين بين الأحجار التى لا تضر ولا تنفع ، فى عبادتها مع الله تعالى .. الذى له ملك السموات والأرض أبعد عن كل معقول ..

---

(١) القرآن المعجزة الكبرى ص ٣٥٩ .
(٢) سورة النحل ٧٥ .

وذلك برهان على بطلان الشرك كله[١] .

كما أن هذا المثل ضرب أيضاً للحرية والعبودية المعنويتين (فهنا قيود الجهل والوثنية والشهوات ، وهناك انطلاقات التوحيد والمعرفة والأخلاق الفاضلة تنفع وتنتفع)[٢]

ولعلنا نلاحظ أن كلمة «مثلاً» وردت فى صدر الآيات ، وهى صيغة صريحة تدل على المعنى منذ البدء . ذلك أن الغاية من ضرب المثل هو الابانة عن موقف من المواقف ، أو صورة من الصور ، أو مسلك من المسالك .. أو غير ذلك .. فى إطار محسوس من الدلائل الحسية . يكشف عن معنى دينى عميق . وثمة أمثلة مرسلة تتضمن جملاً أرسلت إرسالاً من غير تصريح بلفظ التشبيه ولم تتضمن كلمة (مثل) .. وهى نوع يشبه المثل السائر الذى ورد قديماً وحفلت به كتب الأدب والذى يتصف بالإيجاز وإصابة المعنى ..

ومثل هذا النوع فى القرآن اكتسب صفة المثل «لشيوعه فى الناس بعد زمان طويل من نزول القرآن .. وهى أمثال تحمل مبادىء خلقية ودينية مركزة»[٣]

من ذلك قوله تعالى ﴿**أليس الصبح بقريب ؟**﴾ وقوله ﴿**كل نفس ذائقة الموت**﴾ وقوله ﴿**الآن حصحص الحق**﴾ . وهو نوع ليس له من سبيل فى دراستنا .

أما النوع الثانى من المثل فهو أدخل إلى فن القصة . وهو

---

(١) القرآن المعجزة الكبرى ص ٣٦٢ .
(٢) القرآن الكريم كتاب أحكمت آيات جـ٣ ص ١٦٥ .
(٣) التعبير الفنى فى القرآن ص ٢٣٢ .

موضوعنا الذى نتناوله ، حيث يغلب على «القصة المثل» اتجاه موضوعاتها إلى السلوك الإنسانى إزاء رسالة الله ودعوته إلى التوحيد ، وحث النظر إلى التأمل فى ملكوت الله ومخلوقاته ووحدانيته إنها «قصص وقعت وأخبار حدثت وهى صدق وحق»[1]

والقصة القرآنية تبنى أحداثها ووقائعها على الصدق والحق مبتعدة فى ذلك عن الوهم والمبالغة ، وهذا الصدق إما أن يكون واقعياً وهو ما يتصل بالجانب التاريخى وإما أن يكون موضوعياً وهو ما يتصل بالجانب التمثيلى فى القصة المثل .

وتأثير القصة المثل يكمن فى صدقه الموضوعى والفنى وفى تشخيص المعانى المجردة والتوجيهات التربوية التى تضمنها فى شكل عملى تطبيقى يمكن من تصورها وإدراكها . وتتبدى الوجهة الموضوعية فى التمثيل بأشخاص غير معينين لم تذكر القصة أسماءهم فى واقع التاريخ ولكن وجود أمثالهم فى واقع الحياة ممكن ، وذلك من حيث مواقفهم وتصرفاتهم التى تمليها نوازع نفسية راسبة فى شعور الإنسان لأنها من طباعه وفى غرائزه[2]

... وتأتى قصة (أصحاب القرية) كنموذج «للقصة المثل» .. ولقد وردت فى سورة يسن .

قال تعالى : ﴿**واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون . إذْ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالثٍ فقالوا إنَّا**

---

(١) القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته جـ٣ ص ١٦٥ .
(٢) سيكلوجية القصة فى القرآن ص ٢٤٧ .

إليكم مرسلون . قالوا ما أنتم إلّا بشرٌ مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلّا تكذبون . قالوا ربنا يعلم إنَّا إليكم لمرسلون . وما علينا إلّا البلاغ المبين . قالوا إنَّا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذابٌ أليمٌ . قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قومٌ مسرفون . وجاء من أقصى المدينة رجلٌ يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون . ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون . أأتخذ من دونه آلهةً إن يردن الرحمن بضُرٍّ لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون . إنى إذاً لفى ضلال مبين . إنى آمنت بربكم فاسمعون . قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومى يعلمون . بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين﴾[1]

هذه الآيات الكريمة تحكى قصة أهل القرية مع الرسل .. وهى وردت فى سورة يس . والسورة مكية تناولت قضيتى الإيمان بالبعث ، والأدلة على وحدانية الله ، ومن هاتين القضيتين الكبيرتين ساق القرآن الكريم «القصة المثل» ـ لبيان أن الطغاة الوثنيين فى كل عصر وأوان ـ ومنهم طغاة مكة ووثنيوها ـ يواجهون رسل الحق بالتكذيب والقتل ، والعناد والمنافرة ، وهى فى سياقها تحذير من عاقبة التكذيب بالوحى والرسالة ، كما أنها عظة وعبرة لمن يتعظ ويعتبر بما حدث لمن سبق من المكذبين ، فضلاً عن أنها وسيلة نفسية ، لمؤازرة الرسول ﷺ فى موقفه الوجدانى إزاء كفار مكة وجهلائها .

والقرية مورد المثل هنا .. هى قرية «انطاكية» .. كما ورد فى

---

(١) سورة يس الآيات ١٣ ـ ٢٧ .

كتب المفسرين .

وكان أهلها يعبدون الأوثان ، الأمر الذى جعلهم يتشاءمون من دعوة الرسل إلى التوحيد الخالص ، واعترضوا على الرسل ببشريتهم .. وهو اعتراض متكرر فيه سذاجة وقصور ادراك ذلك (أن الرسالة منهج إلهى تعيشه البشرية . وحياة الرسل هى النموذج الواقعى للحياة وفق ذلك المنهج الإلهى . النموذج الذى يدعو قومه إلى الاقتداء به . وهم بشر . فلا بد أن يكون رسولهم من البشر ليحقق نموذجاً من الحياة يملكون هم أن يقلدوه)[1]

ولقد كان الرسول ﷺ يواجه ذلك الاعتراض وذلك التكذيب نفسه .

ومن ثم جاء التوجيه إلى الرسول ليضرب لقومه هذه «القصة المثل» .. لعلهم يتعظون ..

فتلك القرية الكافرة ، الجاحدة بنعم الله ، العابدة للأوثان ، أراد الله أن يخرج أهلها من الظلمات إلى النور فأرسل إليهم رسولين يحملان دعوة الله إلى الوحدانية . فووجها بالتكذيب والعناد ، فآزرهما الله برسول ثالث ..

.. وكان الحوار الذى دار بينهم يحمل فى طياته أبعاد الموقف .. موقف الإيمان وموقف الكفر ، فى صراعها وجدلها المرير .. إلى أن ينتصر الحق .. أو تنزل لعنة الله على الكافرين ..

● ها نحن يا قوم رسل ربنا إليكم لنخرجكم من الظلمات إلى

---

(١) فى ظلال القرآن ـ مجلد ٥ ص ٢٩٦١ . الشروق .

النور .. وتبدو العقلية الجاهلية جلية واضحة ، فى ردها على الرسل .

ـ كيف ، وأنتم بشر مثلنا .. إنكم تدعون الكذب .. فالله ينزل وحياً وأنتم كبشر لا تفضلوننا فى شيء ..

ويخرج الخطاب من الخبر إلى التأكيد ، أمام هذا الانكار وهذا العناد .

● إن الله يعلم أننا رسله إليكم ـ وليس علينا إلّا أن نبلغ رسالته .. تلك الرسالة التى تدعوكم إلى نبذ الوثنية وعبادة الله وحده لا شريك له .. ويتأفف أهل القرية بما طبع فيهم من جهل وحمق وسفه وعناد ووثنية ..

وهم لا يأخذون البلاغ مأخذاً يقينياً ، ولا يطيقون الدعاة فتأخذهم العزة بالإثم ويصرخون فى وجوه الرسل ..

ـ إننا نتشاءم منكم ونتوقع الشر من دعوتكم .. وإن لم تنتهوا نعذبكم .. إن القول بالتشاؤم خرافة من خرافات الجاهلية . وهؤلاء الرسل يظهرون لقومهم خرافة هذه الدعوة . وأن الخير والشر لا يأتيهم من خارج أنفسهم بل هو معهم يصحبهم أينما ذهبوا وحلوا ..

● إنكم قوم مسرفون فى العصيان والضلال .. فأنتم تتشاءمون بمن يجب أن تتبعوهم فى دعوتهم إلى التوحيد .

وإلى هنا يتبدى الموقف على الحقيقة . فهؤلاء القوم يعاندون ويستكبرون ويتشاءمون ومن ثم يرفضون الدعوة .. ويُظهر الحوار طبيعة الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويكشف عن طبائع

الرسل النيرة ، المنيرة ، وعن طبائع أهل القرية المظلمة ، القاسية الظلمة .

وينتقل سياق القصة إلى موقف آخر ، موقف مؤازر للرسل ، موقف المؤمن المهتدى ، وهو موقف يتضاد تماماً مع موقف أهل القرية الذين ضلوا وينتقل السياق من الحوار إلى السرد ، ليضيف للقصة حدثاً جديداً يجدد الموقف ويدفع بالصراع الدائر إلى نهايته .

فها هو رجل يستجيب لدعوة الحق ، إنها استجابة الفطرة السليمة ، وكان رجلاً مأزوماً فى نفسه أو فى أهل بيته[1] ، ويواجه الرجل المؤمن قومه قائلاً : يا قوم إنى أنصح لكم ، فآمنوا بما جاء به الرسل واتبعوهم .. وكأنما يلمح فى عيون القوم نظرة دهشة وتعجب ، تحمل انكاراً لهذا الموقف ـ نظرة تعرض به وبشرفه ، فيسرع قائلاً .. وناصحاً .

ـ إنهم والله صادقون فى دعوتهم ، لا يطلبون أجراً ولا مغنما .. إنكم تربحون معهم خير الدنيا والآخرة .

ويبدو أن الرجل كان فقيراً فى قومه ، وكأن نظرة القوم الساخرة المباغتة فيها إدانة للرجل .. وكأن لسان القوم يقول : ما الذى

---

(١) قيل إنه حبيب النجار وإنه كان مجذومًا فبرىء من مرضه فآمن . وقيل أن إبنه كان مريضًا فعُوفى وآمن . وقيل أنه كان نحاتًا للتماثيل . وقيل أنه كان يحيك الثياب ..
وعن رسول الله أنه قال : **سُبّاق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين : على بن أبى طالب . وصاحب يس . ومؤمن آل فرعون** . والقرآن لم يتعرض لذلك كله . وإنما سيقت للعبرة .
انظر : الكشاف جـ٣ ص ٢٨٣ . الظلال مجلد ٥ ص ٢٩٦١ . صفوة التفاسير جـ٣ ص ١١ وكذلك القرطبى وابن كثير .

حملك على ذلك؟ أهو فقرك : أهى حاجة تحتاجها ! أم أنهم أعطوك فتملكوك بما أعطوا؟ ...

والسياق يدعو إلى هذا .. فيسارع الرجل المؤمن إلى القول .. وهو يحسنه ، وهو يؤمِّل ألا ينزل عليهم منزل سوء .. فيستاءون منه .. وتضيع الحكمة من الحوار .

ـ ما الذى يمنعنى يا قوم من أن أعبد خالقى الذى أبدع صورتى : إنه الله الواحد الذى إليه مرجعكم يوم القيامة .. يا قوم ما أقبح ما تفعلون ، كيف تتخذون أصناماً آلهة لا تضر ولا تنقذ أو تشفع من عذاب الله ..

ويواجه القوم حاداً حاسماً ، مؤمناً قوياً ، يعنى نفسه ، وهو يقصد قومه .

ـ إننى يا قوم لو فعلت ذلك لكنت من الضالين ، وحاشاى أن أفعل ذلك .

.. ها أنذا أعلن إيمانى .. يا أيها الرسل .. إننى أومن بدعوتكم .. أومن بالله واحداً لا شريك له ـ فاسمعوا ما أقول .. إننى أشهدكم على ذلك ..

.. وينتقل السياق السردى إلى موقف آخر .. موقف النهاية .. حيث لم يمهل القوم المؤمن .. فقتلوه . وها هو الستار يسدل على الدنيا ويفتح على العالم الآخر .. لنطلع على ما ادّخِر لهذا الرجل المؤمن الصلب الشهيد فى الحق .. إنه الفوز بالجنة وهو فى هذا النعيم يتمنى لو أن قومه يرون النعيم الذى يحفل فيه ليتعرفوا إلى الحق ويؤمنوا به .

وإذا كان ذلك هو جزاء الإيمان فإن الطغيان ووجه بصيحة واحدة أخمدت أنفاس الطغاة . فما كانت عقوبتهم إلّا صيحة واحدة صاح بهم جبريل فإذا هم ميتون لا حراك بهم . قال المفسرون . وفى الآية استحقار لإهلاكهم فإنهم أذل وأهون على الله من أن يرسل الملائكة لإهلاكهم[1]

تلك قصة تاريخية جاءت على هيئة المثل .. لاحتمال وقوعها ، ومن ثم برز فيها العظة والعبرة التى تتجدد بتجدد مناشط الإنسان فى نظرته إلى الكون والحياة ، وابتعاده أو قربه من العقيدة .

ولقد ضرب الرجل المؤمن مثالاً فريداً فى التضحية بالنفس والشهادة فى سبيل المعتقد الدينى ، مثله فى ذلك مثل أصحاب الأخدود . وإذا كان الموت لا بد منه كما يقول إبن تيمية فى الجواب الصحيح ، فالموت الذى تحصل به سعادة الدنيا والآخرة أكمل[2] وأوجب وأدخل إلى الإيمان والفوز بالجنة .

ومضرب هذه «القصة المثل» موجه إلى مشركى مكة الذين كذبوا الرسول ، وفيها إنذار بالعذاب مثلما حدث لأصحاب القرية .

ومن محاسن التنزيل الحكيم وبلاغته الخارقة ، الإيجاز فى القصص والأنباء والإشارة إلى روحها وسرّها لأن القصد من القصص التذكير والاعتبار ، ولهذا لم يذكر فى القصة إسم البلدة ولا إسم الشخص الذى دعاهم إلى الله ولا الرسل الكرام ، لأن كل ذلك ليس هو الهدف من القصة[3] وعدم إفصاح القرآن عنها

---

(١) صفوة التفاسير جـ ٣ ص ١١ . (٢) سيكلوجية القصة ١٥٨ .

(٣) صفوة التفاسير جـ ٣ ص ١٣ .

دليل على أن التحديد لا يزيد شيئاً فى دلالة القصة وإيحائها ، ومن ثم مضى إلى صميم العبرة ولبابها[1]

والتعبير القرآنى يؤلف بين الغرض الدينى والغرض الفنى فيما يعرضه من الصور والمشاهد القصصية . ذلك أن قصة «أصحاب القرية» جمعت بين لونين فنيين مؤثرين فى الوجدان ، السرد وجاء عرضاً متمثلاً فى حضور الرسل ومجىء الرجل المؤمن مع فجوات لاحظناها تثير الذهن وتستحوذ على مخيلة المتلقى ، والحوار الذى يعطى حيوية وتأثيراً يشدان السامع إلى المتابعة ومن ثم الجدل والمحاورة . ولقد كشف الحوار ـ علاوة على الهدف الدينى ـ جوانب الشخصيات المتحاورة ، شخصية الداعى والمؤمن والكافر الجاحد ـ بحيث تتبدى لنا الشخصية معبرة عن نفسها وعن موقفها .. (فالفن والدين صنوان فى أعماق النفس وقرارة الحس ، وإدراك الجمال الفنى دليل استعداد لتلقى التأثير الدينى)[2] ..

● ولنضرب نموذجاً آخر من «القصة المثل» يتجه إلى التوجيه والتأديب والارشاد وتقويم السلوك ..

وهو نموذج يتضمن قصة «صاحب الجنتين» وقد وردت الآيات فى سورة الكهف . قال تعالى :

﴿واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً . كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً ، وفجرنا خلالهما نهراً . وكان له ثمرٌ فقال لصاحبه وهو

---

(١) فى ظلال القرآن مجلد ٥ ص ٢٩٦١ .

(٢) التصوير الفنى ص ١٤٣/١٤٤ .

يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفراً . ودخل جنته وهو ظالمٌ لنفسه قال ما أظنّ أن تبيد هذه أبداً . وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربّى لأجدنَّ خيراً منها منقلباً . قال له صاحبه وهو يحاوره ، أكفرت بالذى خلقك من ترابٍ ثمّ من نطفةٍ ثمّ سوّاك رجلاً . لكنّا هو الله ربّى ولا أشرك بربّى أحداً . ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله ، لا قوة إلّا بالله ، إنْ ترن أنا أقلّ منك مالاً وولداً . فعسى ربى أن يؤتين خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً . أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً . وأحيط بثمره ، فأصبح يقلب كفّيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحداً . ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً﴾[1] .

ولعلنا نلاحظ أن الأمر موجه إلى محمد ﷺ ليضرب هذه القصة المثل ، لكفار قريش عامة وأغنيائها خاصة . إنها قصة رجلين ، أنعم الله على أحدهما بحديقتين ممتلئتين بالأعناب ومحفوفتين بأشجار النخل والمياه تجرى فينبت الزرع وينضج الثمر . وتأخذ الرجل الغنى الغفلة ، ويسيطر عليه الكبر ويحتويه الجحود ، فتاه بغناه وما له وأنصاره وتصور ـ وهو يكفر بنعم الله ـ أن ذلك الغنى أبدى لا يزول ، وتمادى فى ظلمه لنفسه ، فادعى بأن القيامة لن تكون وإن كانت فسيجازى خيراً أكثر مما عنده . وهنا يتقدم صاحبه محاوراً إياه ومبيناً له أصل خلقه الترابى حتى يرتدع ويتواضع ويشكر الله على نعمه ، ويضرب المثل بنفسه ، فهو الرجل الفقير

---

(١) سورة الكهف آية ٣٢ ـ ٤٣ .

مالاً وولداً ، ومع ذلك فإنه يرجو الله أن يمنحه ما هو خير من الجنتين ، وينبهه ـ وهو المؤمن ـ بعذاب من الله يتمثل فى إرسال الصواعق على الجنتين فتصبح ملساءً لا حياة فيها ولا ماء .. ولقد تحقق ما أنبأه به المؤمن الفقير ، فهلك المال ، وحلّ الخراب والدمار ، وتحسر الغني وهو يرى ما آلت إليه الجنتان ، وظل يضرب كفّاً بكف حسرة وندماً على ظلمه لنفسه بشركه بالله وكفره بأنعمه ، وإنكاره للقيامة وأصبح وحيداً لا معين ولا مؤازر ، وادرك فى النهاية أن القوة لله مصداقاً لقوله تعالى : ﴿**هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً ، وخير عقباً**﴾ .

● وإنها لقصة بديعة لما فيها من تشخيص حيّ للمشاهد يقصر عنه التعبير فى أى أسلوب آخر غير الأسلوب القصصى .

ولقد ضرب الله القصة مثلاً للكفار من قريش الذين افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين . فبين الله تعالى أن ذلك مما لا يوجب الافتخار ، لاحتمال أن يصير الفقير غنياً ، والغنى فقيراً . أما ما تحق المفاخرة به ، فطاعة الله وعبادته وهى حاصلة لفقراء المؤمنين وبيَّن ذلك بضرب هذا المثل الذى كانت فيه العاقبة المحمودة للمؤمن .[1]

إن الحق لا يرتبط بكثرة المال والسلطان وإنما هو مرتبط بالعقيدة . فثمة قيم زائلة وقيم باقية . والقصة ترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة والنفس المعتزة بالله ، وكلاهما نموذج لطائفة من الناس . صاحب الجنتين نموذج للرجل الثرى .

---

(١) سيكلوجية القصة ص ٢٥٠ .

تذهله الثروة وتبطره النعمة ، فينسى القوة الكبرى التى تسيطر على أقدار الناس والحياة ، ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفنى .

وصاحبه نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه الذاكر لربه يرى النعمة دليلاً على المنعم ، موجبة لحمده وذكره ، لا لجحوده وكفره .[1]

ولقد اختلطت الأداة الفنية بالغرض الدينى التربوى ، فأثرت القصة ثراءً فنياً وأبرزت الجمال فى أسلوب تعبيرى أخاذ .. أدى إلى «عمق المعنى وجمال التصوير»[2] .

ولقد تمثلت الأداة الفنية فى عنصرين أساسيين : هما السرد والحوار .

أما السرد فشمل الوصف وتهيئة المدخل إلى جوهر القصة .. وإثارة الحس الجمالى فى الملتقى ، ولقد رسمت الآيات الجنتين فى إزدهار وفخامة وجمال أخاذ .

فها هو شجر العنب محمل بعناقيده اللذيذة ، يمتع العين وتشتهيه النفس . وتلك أشجار النخيل السامقة تنغرس كالسياج تحيط بالبستان ، تلقى بالظل ، وتنعقد حباتها الحمراء فى عراجينها الصفراء ، فتبدو أكثر جمالاً ورونقاً ، وهذه المياه المنسابة فى رقرقة جميلة وخرير هاش يحمل النماء للزرع والنبات .. صورة طبيعية جميلة فى إطار من الابداع الرائع .

كما يبين السرد أيضاً حالة التعالى والافتخار ، والزهو والبطر .

---

(١) فى ظلال القرآن مجلد ٤ ص ٢٢٧٠ .

(٢) التعبير الفنى فى القرآن ص ٢٣٠ .

وكأنما يحادث نفسه ـ بطراً وتعالياً ـ وهو يتجول وسط هذا المشهد الطبيعى الأخاذ .. بأن ذلك ثابت لا يزول .. وأخذته النفس التياهة فوقع فى براثنها ، وسقط فى الكفر ..

والعنصر الثانى هو الحوار .. تلك الأداة الفعالة التى كشفت طبيعة الشخصية ـ شخصية الغنى الكافر الجاحد بنعم الله ، وشخصية الفقير المؤمن بربه الطامع فى ثوابه .

ولقد حملت ألفاظ الحوار تلك الدلالة ، فبينما كانت ألفاظ الأول تشى بحقيقته ﴿**أنا أكثر منك مالاً** ..﴾ ﴿**ما أظن أن تبيد** ..﴾ ﴿**ما أظن الساعة قائمة** ..﴾ جاءت ألفاظ الثانى لتوضح تلك الطبيعة المؤمنة المتواضعة ﴿.. **انا أقل منك مالاً**﴾ ﴿**لا أشرك بربى أحداً**﴾ ﴿**ما شاء الله . لا قوة إلّا بالله**﴾ .

وهكذا جسمت هذه القصة ما تضمنه الحوار فيها من المعانى الكلية المجردة فقربت حقائقها إلى الأذهان بما ضربت من مثل بليغ مؤثر ، أبان أن القيم الحقيقية ليست فى اللذائذ المادية .. وعلى الإنسان أن يذكر ربه الذى أنعم عليه وذلك بطاعته والتواضع له والانفاق فى سبيله وإعانة ذوى الحاجات عملاً بقوله ﷺ (**الخلق كلهم عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله**) وعندئذ يأمن من أن يستحوذ عليه الخوف اللاشعورى المتأصل فى أعماق الإنسان من غرور النجاح المطرد والغنى الواسع[١]

ولا ينسى القوة المطلقة التى تسيطر على حظوظ الناس فى

---

(١) سيكلوجية القصة ص ٢٥٣/٢٥٤ .

الحياة ، فمهما يبلغ الإنسان من سعة الرزق والسلطان فليس بخارج عن مشيئة الله وملكوته .

ويجب أن نلاحظ فى القصة هذا الطابع الواقعى الذى يترقرق من نسيج القصة . فالأحداث ـ وهى صفة أساسية فى القصة المثل ـ تكاد تكون من الوقائع الحياتية التى نمر بها فى الحياة ، فضلاً عن أن نماذج الشخصية لها ما يشابهها ويضاهيها فى واقع الناس ومسالكهم . فالوقائع تتشابه ، والأشخاص تتماثل ، ومن ثم يتبدى الغرض الدينى الكامن وراء القصة ، حيث يملؤنا اليقين بأن القوة لله جميعاً ..

فالقصة مشاهد رهيبة تتنامى فيها الأحداث مع النتائج فى انسجام تام . إذ يُطالع القارىء خلال القصة «مسيرة الأحداث والأشخاص حتى النهايات الضرورية ، التى تعلمه وتقوّمه وتصحح نظره إلى الحياة ..»[1] .

إن القصة المثل خير إطار تعبيرى لتمثيل القضايا الدينية ، والحقائق العقلية وذلك بتجسيد تلك القيم الدينية والعقلية فى قالب قصصى محسوس ، بحيث تجعل المتلقى أكثر قدرة على الفهم والاستيعاب وأكثر قدرة على تمثل المعنى الدينى والعبرة الخلقية ، مما يؤكدها فى النفس ويعمقها فى الإحساس .

---

(١) قصص وعبر ص ١٦٥ .

القصة التاريخية

إن القصص القرآنى حافل بالتاريخ ، وكل الوقائع والأحداث التى حدثت وجاءت فيه صحيحة تاريخياً ، لا يدخلها شك أو وهم .. «والشخصية الدينية لها إلى جانب الوجود المادى الذى يعنى به التاريخ العام والذى تتمثل فى الميلاد والوفاة والموطن والعمر ، والمظهر والمزاج والعلاقات الشخصية» وجود روحى يتمثل فى الفكرة والدعوة والأثر فى الناس ، توجيهاً وتغييراً وإلهاماً .. فالشخصية الدينية لا تكسب قليلاً أو كثيراً من إحاطة المؤرخ أو الناس بمظاهرها المادية وعلاقاتها الدنيوية ، لأنها موجودة فى الفكر الذى دعت إليه ، وفى العقيدة التى بعثتها وفى التطورات التى أدخلتها فى حياة الأفراد والأمم)[1] ..

وقد يرى البعض ممن جنح بهم التفكير إلى أن القرآن الكريم تصرف فى الحقائق التاريخية انطلاقاً من استغلال الأدب للتاريخ .. مما يوحى بعدم الالتزام فى الصدق والدقة التاريخية ومما يعنى اسقاط القرآن لتفصيلات جزئية لها طابع الحقيقة فى القصة الواردة ، مستندين فى ذلك إلى الخلاف الذى طرأ حول تاريخية القصص مثل أصحاب الكهف وعددهم والزمن والمكان الذى شهد الواقعة ..

---

(١) الإسلام والمذاهب الحديثة ص١٥٤ .

منتهين إلى القول بأن القصص جاء للعظة والعبرة فقط . وإن ما قصده (المفسرون القدامى والمحدثون من قولهم إن القصص القرآنى جاء للاعتبار والتوجيه الدينى ، واستنباط الحقيقة الدينية منه ، هو ألّا يلتفت المسلمون عن هذه الغاية السامية إلى البحث عن تفاصيل هذه القصص كلون كلب أهل الكهف وعددهم وأوصاف ذى القرنين وأسماء بعض الشخصيات التى لم يذكرها القرآن ، والأزمنة والأمكنة التى حدثت فيها هذه الأحداث .. ولكنهم لم يقصدوا أن الحقائق التاريخية للقصص القرآنى قابلة للنقد وللخلاف والإنكار)[1]

وثمة ملحوظة دقيقة يجب التأكيد عليها وهى أن هناك فرقاً بين ما يرويه القرآن من مزاعم المشركين والمبطلين ويفضحها ويرد عليها ، ويعظ المسلمين بها ، وبين ما يقصه هو من عنده من قصص الأنبياء والصالحين وما ينبىء بحدوثه مستقبلاً من عبر وعظات ..

ولقد وردت آيات كثيرة ترد هذا الافتراء وتفضح هذه الأباطيل .. منها قوله تعالى : ﴿**وقالوا أساطير الأوّلين ، اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلاً . قل أنزله الذى يعلم السرّ فى السموات والأرض ..**﴾[2]

والأساطير قصص التبس فيها الواقع بالخيال ، وأضاف الخيال الشعبى من عنده إلى الحقيقة إضافات تراكمت على مر الزمان والعصور حتى أضحت الخرافة والباطل هى سمة هذا النوع من

---

(١) القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته ص ١٦٨ جـ ٣ .
(٢) سورة الفرقان آية ٥ ـ ٦ .

الأنباء وطبيعة هذا الحكى عن تلك القصص . ومن ثم انسحب خيط الحقيقة فأضحى واهناً لا يبين .

ولقد زعم البعض[1] أن فى قصص القرآن أساطير من أنباء الغابرين وأن القرآن ببنائه القصة الدينية على بعض الأساطير قد جعل الأدب العربى يسبق غيره من الآداب العالمية فى جعله القصة الأسطورية لوناً من ألوان الأدب ..

وهو ادعاء فيه كثير من البهتان .. لأن القرآن كتاب الله يهدى إلى الحق عن طريق الأحكام والتشريع وعن طريق الأخبار التى يرويها عن أحوال الأمم الغابرة . وهى رواية لا باطل فيها ..

ذلك أن البطلان صفة من صفات الأساطير ، ولقد ورد فى المعاجم أن الأساطير بمعنى الأباطيل والمفرد أسطورة[2] ، وهى حكايات خيالية عن القرون الغابرة : ولقد عقب القرآن الكريم على إدعاء المشركين بأن القرآن الكريم من أساطير الأولين بأنه وزر وضلال وبأن جزاءه النار وشديد العذاب . ولقد أكد القرآن الكريم فى مثل هذه الآيات التى ورد فيها هذا الادعاء . أكد على أن الذى أنزل القرآن الكريم أحكاماً وأمثالاً وقصصاً هو الله سبحانه الذى يعلم السر فى السموات والأرض .. وهو دليل على أن كلمة أساطير تعنى الأباطيل وأن القرآن الكريم هو الحق والصدق والخبر اليقين[3]

وإذا كانت الواقعة التاريخية لبنة من بناء يصنعه عقل إنسان

---

(١) ممن زعم هذا الزعم الدكتور محمد أحمد خلف الله فى كتابه (الفن القصصى فى القرآن) .

(٢) مختار الصحاح ص ٢٩٨ .

(٣) القرآن الكريم كتاب أحكمت آيات جـ ٢ ص ١١٠/١١١ .

ليفسر جانباً من حياة طائفة من الناس لفترة محددة[1] فإن الواقعة القرآنية تعلو على الزمان والمكان .. وتتمثل فى فكر الإنسان ـ الشخصية المحورية للقصة أو الواقعة وما جاء به من دعوة أو عقيدة .

ولقد أخضع القرآن فى قصصه الوقائع التاريخية إلى الحقائق الدينية إذ ليس فى مجرى هذه الأحداث ما يحصل بمحض الصدفة أو بتأثير الظروف المادية وحدها ، وإنما تأتى وفق السنن التى تساير الإرادة الإلهية فى الثواب والعقاب ، والبقاء والفناء .

ولقد أورد القرآن كثيراً من ألوان العذاب الذى لقيته الأمم الغابرة نتيجة عنادها وجحودها وكفرها بربها .. وتعدَّد العذاب وتنوع .. من طوفان يغرق البشر ، ومن صواعق تجعل الناس كأعجاز نخل خاوية ، ومن صرخة واحدة تصيبهم بالموت جاثمين ، ومن صيّب فيه رعد وبرق لا يبقى ولا يذر ويجعل كل شىء كالهشيم المحتظر .

وقد يرى البعض أن تلك مظاهر وكوارث طبيعية لا ترتبط بالعقاب الإلهى وهم دعاة المذهب المادى الذى يبعد الحركة التاريخية عن المنطق الدينى وأحكامه . ذلك أن تعذيب بعض الأقوام السابقين بالصاعقة أو الزلزال أو الريح لا يمنع أن يكون كل نوع من أنواع هذا التعذيب قد حصل بتوفر أسبابه الطبيعية التى تجرى وفق السنن الإلهية والتى هى جزء من المخطط الإلهى[2]

ونحن حين ندرس نموذجاً للقصة التاريخية نقرر أن القرآن وهو

---

(١) الإسلام والمذاهب الحديثة ص ١٥٥ .

(٢) سيكلوجية القصة ص ١٧٩ .

يحكى عن أمة من الأمم ، لم يلتزم فيما انتقى من أخبار التاريخ قواعد تدوينه وعرضه ، كذكر زمان الواقعة ومكانها وترتيبها الزمنى ، وإنما انتخب الوقائع لتحقيق الهدف الدينى وصاغ ذلك فى أسلوب تعبيرى غاية فى التأثير والقوة والاعجاز .

● ولنأخذ نموذجاً للقصة التاريخية يتمثل فى أهل مدين .. ولقد وردت القصة فى سورة هود ..

قال تعالى :

﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بَقِيَّتُ الله خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ . قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد . قال يا قوم أرأيتم إن كنتُ على بينة من ربى ورزقنى منه رزقاً حسناً وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلّا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلّا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوطٍ منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيمٌ ودود . قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنّا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز . قال يا قوم أرهطى أعزّ عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً إنّ ربّى بما تعملون محيط . ويا قوم اعملوا

على مكانتكم إنّى عاملٌ ، سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذبٌ وارتقبوا إنى معكم رقيب . ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمةٍ منّا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ألا بعدًا لمدين كما بعدت ثمود﴾ [1] .

هذه قصة تاريخية تتناول أهل مدين ونبيهم شعيب . وهذه القصة شأنها شأن القصص الأخرى التى تناولت قصص الأنبياء مع أقوامهم .. ولقد اختلف المفسرون حول مدين ، فهى قرية من أرض معان من أطراف الشام وهى مدينة عرفت بالقبلية ، وقوم مدين الذين وردوا فى هذه الآيات قيل أنهم غير أصحاب الأيكة التى وردت فى آيات سورة الشعراء فى قوله تعالى :

﴿كذّب أصحاب الأيكة المرسلين . إذ قال لهم شعيب الا تتقون . إنى لكم رسول أمين ...﴾ [2]

ولقد ورد عن الرسول مرفوعاً **(أن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيبا النبى عليه السلام)** .

وهذا الاختلاف فى المكان ينفيه هذا التوافق فى النسق القرآنى وهو يصف طبيعة هؤلاء القوم .. بالفساد حيث يطففون الكيل والميزان مما يدل على أنهم أمة واحدة ، ولكنه تعالى أخبر عنهم فى كل سورة بما يناسب سياقها . فى سياق القصة فى سورة الأعراف أرجفوا نبى الله وأصحابه وتوعدوهم بالاخراج من قريتهم أو ليعودُنّ

---

(١) سورة هود آية ٨٤ ـ ٩٥ .

(٢) سورة الشعراء انظر آيات ١٩١/١٧٦ .

فى ملتهم فقال تعالى : ﴿**فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين**﴾ فقابل الإرجاف بالرجفة . وفى سورة هود ذكر القرآن الكريم أنهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين لأنهم قالوا للنبى شعيب على سبيل التهكم والاستهزاء ﴿**أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا**﴾ فناسب أن يذكر القرآن الصيحة التى هى كالزجر عن هذا القول القبيح . فجاءتهم صيحة اسكتتهم مع رجفة اسكنتهم [(١)] .

وكما اختلف المفسرون حول مدين ، فلقد اختلفوا حول شعيب أيضاً . فقيل أنه ابن ميكيل بن يشجن ، وقيل أنه شعيب بن يشخر ابن لاوى بن يعقوب وقيل أنه ممن آمن بإبراهيم يوم أُحرق بالنار ، وورد عن الرسول ﷺ فى رواية أبى ذر (**أربعة من العرب : هود وصالح وشعيب ونبيك يا أباذر**) .. ووصف بعض السلف شعيباً بأنه خطيب الأنبياء .* ولقد سكت القرآن عن ذلك كله ، وأكد على أن أهل مدين قوم كافرون يعبدون الأيكة ويقطعون السبيل ويبخسون الكيل والميزان وأن شعيباً النبى رجل منهم بعثه الله إليهم رسولاً داعياً إياهم إلى الوحدانية وناهياً إياهم عن القبح والفساد فآمن البعض وكفر الأكثرون حتى أحل الله بهم البأس الشديد . [(١)]

والقصص التاريخى هو أكثر قصص القرآن ، وهو وإن خلا من

---

(١) انظر قصص الأنبياء لابن كثير ص ٢٨٨ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

* وقيل عن شعيب عنه كان بعد يوسف . وعن وهب بن منبه أن شعيبًا مات بمكة ومن معه من المؤمنين وقبورهم غربى الكعبة بين دار الندوة ودار بنى سهم/ابن كثير ص ٣٠٢ .

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

التفاصيل أو تحديد الزمان أو المكان إلّا أنه يتصف بالصدق وصحة الخبر ، ذلك لأن القرآن ليس تاريخاً يروى أو قصصاً تحكى ، وإنما هو كتاب هداية وموعظة . فالقصة التاريخية لم تذكر لمجرد سرد لتاريخ الحدوث وتسجيل تفاصيل الأحداث ، وإنما للتأكيد على العظة والعبرة مصداقاً لقوله تعالى : ﴿**لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب**﴾ .

وتحكى القصة أن أهل مدين كفروا بالله وأشركوا به ، إذ عبدوا الأيكة من دون الله وطففوا فى الكيل والميزان ولقد بعث الله فيهم شعيباً يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وأمرهم بالعدل ونهاهم عن الظلم وحذرهم من عاقبة الظلم والفساد ، كما نهاهم عن قطع الطريق ، وذكرهم بنعم الله وآياته الكبرى عليهم .. فلقد كانوا قلة فأصبحوا كثرة ، وفقراء فأصبحوا أغنياء .. ولقد تلطف شعيب مع قومه حين دعاهم إلى الحق بالطريق المبين ، فلم تبد منه جفوة بل أحسن الجدل واستمالهم باللين . وذكرهم بما بينه وبينهم من صلة ، وأوضح لهم أن ظهور البينة بالنبوة والرسالة وكثرة نعم الله عليه تحول بينه وبين طريقهم الضال ودعوتهم الفاسدة ، وهو لن يكرههم على اتباع دعوته ولا يأمرهم بشيء إلّا رضيه لنفسه ، وهو مشهور بينهم بالحلم والرشد ، إنه لا يريد إلّا الإصلاح ما استطاع . ولكن شعيباً رأى فيهم النفور والعناد وتلك طبيعة كل الأقوام من الفجار الذين خالفوا الأنبياء ، ولكنه دأب على النصيحة والدعوة إلى الله فوجد من بعض القوم آذاناً صاغية وقلوباً واعية وآمن به نفر قليل وظل ينهاهم عن ارتكاب الإثم ، فارتكاب الإثم لا يمنع من الإيمان بالله

ومن ثم التوبة والنجاة من العذاب .. ولكنهم توعدوه حين رأوا الأتباع يكثرون يوماً بعد يوم .. توعدوه ومن آمن معه بإخراجهم من القرية .. إلّا أن يبرأوا من دينهم الجديد ويعودوا إلى ملتهم الأولى . ولما يئس شعيب منهم دعا الله أن يجزيهم على كفرهم وجحودهم ، والقوم لا يبالون بما يقول . لاهون عن الحق ، مقبلون على الدنيا .. مسرفون فى فحشهم وفجورهم وظلمهم ، بل بلغ بهم الأمر أن تحدوا شعيباً أن يحل بهم العذاب كما يردِّد ، أو تسقط عليهم كسف من السماء . واستجاب الله دعاءه وآزره بنصره وابتلاهم بحر شديد ، لا يرويهم فيه ماء ، ولا يظلهم ظل ، ولا تحميهم المنازل والبيوت . وفروا من قضاء الله إلى قضاء الله ، حيث استظلوا بسحابة تقيهم من وهج الشمس وحرارتها ، حتى إذا تجمعوا واكتملوا رمتهم السحابة بالشرر والشهب ، وجاءتهم الصيحة من السماء وزلزلت الأرض تحت الأقدام .. وكانت الفاجعة [1] . ولقد جمع الله عليهم أنواعاً من العذاب وأشكالاً من العقاب . لما اتصفوا به من قبح وفساد ، فسلط عليهم الرجفة الشديدة التى أسكنت الحركات ، والصيحة العظيمة التى أخمدت الأصوات ، والظلة التى رمتهم بالشرر والشهب من جميع الجهات [2] .

وهذه القصة التاريخية وردت فى سورة هود ، وهى سورة مكية ، ولقد نزلت فى فترة حرجة من حياة الرسول ﷺ حيث تجرأت قريش عليه بعد وفاة عمه أبى طالب وزوجته خديجة رضى

(١) قصص القرآن . محمد أحمد جاد المولى ص ١١٠ .
(٢) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٢٨٧ ـ ٣٠٢ .

الله عنها ..

وقال المقريزى فى إمتاع الأسماع : **(فعظمت المصيبة على رسول الله بموتهما وسماه عام الحزن)** وقال : «**مانالت قريش منى شيئاً أكرهه حتى مات أبوطالب**» لأنه لم يكن فى عشيرته حامياً له غيره .

ولقد جاءت السورة بما ورد فيها لتثبيت الرسول والذين معه ومؤانسته والتسرية عنه .. وهو هدف من أهداف القصة التاريخية التى تتناول قصص الأنبياء وقصص الأمم الغابرة ، حيث استعرضت الآيات الكريمة حركة العقيدة فى التاريخ البشرى من لدُن نوح حتى محمد .. مؤكدة على التوحيد والديانة لله وحده .. وموضحة أن الأقوام قد تلقوا ذلك عن طريق رسل الله ، هداة البشر إلى الحق والصواب .. مشيرة إلى أن الدنيا دار بلاء واختبار ، وأن حرية الاختيار هى محور هذا الابتلاء .[1]

والآيات الكريمة وهى تسوق قصة مدين «تبين مراعاة الأمانة وضرورة توفرها فيما يتصل بالشئون المالية ، خاصة إن كانوا قوماً للمال فى حياتهم دور كبير . وهم فى ذلك يشبهون أهل مكة وسراتها من التجار والأثرياء فى عهد رسول الله ، وكانوا يتعاملون فى أموالهم بالبخس والربا ، فكان إيراد هذه القصة تسرية للمسلمين من سوء المعاملة ، وبياناً للمسلك المالى الخاطىء الذى يسلكه كفار قريش ، فشئون المال لها صلة وثيقة بالدين)[2]

ومن سنن الله فى الأمم أنه إذا استشرى فيها الفساد وانغمس

---

(١) الظلال مجلد/٤ ص ١٨٤٠ .

(٢) نظرات فى قصص القرآن جـ١ ص ٧٥ .

حكامها فى الترف ولم يأبهوا لمصالح شعبهم ولم يأخذ العقلاء فيها على أيديهم كان المصير عذاباً شديداً يحيق بهم ويزلزل حياتهم . وذلك مصداقا لقوله تعالى فى ختام السورة وبعد إيراد قصص الأنبياء مع أقوامهم .. ﴿**ذلك من أنباء القُرى نقصُّه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمرُ ربك ، ومازادوهم غير تتْبيب**﴾[1] .

وعود إلى صدق القرآن فى روايته للقصص التاريخى ، ندرك أن القرآن يقرر هذا الصدق ، وهذا الاعجاز التاريخى .. فى اسلوب قاطع بعيد عن الشك لا يحتمل التأويل أو الاجتهاد مع النص .. ذلك أنه يقص على رسول الله فى زمان مغاير ومكان متباين وبعد آماد طويلة سحيقة ، يقص قصص الأمم الغابرة وقصص الرسل الكرام أولى العزم والقوة والصمود ، مبيناً أن تلك أمور من الغيب يوحى بها الله إلى رسوله مثلما يوحى بغيره من الآيات القرآنية الأخرى ، ويمن عليه بسرد هذه الأنباء عبر الوحى الإلهى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه (قاصداً فى الوقت نفسه : تقرير الاعجاز بهذا العلم التاريخى الذى سماه المبطلون «أساطير الأولين»)[2] .. ويحسم القرآن هذه القضية فى آيات كثيرة : منها قوله تعالى : ﴿**تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك . ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا .. فاصبر إن العاقبة للمتقين**﴾[3]

---

(١) سورة هود الآية ١٠٠ ـ ١٠١ .
(٢) القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته جـ٣ ص ١٧٢ .
(٣) سورة هود آية ٤٩ .

لقد جعل الله سبحانه بقاء الأمم ونماءها فيما تتحلى به من الفضائل ومكارم الخلق ، انطلاقاً من الإيمان والتوحيد ، والعمل بهذا الإيمان هو مناط الفعل الذى يؤاخذ عليه الإنسان ثواباً أو عقاباً ، وهو نفسه الوسيلة التى تترقى بها الأمم إلى درجة من الصفاء القلبى والطهارة فى المسلك والمقصد . ومن ثم لم يكن عجيباً ، أن ترتبط الدعوة إلى التوحيد بالعمل الصالح فى مناحيه المختلفة وتعدد أنماطه فى الحياة والسلوك وهو تلخيص لما قاله ﷺ **«قل آمنت بالله ثم استقم»** فهذا الحديث الموجز لخص حركة التاريخ كلها وحركة العقيدة التى تحملها الرسل وأبلغوها إلى أقوامهم .. الإيمان والعمل به .. ولأن الإيمان إجتثاث من الجذور الوثنية وزرع لبذرة التوحيد ، وُوجه دائماً بالصد والمعاندة والضلال والمكابرة ومن ثم جاءت سنة الله المتواترة فى أنه جعل زوال الأمم واضمحلالها فى التخلى عن الإيمان ، وعن العمل الصالح ، والخلق الكريم ، وتلك سنة لم تختلف من أمة إلى أمة أو من زمان إلى زمان . إنها سنة لا تتبدل بتبدل الزمان والأجيال .

● وإذا ما أخذنا نموذجاً آخر .. لقوم عاد .. فإننا نجد أن تلك السنة الالهية ثابتة ، لم تتغير .. فقوم عاد وموقفهم من رسولهم .. مثلهم فى ذلك مثل قوم نوح ، وصالح ، وشعيب ، ولوط ، وموسى ، ومحمد عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

قال تعالى :

﴿وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلّا مفترون . يا قوم لا أسألكم عليه أجْراً إن أجْرى إلّا

على الذى فطرنى أفلا تعقلون . ويا قوم استغفروا ربَّكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوةً إلى قوّتكم ولا تتولوا مجرمين . قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلّا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ، قال إنى أشهد الله واشهدوا أنّى برىءٌ مما تشركون . من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تُنظرون . إنى توكلت على الله ربّى وربكم ما من دابة إلّا هو آخذ بناصيتها إنَّ ربى على صراط مستقيم . فإن تولوا فقد ابلغتكم ما أرسلت به إليكم ، ويستخلف ربى قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً إن ربى على كل شىء حفيظ . ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منَّا ونجينا هم من عذاب غليظ . وتلك عادٌ جحدوا بآياتِ ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد . وأُتبعوا فى هذه الدنيا لعنةً ويوم القيامة ألا إن عاداً كفروا ربهم الا بعداً لعادٍ قوم هود﴾[1] .

وقال تعالى فى مجال العذاب والعقاب ونوعه .

﴿وأمّا عادٌ فأهلكوا بريح صرصرٍ عاتية . سخّرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية .﴾[2]

ويتبدى فى هذه القصة نفس المنهج القرآنى فى التاريخ .. المنهج الذى سبق فى قصة مدين وشعيب ، وهو منهج قائم على الانتخاب والخلو من التفاصيل مع إبراز الهدف الدينى مقصد القصة

---

(١) سورة هود آيات ٥٠ ـ ٦٠ .
(٢) الحاقة آية ٦ ـ ٨ .

وهدفها ..

ولقد اختلف فى عاد .. كما اختلف فى هود ..

فعاد قبيلة عربية سكنت الأحقاف ما بين عمان وحضرموت وكانوا يسكنون بيوتاً ذوى أعمدة ضخام .. ﴿وإرم ذات العماد﴾ المكان الذى عاشت فيه عاد . زعم البعض أنها تارة فى الشام وتارة فى اليمن وتارة فى الحجاز .. وكذلك هود ..

وهذه الاختلافات لا تضيف جديداً أو معانى متجددة ، فليس الهدف من سرد القصة ، هو الجرى وراء المكان بتضاريسه ، ولا الزمان بتتابعه وأحداثه ، ولا الشخصية بملامحها المادية .. وإنما القصة جاءت فى القرآن انتخاب لوقائع محددة لتحقيق الهدف الدينى .

وعاد قوم عبدوا الأصنام بعد الطوفان . ولقد كانوا جفاة كافرين فأرسل الله إليهم هوداً وهو من نفس القبيلة .. ورجل منهم ، يدعوهم إلى الإيمان بالله وافراده بالعبادة ، ولكنهم كذبوه فأخذهم الله بعذاب شديد ..

ولقد استخدم عاد مع قومه وسائل الابلاغ الواعية ، الهادئة ، فنصح لقومه وأشفق عليهم .. وحرص على هدايتهم ، وإبلاغهم الدعوة باللين والهوادة ، فهو لا يبتغى أجراً . ولا يطلب مغنماً ، ولكنه مخلص لله ، وداعٍ إلى الوحدانية ، وحريص على قومه ألّا يضلوا ويضيعوا بعدما حباهم الله بنعمه الوفيرة والخيرات الجليلة ، من عيون تجرى بالمياه وأرض تنتيه بزرعها ونباتها وبساتينها ، وبيوت كالقصور فى البهاء والضخامة .. إنه يذكرهم بأن خير الدنيا

والآخرة بيد الله ، وأنهم عليهم أن يتوجهوا إلى الله بالشكر . ليزيدهم من نعمه وفضله ، ولكنهم عتوا وأفسدوا فى الأرض ، فنحتوا من الأحجار أصناماً يعبدونها ولجوا فى وثنيتهم ونسوا الله الذى أحياهم ويميتهم ، والذى مكّن لهم فى الأرض .. وتوجه إليهم هود داعياً وناصحاً ومحذراً أن يصيبهم ما أصاب غيرهم من الأمم السابقة وأمرها ليس بعيداً عنهم ـ وككل طاغية جبار ، قالوا فى عناد ، كيف تريد منا أن نعبد الله من دون آلهتنا ، ما أنت إلّا سفيه وطائش ، ويصر هود على موقفه ، داعياً إلى عبادة الله . نافيا عن نفسه تهمة السفه والطيش وهو المشهور بينهم بالحلم والعقل والرزانة .. وأشهدهم أنه برىء مما يعبدون ومما يفعلون ، وأشهد الله أنه بلغ الرسالة وما قصر وجاهد وما أحجم ، وآمن به قلة . ظلوا يتحملون الألم والعذاب من جبابرة عاد الوثنيين .. حتى جاء أمر الله ، فسير إليهم سحاباً أسود يعترض السماء فخف القوم لرؤيته متصورين أنه سحاب عارض ممطر ، وتهيأوا لاستقباله وفجأة تهب الرياح فى عنف وشدة أخذت فى طريقها كل شىء .. فداخلهم الخوف والفزع وهربوا إلى بيوتهم الضخمة ذات العماد .. علها تقيهم من هذا الهول .. ولا فائدة ، فالرياح العاتية ظلت سبع ليال وثمانية أيام حسوما .. حتى أصبح القوم فى النهاية كأنهم اعجاز نخل خاوية[1] .. أما هود ومن آمن معه ، فقد ظلوا آمنين مطمئنين فى مكانهم .. حتى هدأت الريح .. وسكنت العاصفة المدوية ..

---

(١) شبهوا بأعجاز نخل لأن الريح كانت ترفع الفرد إلى الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيصبح جثة بلا رأس .. قصص الأنبياء لابن كثير ص ١٦٦ .

وهكذا استحقت عاد لعنة الله فى الدنيا والآخرة ﴿**ألا بُعْداً لعاد قوم هود**.﴾ ولقد بينت هذه القصص وغيرها طبيعة هذا الدين وخطه الحركى كما يقول الشهيد سيد قطب .. فالدعوة إلى الله تبدأ والرسول وقومه من أمة واحدة تجمع بينه وبينها أواصر القربى والدم والنسب ثم تنتهى بالافتراق وتكوين أمتين مختلفتين من القوم الواحد أمة مسلمة وأمة مشركة[1] .. فدعوة التوحيد تصر على التحرر من الدينونة لغير الله والتمرد على سلطان الأرباب الطغاة .. فلقد خلق الله الناس أحراراً لا يدينون بالعبودية لأحد من خلقه ولا يتنزلون عن حريتهم لطاغية فإن لم يصونوا ذلك فلا كرامة لهم عند الله ولا نجاة .

والقيم الإيمانية ليست منفصلة عن القيم العملية فى حياة الناس وهى جوهر الحديث الذى ورد عن رسول الله (**قل آمنت بالله ثم استقم**) وأى خلل فى ذلك يوجب عذاب الله وعقابه . وتلك سنة الله فى كونه .

وعلى طريقة القرآن الكريم فى انتخاب الأحداث والاكتفاء بمواطن العبر من مشاهد القصة ، فإن أجزاء هذه المشاهد تختلف من سورة لأخرى .. إذ يأتى العرض بما يناسب السياق .. وتلك قاعدة أساسية فى المنهج القرآنى . ففى سورة هود جاء العذاب مجهَّلاً لا نعرف نوعه ، وطبيعته .. ولكننا نعرف أن ثمة عذاباً حاق بالظالمين من قوم عاد .. ولقد أشار القرآن إلى ذلك بكلمة فيها الحسم ، وفيها العقاب إنها كلمة «**أمْرُنا**» .. إنها كلمة تحتمل أنواعاً

---

(١) الظلال مجلد/٤ ص ١٨٩٦ .

عديدة ومتنوعة من العقاب .. إنه الأمر الذى يصحبه العقاب والويل : ﴿**ولمّا جاء أمْرُنا ، نجينا هوداً والذين آمنوا معه ..**﴾

ولكن العذاب فى سورة الأحقاف قد ورد محدداً ، لقد وضحت الآيات نوع العذاب الذى حاق بهم إنه الريح التى تحمل العذاب الأليم .. وهذا العذاب قد استبشروا به لجهلهم حقيقة العارض الذى اعترض السماء وأملهم فى مطر يمطرهم بعد جفاف .. ﴿**فلمّا رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارضٌ ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ، ريحٌ فيها عذابٌ أليم**﴾[١]

قال ابن عباس : أول ما جاءت الريح على قوم عاد كانت تأتى على الرجال والمواشى فترفعهم من الأرض وتطير بهم إلى السماء حتى يصبح الواحد منهم كالريشة ثم تضربهم على الأرض ، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم[٢]

واكتفت سورة (المؤمنون) بذكر دوى هذه الريح التى أتت بالعذاب الأليم ﴿**فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاءً فبعْداً للقوم الظالمين**﴾[٣]

ولقد أخذتهم صيحة العذاب المدمر ، وهو عقاب عادل يستحقه هؤلاء القوم الجاحدون ، وأصبحوا هلكى كغثاء السيل . قال المفسرون : صاح جبريل بهم صيحة رجفت بها الأرض من تحتهم فصاروا لشدتها غثاء كغثاء السيل الذى يضرب به المثل فى التفاهة والحقارة ، وفى الشىء التافه الذى لا ينتفع به .

---

(١) الأحقاف آية ٢٤ .　　(٢) صفوة التفاسير جـ٣ ص ١٩٩ .
(٣) المؤمنين آية ٤١ .

وصورت سورة الحاقة هذا العذاب فى تفصيل واضح ، إذ ترينا هذه الريح الهائلة ، إعصاراً مستمر الهبوب ﴿**سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً**﴾ وكل من هذه المشاهد (يحتل مكانه الملائم من سياق القصة حتى كأنه لا يصلح له سواه .. وفيما عدا هذا تتكرر النقاط الرئيسية فى كل هذه المواطن إما باللفظ وإما بالمعنى لأنها المحاور التى يدور حولها المحتوى ، ومنها تنبثق العبرة المنشودة . فنى تكرارها والحالة هذه عملية تثبيت من شأنها أن تعمق موقعها من القلب الواعى فيحتفظ بأثرها حيَّاً فعَّالاً ..)[1]

إن الإتجاه إلى الإيمان بالله الواحد هو أساس إنطلاق الإنسان إلى تأصيل بنائه على أسس عقيدية مكينة .. وهو جوهر دعوة الرسل جميعاً سعياً إلى تحرير الإنسان ليكون قادراً على مواجهة الأهواء والشهوات والغرائز الدونية .. وكذلك فإن قصة هود تؤكد على أهمية الاعتبار بتجارب الآخرين .. ﴿**واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح**﴾ . إن التجربة السابقة والتأمل فيها أحد الوسائل المستخدمة فى الدعوة ، وهى تؤتى النتيجة الفعّالة إذا جاء استخدام العقل على مستوى التجربة .. هذا العقل الفعال وسيلة إلى استنباط العبرة من التجربة وحركتها (ومن لا يعتبر من واقع مجرب وأثر مؤكد ، يلغى عقله ، وينكر فطرته المتميزة ، ويدخل نفسه بإرادته فى درك الحيوانات والبهائم)[2]

ويجب أن نوضح فى هذا المجال أن القرآن لم يذكر شيئاً عن

---

(١) قصص وعبر . محمد المجذوب مكتبة الرياض الحديثة ص ٦٩ .
(٢) منبر الإسلام مايو ١٩٨٦ د . عمارة نجيب ص ١٠ .

صفة عاد ولم يتحدث عن بيوتها ومساكنها كما لم يذكر شيئاً عن الجدل والحوار .. وذلك حين أورد القرآن الكريم موضوع عذاب القوم فى سورة القمر فى قوله تعالى ﴿**كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر . إنَّا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر . فكيف كان عذابى ونذر**﴾[1] .

ولقد ترك القرآن كل تلك التفصيلات وأسرع إلى وصف العذاب ، ذلك أن مناسبة نزول الآيات تتلاءم مع العهد الذى اقتضى أن يبث القرآن فيه طمأنينة النفس ، كما يحذر من العذاب . بأن يرسم له صورة فنية رائعة تثير الخوف فى نفوس المعاندين وتبعث الطمأنينة فى نفوس المؤمنين .. فثمة ريح صرصر ، ويوم نحس ، وهناك قوة الريح التى تنزع الناس وتجعلهم أعجاز نخل منقعر . وتنتهى الآيات بالأسلوب الإنشائى الذى يفيد هول عذاب الله ، الذى يقع على الكافرين .

وهذا التناول القرآنى لهذه الحلقة من قصة عاد . لا تعنى أن القرآن قد غفل عن الجانب التاريخى فى القصة ، أو أنه ضحى بالتاريخ من أجل القصد الأدبى وأنه حين يعدل عن التفاصيل بقصد الموعظة والعبرة فلا يؤرخ لأفراد أو جماعات أو أمم .. فإن ذلك لا يكون بحال من الأحوال على حساب الصدق التاريخى الذى هو سمة القصة التاريخية فى القرآن .

وممن تناول هذا الموضوع مؤلف كتاب «الفن القصصى فى

---

(١) القمر آيات ١٨ ـ ٢١ .

القرآن» إذ يرى «أن هذا اللون من قصص القرآن قصص أدبي تاريخي ، يأخذ القرآن مواد القصص فيه من أحداث التاريخ ووقائعه لكنه يعرضها أدبياً ويسوقها سوقاً عاطفياً يبين المعاني ويؤيد الأغراض ويؤثر بها التأثير الذي يجعل وقعها على الأنفس وقعاً استهوائياً خطابياً يستثير منها العاطفة والوجدان»[1]

كما يرى المؤلف في هذا الجانب أيضاً أن «أحداث التاريخ التي وردت في القصص القرآني قد رتبت ترتيباً عاطفياً وبنيت بناءً يقصد به تحريك الهمم والنفوس . ومعنى ذلك أنها لون من ألوان القصص التاريخي الفني ، وأن العمل فيها فني يُقدَّر بموازين الفن القولي لا بموازين المؤرخين»[2]

ومن ثم فهو يرى في النهاية أن المسألة في القصة القرآنية هي مسألة بيانية ومن ثم فهي لا توصف بتصديق أو تكذيب وإنما هي العرض الأدبي[3] ـ ويرى أن من حق العقل البشري أن يهمل هذه المعاني التاريخية أو يخالفها أو ينكرها[4]»

.. وهذا يعني أن ما جاء من عنصر تاريخي في القصص القرآني يميل إلى الخيال والوهم الأدبي .. وهذا خلط كبير .

وعنصر التاريخ وارد في كل قصص القرآن مما يجعله ركيزة أساسية في بناء القصة .. وانطلاق القصة في هذا الجانب انطلاق واقعي ونفسي ، فالواقعي يعني صدق الجانب التاريخي صدقاً

---

(١) الفن القصصي في القرآن ص ١٤١ د . محمد أحمد خلف الله .
(٢) المصدر السابق ص ١٤٧ . (٣) المصد السابق ص ٥٨ .
(٤) المصدر السابق ص ٥١ .

موضوعيًا فى الزمان والمكان ... ويجب ألّا نقيس تاريخية القصة القرآنية بمفاهيم علماء التاريخ .. فالتاريخ القديم ليس له طابع الثبات ، وموقف العلماء من الحادثة الواحدة قد يتباين ويتغير ويتبدل حتى يضيع جوهر الحادثة التاريخية وسط هذا الخلاف . والواقعة التاريخية إذن ليس لها طابع الثبات فقد تروى حسب وجهات النظر المختلفة .. ووقائع التاريخ فى القصص القرآنى وقائع منتخبة صادقة جاءت لتفى بالغرض الدينى وليس المقصد الأدبى فقط .. والقرآن الكريم ليس كتاباً فى التاريخ يؤرخ لحركة البشر والأحداث ، وإنما هو فى الأساس كتاب دعوة إلى الحق والتوحيد وتنظيم شئون الحياة على أساس دينى سليم .. ومظنة الخلاف فى هذا الأمر راجع إلى مقارنة القرآن الكريم . بالكتب السماوية الأخرى التى جرى عليها التحريف ، وكثرت فيها الحوادث المختلقة . والمقارنة هذه غير واردة ، إذ كيف نقارن بين وحى الله الثابت وبين وضع البشر وخلطه بالدين ؟!

والإشارات القصصية حول الرسل والأنبياء ، والتى لم يرد فيها إلّا صور العذاب ، لا يعنى أن إغفالها لعنصر الجدل والحوار ، وجوانب التاريخ .. أنها صيغت صياغة أدبية وكفى .. فالتنوع القصصى منهج رئيسى فى القصة القرآنية وطريقة العرض متنوعة .. فقد تأتى القصة فى نهايتها لمقصد محدد ، وهو ذكر العذاب وإلقاء الرعب والتخويف ، وقد تأتى متصلة فى حلقة أخرى فتلقى أضواءً على المكان والزمان وطبيعة البشر ، وقد تأتى جدلية صرفة فيسود الحوار حول الدعوة إلى التوحيد بما يعتورها من عناد وضلال وكفر

من جانب ، وإيمان وجهاد وصبر من جانب آخر .

والقرآن وهو يعدل عن الجزئيات والتفصيلات إنما هو يتسق مع منهجه فى القصة فالقصة القرآنية لا تحفل بالجزئيات والتفصيلات ، وإنما تسعى إلى الغرض الدينى ، وتورد من الأحداث ما يتلاءم مع الغرض الدينى .. واسقاط القرآن لهذه التفصيلات لا يعنى أن ما ورد فيها خيال ، يحتمل التصديق والتكذيب ، وإنما هو ـ صادق كل الصدق ـ فيما أورده من قصص وأحداث تاريخية . دون أن نلجأ إلى كتب التاريخ لنقول : هل ورد الأمر فيها أو لم يرد ؟ ودون اللجوء إلى المقارنة مع كتب الديانات الأخرى .

فالتنوع طريقة بنائية أساسية فى القصة القرآنية ـ فثمة إجمال وتفصيل وبسط وإيجاز وإشارة وحوار ولفتة وتجسيد .. ويأتى ذلك كله ملائماً للسياق القرآنى .. وللغرض الدينى .

فحلقات القصة قد تأتى متقدمة ، أو متأخرة ، من حيث الإجمال أو التفصيل فتبرز الأحداث وفق هذا المنهج .. وقصة موسى مثل على ذلك .. فلقد وردت أول ما وردت كإشارة قصصية فى بداية الدعوة ، لتؤكد على العذاب الذى حاق بفرعون وأهله .. ثم بدأت تتضح حلقاتها ، من الميلاد ، فالهجرة إلى مدين ، فالدعوة والمواجهة ، فمواقف السحرة ، وشق البحر ، ثم نجاة موسى وغرق فرعون ..

ويرد ذلك كله وفق خاصية الإيجاز المعجز الذى يتسم به القرآن الكريم فيما أورده من أنباء وأخبار الرسل والأمم الغابرة .

(لقد جاءت الأنباء والأخبار والأحاديث فى القرآن الكريم ،

نموذجاً من نماذج الإيجاز الذى تخرج الجمل منه : قصيرة غاية القصر ، سريعة غاية السرعة ، ومع ذلك فهى مليئة بالوقائع من جهة ، وفياضة بالحركة من جهة أخرى)[1]

ومن ثم فإن روايةِ الوقائع تأتى فى القرآن موجزة ومنتخبة ، وإيجازها هذا لا يعنى بعدها عن الواقعية أو الصدق التاريخى .. بل هذا الإيجاز جعل قصص القرآن متفرداً بهذه الخاصية ، وأية مقارنة بين قصة نبىّ فى القرآن والتوراة توضح ذلك تماماً .. والقرآن الكريم ليس ككتاب أدبى يؤلفه البشر .. يخلط فيه بين الوقائع ويوظف التاريخ توظيفاً أدبياً حتى يجنح به إلى مخالفة الوقائع الحقيقية لتحقيق غرض أدبى ..

فما كان كتاب الله الكريم ليقف أمام هذه التفاصيل الصغيرة ، التى هى فى ذاتها نموذج لما يشغل به القاص أو المؤرخ . ويهىء نفسه إذ وقع عليها وعلى أمثالها مما يُعد من الطرائف التى تزيد إقبال السامع أو القارىء على متابعة الحكاية . أما الرواية الإلهية ، فلا تحفل بها ، ولا تقف عندها ، لأنها لا تحقق كثيراً ولا قليلاً من الغاية التى نزل من أجلها الكتاب . ولا المقصد الذى رُويت من أجله الواقعة[2] .

ومن ثم فإن التلاؤم الفنى بين منهج الإيجاز التعبيرى وطريقة العرض القصصى ، يساعد على إيراد المعنى كاملاً وواضحاً ، ومؤثراً التأثير الدينى المقصود . فى ألفاظ قليلة ، وصورة باهرة ، كما

(١) القصة القرآنية ص ١٤ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٦ .

أنه يسقط كثيراً من التفصيلات الجزئية التى تبعد ذهن السامع أو المتابع عن إدراك جوهر القصة ، والخلوص إلى غرضها الدينى المحدد .

وهذا الإيجاز وراء الانتقال من حلقة إلى أخرى دون اللجوء إلى مقدمات ، أو تلخيص للحلقة السابقة .. مما قد يبدو للمتابع عدم الترتيب فى الأحداث .. فالأحداث تأتى وفق السياق والغرض الدينى .

ويرى الأستاذ العقاد أنه من الواجب أن نذكر أن قصص القرآن جميعاً تساق للموعظة والتعليم وحسن القدوة ، وأنَّها تأخذ من التاريخ ما فيه الغنى لكل سياق ، أو مقصد يعنى به الدين ، فليس المقصود بها تفصيل التواريخ ولا تسجيل الوقائع والسنين ، وليست كلمتها موقوفة على شىء غير ما فيه الكفاية لهذه المقاصد كما يفهمها الناس .

وإذا كان علماء التاريخ قد شكوا فيما ورد من أنباء حول الأنبياء والأمم الغابرة .. فإن حركة البحث والتنقيب والاكتشافات الحفرية قد أثبتت الصبغة التاريخية لتلك الأخبار والأنباء وثبت أن علماء التاريخ قد ساعدهم فى هذه الاكتشافات ما عرفوه من أنباء وحوادث استقوا معلوماتهم عنها من المصادر الدينية .

ولقد شكوا فى وجود عاد وثمود كما شكوا فى أصحاب الفيل والزلازل والبراكين والطوفان والجوائح والحروب التى سيقت مساق العبرة فى القصص القرآنى وانفردت بها كتب الأديان السماوية .. إلّا أنهم حين حققوا الآثار تبين لهم أن عاداً وثموداً من أخبار بطليموس

وأن هلاك أصحاب الفيل من تواريخ الحبش والروم وأن المدن التى ساخت فى الأرض أو عصفت بها الرياح حقيقة لا تقل فى صدقها عن حقائق طيبة وطراودة وأنهم فى إنكارهم قد ابدعوا للعصر صورة من صور الخرافة .. وهى خرافة العالم الذى ينكر ما يجهل ويجهل ما ينكر . ويظن أن كلمة التحقيق وحدها سلطة تخولهم دون غيرهم حق الاستئثار بالرفض والانكار[١] .

---

(١) انظر المعانى الثانية فى الأسلوب القرآنى . د . فتحى عامر ص ٢٦١ .

القصة التعليمية

القصص القرآنى له طبيعته الخاصة ومنطقه المميز ، فهو قصص دينى فى المقام الأول يخدم أغراضاً دينية تدور حول التوحيد والعقيدة والشهادة من أجل الحق ومؤانسة الرسول ومؤازرة المؤمنين ضد أعداء الإسلام فى مواقفهم وصراعهم الدائر ضد الكفار الوثنيين .. وهذا التفرد ينفى خضوعه للمقاييس المعروفة فى الأدب الذى يبدعه البشر .

وقصص القرآن متناسق فى منهجه مع المنهج التربوى فى القرآن فهو تطبيق بالحكى والقص والسرد والحوار عن هذا المنهج ، ذلك أن القرآن بعقائده وتشريعاته ، وأحكامه وحدة متناسقة ، وإن تنوعت طرقه فى التبليغ والتعليم قصد الإمعان والتأثير وتجديد نشاط النفس بتجدد انتقاله فى السورة الواحدة من غرض إلى آخر[1] .

والمنزع التعليمى فى القرآن قائم على أنه يحيى شعوراً عميقاً فى الإنسان بما بينه وبين الكون من وشائج ومن علاقات سامية ، تترفع عن الوثنية والخضوع لغير الله ، كما أنه يوقظ فى الإنسان الروح التجريبية واستقراء المرئيات حيث يوجه الأنبياء والأقوام إلى آيات الله فى الكون ليثير فى القلوب إيماناً قائماً على التجريب والمشاهدة .

---

(١) سيكلوجية القصة ص ٥٤٣ .

ولقد أقام القصص القرآنى منهجه التربوى التعليمى على أساس العقيدة الصافية فجعلها المنطلق إلى عالم الحس أولاً وعالم الشعور الوجدانى ثانية . فالتأمل فى ملكوت السموات والأرض واستقراء آيات الله الكونية ، منطلق حسى يقوم على المشاهدة والتجريب والتأمل ، وعقد السياقات الكونية التى ابدعها الله خالق الكون وبارئه .. يقول تعالى فى سورة الروم : ﴿**قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين**﴾ .

إن الاعتبار بآثار الحوادث الكونية وما حدث للأمم السابقة هو الطريق إلى الإيمان بالله .. هذا الطريق الإيمانى يثير الطاقة الروحية الإيمانية داخل الذات ، فتستشرف الأفق الإيمانى ، ويغمر القلب صفاء اليقين وحقيقة التوحيد ، فترسخ العقيدة وتبعث فى الذات المؤمنة الطمأنينة والسكينة ، ويتنامى الفعل السلوكى مع العقيدة ، وتتوجه خالصة إلى الله مبرأة من كل خوف أو دنس .. ويبقى للإنسان صلته بربه فى قوة الإيمان وحرارة العمل الصالح ..

جاء عن رسول الله فى علامة الإيمان (**إذا أراد الله بالعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسه**) .

إن من يخلص لله لا يخاف مَنْ دونه .. لأنه مشغول القلب به ، مطمئن النفس إلى الحق ، متيقن من مؤازرة الله له . قال تعالى مصوراً هذا الموقف حين واجه إبراهيم قومه ﴿**كيف أخافُ ما أشركتم ، ولا تخافون أنَّكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سُلطاناً . فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ..**﴾

ومن ثم فإن أشد المواعظ الدينية نفاذاً إلى القلب هو ما جاء فى

اسلوب قصصى يحمل على المشاركة ، ويثير الوجدان فى نفوس الأشخاص فتحدث الرسالة المتمثلة فى التأثر والانفعال بالحدث والموقف .

وقصص القرآن وهو قصص لأمور واقعة (يساق للعبر وإعطاء المثلات ، وبيان مكان العناية ومنزلة المهتدين ، وعاقبة الضلال ، وعاقبة الهداية ، وبيان ما يقاوم به النبيون ووراءهم كل الدعاة للحق)[1] ..

● وفى قصة «موسى والخضر» بيان لما اكرم به الله رسله من رعاية ، وتدريب وتوجيه وتعليم وبما اختصهم به من أمانة وصدق ، ونزاهة ، وإخلاص لله ، والعمل فى سبيله ، وابتعاد عن صفات مذمومة ، كالغرور ، أو الطمع أو الادعاء بأنه ملك ناصية الأشياء ..

وقصة موسى والخضر واحدة من القصص الكثير ، الذى تتضمنه حياة ذلك الرسول الكريم ، وفيها العبرة ، وفيها الجانب التربوى التعليمى .. وهى بما تضمنته من وقائع وإغراب وحوار وسرد .. من أمتع قصص القرآن وأروعه .

ولقد جاءت هذه القصة فى سورة الكهف .. تلك التى حفلت بالقصص الأخاذ .

قال تعالى :

﴿... وإذْ قال موسى لفتاه لا أبرح حتَّى أبلغ مجمع البحرين أو

---

(١) القرآن ـ المعجزة الكبرى ص ١٦٢ .

أمضى حقباً . فلمّا بلغا مجمع بينهما نسيا حُوتهما فاتّخذ سبيله فى البحر سربا . فلمّا جاوزا قال لفتاهُ آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً . قال أرأيت إذْ أوينا إلى الصخرة فإنّى نسيت الحوت وما أنسانيه إلّا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجباً . قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا . فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمةً من عندنا وعلمناه من لدنّا علماً . قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن ممَّا علمت رُشداً . قال إنك لن تستطيع معى صبراً . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً . قال ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً . قال فإنْ اتبعتنى فلا تسألنى عن شىءٍ حتى أحدث لك منه ذكراً . فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها ، قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً . قال ألم أقل إنّك لن تستطيع معى صبراً . قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا . فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً . قال ألم أقلْ لك إنك لن تستطيع معى صبراً . قال إن سألتك عن شىءٍ بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذراً . فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قريةٍ استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضَّ فأقامه ، قال لو شئت لاتَّخذت عليه أجرا . قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا . أمّا السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملكٌ يأخذ كل سفينةٍ غصباً . وأمَّا الغلامُ فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً . فأردنا أن يبدلهما ربُّهما خيراً منه زكاةً وأقرب

رحماً . وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنزٌ لهما وكان أبوهما صالحاً ، فأراد ربُّك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمةً من ربِّك ، وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً﴾ (١)

● والخضر هو العبد الصالح الذى رحل إليه موسى فى طلب ما عنده من العلم اللَّدنى . وقد اختلف فى الخضر . فذكر ابن قتيبة عن وهب بن منبه : أن إسم الخضر «بليا» ويقال بليا بن ملكان بن فالغ ابن عابر بن شامخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام . وقيل أنه ابن آدم عليه السلام كما يورد الحافظ بن عساكر ، وقيل أنه ابن فرعون صاحب موسى عليه السلام .. والصحيح كما قال ابن جرير أنه كان متقدماً فى زمن افريدون بن أثفيان حتى أدركه موسى عليه السلام . وقيل أنه شرب من ماء الحياة فخلد وهو باق إلى الآن . واتفق الكثير على أنه جاء فى زمن أفريدون الفارسى الذى كان أول من خندق الخنادق وقضى فى ملكه ما يقرب من مائة وخمسين عاماً .. ولقد أورد البخارى حديثاً عن رسول الله برواية أبى هريرة يوضح سبب تسمية العبد الصالح بصفة الخضر . عن أبى هريرة قال ، قال ﷺ **(إنَّما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هى تهتز من خلفه خضراء)**

والفروة : الحشيش الأبيض وما أشبهه : يعنى الهشيم اليابس ، وقيل : الفروة : الأرض البيضاء التى لا نبات فيها . (٢)

---

(١) سورة الكهف آيات ٦٠ ــ ٨٢ .

(٢) انظر كتب التفاسير وانظر أيضًا قصص الأنبياء لابن كثير ص ١٣٩ ــ ١٤٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ .

ولقد روت كتب التفاسير ما جاء عن رسول الله ﷺ بشأن قصة موسى والخضر :

قال ابن عباس : حدثنا أبى بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :

«إن موسى قام خطيباً فى بنى اسرائيل . فسئل أى الناس أعلم . فقال : أنا . فعتب الله عليه إذ لم يَرُدّ العلم إليه . فأوحى الله إليه : إنّ لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى : يا رب فكيف لى به ؟ قال تأخذ حوتاً فتجعله بمكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثمَّ (أى هناك) ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما واضطرب الحوت فى المكتل واتخذ سبيله فى البحر سربا» ..

وفى رواية لابن جرير بإسناد إلى ابن عباس قال : قال : سأل موسى عليه السلام ربّه عزّ وجلّ فقال : أى ربِّ .. أى عبادك أحب إليك قال : الذى يذكرنى ولا ينسانى . قال : فأى عبادك أقضى ؟ قال : الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى . قال : أى رب .. أى عبادك أعلم : قال : الذى يبتغى علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن رَدَى . قال : أى رب .. هل فى أرضك أحد أعلم منى قال : نعم .. قال : فمن هو ؟ قال : الخضر . قال وأين أطلبه ؟ قال : على الساحل عند الصخرة التى يتفلّت عندها الحوت ..[1]

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٣٩٥ .

.. ولندخل إلى القصة ..

علم نبىّ الله موسى بنبأ رجل من الصالحين آتاه الله العلم والحكمة ، فعقد العزم على لقائه ، والسفر إليه ، والضرب فى الأرض للقائه . وجهز نفسه وأخذ معه فتاه واستعدّ بطعام يساعده فى رحلته ، وكان طعامه حُوتاً مشوياً .. ووضع الحوت فى مكتل واتجها ناحية المكان حيث مجمع البحرين[1] وفى هذا المكان جلسا يستريحان فأصابهما النوم ، ودبت فى هذا الحوت المشوى الحياة فقفز إلى البحر وأمسك الله جريان الماء فصار عليه مثل الطاق ، وتلك معجزة لأنه الدليل على معرفة العبد الصالح .. وحين طالب موسى فتاه بالطعام تذكر ما حدث واعتذر بأن النسيان كان سبباً وراء ترك الحوت .. وأخبره بأنه رأى عجبا .. حين مضى الحوت إلى البحر وفهم موسى هذا المقصد .. وعاد وفتاه يتبعان الأثر حتى وصلا إلى المكان الذى انطلق منه الحوت . وهناك .. وجدا الرجل الذى أوتى العلم والحكمة ورأى موسى الرجل وتعارفا .. ودار بينهما حوار ..

● سأل النبيُّ العبد الصالح فى تأدب طالب العلم : أيمكن أن أصحبك طلباً للعلم . ولأن الأمر صعب وعسير وثقيل لا يتحمله بشر .. قال له العبد فى تأكيد حاسم :

ـ كيف تقوى على الصبر أمام أمور لا تطيق السكوت عليها .. لجهلك بها ..

---

(١) هو مكان التقاء بحر الروم (المتوسط) ببحر القلزم (الأحمر) أو هو مجمع خليجى العقبة والسويس .. وقيل أن المكان طنجة فى المغرب .. وهو يخالف السياق ذلك أن مشرح تاريخ بنى اسرائيل هو هذا المكان .. التقاء الروم والقلزم .. لقربهما من مصر وسيناء .

● ويبادر النبى قائلاً فى طاعة من يبغى العلم ويطلبه ويحرص عليه بل ويصر :

● سأصبر ما دمت فى صحبتك ولن أعصى لك أمراً . واشترط الخضر على موسى أن يلتزم بالصبر ويتحلى بالسكوت ولا يسأل عن شىء حتى يوضحه هُو لهُ ..

وبعد أن أظهر موسى الأدب الذى يجب أن يتحلى به المتعلم تجاه معلمه ، ووافق على شرط الخضر .. انطلقا لتبدأ الرحلة فى عالم غريب من المشاهدات والمفاجآت . وعلى الساحل شاهدا سفينة فركباها . حتى إذا أبحرت فى عرض البحر أمسك الخضر فأساً فخرق السفينة بأن اقتلع لوحين .. وتدفق الماء وظل يحاول سدّ الخرق وهو يسأل الخضر مستنكراً هذا الفعل .. أخرق السفينة ليغرق أهلها .. لقد أتيت بفعلتك هذه أمراً عظيماً .. ونبهه الخضر إلى ما سبق من مشارطة وتحذير وقال : يا موسى ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا ! ! وأدرك موسى أنه تسرع واعتذر للخضر قائلاً : لا تؤاخذنى بما نسيت .. وامتدت الرحلة واتصلت ، وتركا البحر وهبطا إلى البر مرة ثانية .. حيث ستشهد الساحة مفاجآت وغرائب لا تقل تأثيراً عما حدث لهما فى البحر .. وانطلقا يدبان على الأرض كل منهما فى صحبة الآخر حتى إذا رأى الخضر غلاما يلعب على مقربة من احدى القرى ، مضى إليه وقتله ، وينفعل موسى عليه السلام انفعالاً يعجز عن ضبط نفسه إزاء ما يرى من جريمة ، يرى أنه لا داعى لها ولا مسوّغ ، فصاح مستنكراً أشد الاستنكار : إنك يا خضر قتلت نفساً زكية بغير نفس .. لقد جئت شيئاً نكراً .. لا

ترضاه شريعة ، وينكره المنهج الربانى .. ولكن الخضر إزاء هذا الانفعال يظل هادئاً لا يأبه بغضبه .. ويذكره فقط بما اشترطاه سوياً .. وقال : سبق أن قلت إنك لا تستطيع معى صبرا .. ويستعيد موسى توازنه ، ويخف انفعاله ويسترد احتجاجه الشديد ، ويتأسف طالباً منه ، أنه فى حلٍّ من الصحبة إذا اعترض على أمر مرة أخرى .. فلقد بلغ العذر .. إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى[1] ..

وانطلقا .. حيث كان الموقف الأخير من تلك المشاهدات الغريبة . إنهما يسيران فى القرية وقد أخذ منهما التعب مأخذه ، أحسّا بالجوع ، ولم يجدا من يسعفهما بالطعام بيعاً أو ضيافةً ، لقد كان أهل القرية لئاماً وشر القرى التى لا يضاف الضيف فيها ولا يعرف لابن السبيل حقه[2] .. ولكن الخضر تقدم إلى جدار متداعٍ فى إحدى الدور فقام بإصلاحه دون أن يطلب مقابلاً فلم يتمالك موسى نفسه وعلق على هذا الأمر متسائلاً فى حذر : لو شئت لأخذت مقابل العمل أجراً فإننا نحتاجه لما بنا من نصب وجوع . وهنا أشار إليه الخضر فى حسم جازم وقد رأى أن موسى قد أخلّ بالشرط وعاود المساءلة : هذا فراق بينى وبينك .

ولأنه معلم أوتى من العلم اللدنى ما عجز عن ادراكه موسى ، لم يتركه دون أن يوضح له ما غمض عليه وأشكل .. ومضى يكشف

---

(١) عن أبىّ بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ .. « **رحمة الله علينا وعلى موسى لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب** » .

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٣٩٦ .

الستار عن تلك الأسرار .. أما السفينة التى خرقتها فقد كانت لمساكين يرتزقون بالعمل عليها من نقل للناس والأغراض الأخرى ، ففيها منفعة لهم ولغيرهم من الناس .. وكان فى طريقهم ملك باغ وظالم يصادر ممتلكات الغير ، فأردت أن أعيبها لأنقذها خالصة لهم من مصادرة الملك واغتصابه .

وأما الغلام المقتول فقد كان شرًّاً على والديه .. فهما مؤمنان صالحان ، ولكنه يهددهما بأسوأ مصير .. إن سوء صنيعه سيلحق بهما الشر والبلاء ، ولأنهما يحبانه فقد يغضيان عما به من سوء فينالان غضب الله .. فكان مقتله جزاءً عادلاً على مفاسده وإنقاذاً لوالديه من عواقب جرائمه ..

وأما الجدار فهو لغلامين يتيمين دفن لهما أبوهما تحته كنزاً ، ولأن الأب صالح فلقد حفظ الله الغلامين بصلاح أبيهما .. وخشية أن يضيع الكنز وتمتد إليه أيدى الآخرين بادرت إلى إصلاح ما عطب فيه .. ولم أفعل ذلك عن اجتهاد لى ، أو رأى خاص أرتئيه وإنما فعلت ذلك كله بأمر ربى ..

.. والملاحظ على قصة موسى والخضر ، وعما ورد عن رسول الله حول هذه القصة .. أنها تدور حول موضوع العلم وتشعب وسائله والتأكيد على أن علم الله فوق تصورات البشر .. فالعلم الذى يعتمد على العقل وحده لا يدرك من حقيقة الشىء إلّا بمقدار ما تعطيه الظروف والمقدمات أما العلم الذى يستمد الالهام الربانى فيرى الحقيقة ماثلة أمامه بكل تفصيلاتها .. ولا تصادم بين العلمين فهما جميعاً من ضروب العلم ..

كما دعت القصة إلى التحذير من الاغترار بمظاهر العلم .. وهذا وارد فى حديث رسول الله .. قال ﷺ فى الحديث المذكور .. **(وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة : فقال له الخضر . ما علمى وعلمك من علم الله إلّا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من هذا البحر ..) .**

والقصة تشير إلى عجز التعليل الحسى إزاء المشاهدات الحسية ذاتها .. كعودة الحياة إلى الحوت ، وإدراك ما خفى من أمر الغلام .. وهو عجز يكسر غرور الإنسان ويبعث فى قلبه الخشوع لله . كما فيها الدعوة إلى المبادرة بعمل الخير والاحسان إلى الغير ..

وهذه القصة حلقة من سيرة موسى عليه السلام لم تذكر إلّا فى سورة الكهف ولم تتكرر . والقرآن الكريم لا يحدد المكان ، وإنما اكتفى بذكر مجمع البحرين كما لم يحدد التاريخ الذى وقعت فيه من حياة موسى .. كما لم يذكر شيئاً عن صفات العبد الصالح غير أنه أوتى العلم وإنما اكتفى بما يحقق الغرض الدينى المراد بحيث يقتصر عرض القصة بمواقفها وأحداثها على ما يؤدى إلى الأثر المنشود ، فتختار المواقف الكفيلة بإيجاد التأثير المعين وعند ذلك يتوقف العرض القصصى[1] وقد يبدأ العرض القصصى من نقطة مبكرة تنشأ عنها أحداث ومواقف تنطوى على العبرة فيما بعد .

ولقد سارت الأحداث فى القصة على نظام محدد وفى توقيت محدد .. وترتيب خاص بحيث يبدو الحدث فى مكانه المناسب وزمنه

(١) القصص فى الحديث النبوى ص ٣٤٤ .

المناسب ، فنوم موسى وفتاه حدث جاء فى توقيت محدد ليؤدى إلى حدث محدد وهو هروب الحوت إلى البحر سربا . ويسلم هذا الحدث إلى أحداث متتابعة .. من تعب وجوع وتذكر للحوت ومن ثم العودة .. حيث محور الحدث الكبير وهو لقاء موسى بالخضر وبداية الرحلة وهذا التوقيت السردى سريع فى أحداثه محكم فى توقيته دون أن يقف السرد مع جزئيات تفصيلية تخل بالغرض والعرض معاً .

وثمة ملاحظات فى هذه القصة الباهرة .. من هذه الملاحظات ما ورد عن الحوت فلقد كان للحوت دوره البارز فى القصة مثله فى ذلك مثل الهدهد والنملة وغيرهما .. والقصة تعرض هذه الشخصية اللابشرية إن صح التعبير كدور تكميلى يمهد للحدث .. والقصة تتعرض لبعض مواقف النبى موسى الإنسانية . حيث تبرز العواطف والانفعالات ـ فخرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار أحداث غير مألوفة لموسى .. مما أثارت العجب والدهشة ، وأبرزت سمة من سمات شخصية موسى .. وهى الانفعالية الحادة ..

وإذا كان للحوت دوره . فإن فتى موسى .. أدى دوره هو الآخر .. وسكت القرآن بعد ذلك عنه .. إنه لم يذكره إلّا فى صحبة موسى حتى لقاء الخضر .. ثم تبدأ الأحداث مع الخضر فى تجاهل كامل للفتى يوشع .

ولقد قام الحوار فى القصة بدور هام فى تحديد معالم الشخصية .. وهو حوار منبثق من الموقف ، يتنامى به متلائماً مع السياق ..

وعنصر التشويق كامن فى القصة والقرآن يسرد المفاجآت .. من

رجل غامض ليراها نبى مندهش ، لابراز حكمة إلهية عليا . (إن القوى الغيبية لتتحكم فى القصة منذ نشأتها . فها هو ذا موسى يريد أن يلتقى هذا الرجل الموعود ، فيمضى فى طريقه ، ولكن فتاه ينسى نداءهما عند الصخرة ، وكأنما نسيه ليعودا فيجد هذا الرجل هناك . وكان لقاؤه يفوتهما لو سارا فى وجهتهما ولم تردهما الأقدار إلى الصخرة كرة أخرى . كل الجو غامض مجهول وكذلك إسم الرجل الغامض المجهول فى سياق القرآن)[1]

وثمة فجوات فى القصة سكت عنها القرآن .. واستخدم اللازمة اللغوية كلما بدأت الرحلة فى موقف مختلف تلك اللازمة القرآنية هى (فانطلقا ..) وهى فجوة تتيح للخيال البشرى أن يتصور ما يمكن أن يحدث .

والتعبير القرآنى يعطى للكلمة دلالات تنسجم مع السياق والقرينة فكلمة «**عجباً**» .. تعطى تلك التنويعات فى الدلالة .. إنها تفيد (التعجب من حاله ـ أى الفتى ـ فى رؤية تلك العجيبة ونسيانه لها .. أو مما رأى من المعجزتين)[2] .

إنها بذاتها حركة عجيبة ومن حقها أن تثير عجب المتكلم ومن حق المتكلم أن يثير بها عجب الآخرين وهى إلى ذلك سبيل عجيب حقاً[3]

وكذلك الفرق الدلالى بين كلمتى (**تستطيع**) و (**تسطع**) . فى الأولى يهيىء الخضر ذهن موسى لاستقبال التفسير للأحداث التى

---

(١) الظلال ص ٢٢٨١ مجلد/٤ .

(٢) الكشاف ص ٣٩٦ جـ ٢ .

(٣) قصص وعبر ص ١٩٠ .

أنكرها وتشوق إلى معرفتها . ولذلك استخدم فعل الاستطاعة كاملاً . ولكنه بعد ما أتم عرض التأويلات القاطعة المطمئنة ختم ذلك بالفعل (**تسطع**) وهو يستعمل هذا التعبير بعد إسناد كل ما فعله إلى أمر الله . فيكون فى تقصير مساحة الفعل تصوير عجيب لتقصير مسافة الآثار التى أحاطت بالصورة الأولى .

كما أن لفظ (**أهل**) يعطى دلالات تضفى على الحدث عمقاً وتوضيحاً ، وإحدى الدلالات تدل على أعيان القرية الذين هم موضع نظر الغريب الطارىء ، يتوسم أن يكونوا لضيافته أهلاً .. والأخرى تدل على معظم السكان الذين تأهل القرية بهم[1] .. وكلتا الدلالتين توضحان ما يوصف به أهل القرية من بخل وشح ولؤم وسوء ضيافة غنيهم وفقيرهم كبيرهم ووضيعهم ، وهو ما أثار موسى وطلب الأجر ..

إن القصة حافلة بأنواع التعبير الفنى والعناصر الفنية مما يجعلها سجلاً حافلاً لتلقى التوجيهات الإلهية ..

والجانب التعليمى فى القرآن الكريم واضح فى القصص والتوجيهات العقائدية والحث على التأمل والتدبر فى ملكوت السموات والأرض ، والتفكير فى تجارب الآخرين من الأمم الغابرة ، واتخاذها منطلقاً للعبرة وأساساً لبنيان فكرى سليم .. وإرساء قواعد الأخلاق وأنماط السلوك النفسى السوى .. ولقد ورد ذلك كله فى وحدة متناسقة . ولا شك أن إبراز هذا الجانب فى

---

(١) قصص وعبر ص ١٩٣ .

إطار قصصي يجعل المغزى نافذاً إلى القلب فيحمل على المشاركة الوجدانية للأشخاص والتأثر بالأحداث والانفعال بالمواقف ، وتوجيه العاطفة الدينية إلى الخير والحق والفضيلة .. تلك العاطفة الدينية التى تنبنى على أساس صاف من العقيدة ، تلك العقيدة التى يبدأ الرسل فى الدعوة إليها أولاً .. الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالله وحده لا شريك له .. ومن ثم حين ترسخ العقيدة الصافية وترسخ فى النفوس ، تُستأصل العادات الفاسدة ، وتستقيم موازين الأخلاق والقيم .

ولهذا فإن القرآن الكريم أقام منهجه التعليمى على العقيدة أولاً لبعث الاطمئنان فى النفس والاتزان فى الفعل ، وإذا ما تمكنت العقيدة فى النفس أيقظت فى الإنسان نوازع الخير . قال ﷺ **(إذا أراد الله بالعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسه)** .. (إذ لا شىء يستطيع أن يؤثر من الخارج تأثير الإيمان من الداخل . فكل قوة تتلاشى أمام قوته)[1]

ولقد وجّه الرسل أقوامهم إلى آيات الله فى الكون المحيط بهم وفى أنفسهم لينشأ فى القلوب الإيمان العميق بالله سبحانه عبر المشاهدات الحسية التى تتضافر مع الوجدان المنفعل بها لإدراك حقيقة الوحدانية .. ونبذ الفاسد من العقائد الضالة ..

● وفى إحدى حلقات موسى . يوجه نبى الله نظر فرعون إلى التأمل فى خلق الله ومظاهر قدرته .. عبر حوار يتجلى فيه الدرس التعليمى

---

(١) سيكلوجية القصة ص ٥٤٨ .

واضحاً .. مستخدماً الإشارة الحسية كمثير لمدارك العقل وآفاقه الكامنة ، فى صياغة قصصية تحيل الموقف إلى صراع بين نمطين مختلفين فى العقيدة والفكر والتوجه القلبى ..

قال تعالى فى سورة طه :

﴿إنَّا قد أوحى إلينا أنَّ العذاب على من كذَّب وتولّى . قال فمن ربُّكما يا موسى . قال ربّنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . قال فما بال القرون الأولى . قال علمُها عند ربّى فى كتابٍ لا يضلُّ ربى ولا ينسى . الذى جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سُبلاً وأنزل من السماء ماءً فأخرجنا به أزواجاً من نباتٍ شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إنَّ فى ذلك لآياتٍ لأولى النهى . منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارةً أخرى . ولقد أريناه آياتنا كلّها فكذَّب وأبى !﴾(١)

ويقف موسى أمام فرعون ثابت الجأش ، نزع الله منه الخوف ، ولا عجب فهو رسوله الذى صنع على عينه .. وقف محاوراً فرعون حول العقيدة ، قائلاً له : لقد قرر الله فيما أوحى به أن العذاب يحيق دائماً بمن يكذب أنبياءه ويعرض عن الإيمان . ويبدو على فرعون الإحساس بالعتو والطغيان فيحاوره فى تيه وغرور : ومن هو هذا الرب الذى تدعوننى إليه يا موسى فإننى أجهله ولا أعرفه : ويرد عليه موسى فى توضيح حاسم يوقظ فيه تلك الغفلة ويوجه نظره إلى ما يحيط به من علامات تشير إلى الوحدانية .. وكان رده حاسماً قاطعاً بليغاً غاية البلاغة ، موجزاً إيجازاً يتضمن المعانى كلها .. قال

---

(١) سورة طه آيات ٤٨ ــ ٥٦ .

موسى : إنه الله الذى أبدع خلقه ثم هداه لمنافعه ، إنه أعطى كل شيء صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به فأعطى العين هيئة الإبصار والأذن موافقة الاستماع وكذلك الأنف واليد واللسان ، كما أعطى كل حيوان نظيره فى الخلق والصورة[1] .. وهنا ينتقل فرعون نقلة فجائية أمام هذا الرد الحاسم متصوراً أنه سيحرج موسى ويعييه : قال فرعون : حدثنى يا موسى عن أحوال الأمم الغابرة لم لَمْ يبعثوا ليحاسبوا إن كان حقاً ما تقول ؟ لقد كذبوا وعصوا وصدوا .. فأين هم ؟ وقد عبدوا غير الله .. ولقد أحال موسى فى جوابه لفرعون أمر الأمم إلى الله سبحانه : يا فرعون : الله وحده هو الذى يعلم حال تلك القرون وشأن تلك الأمم ، وكل ذلك مسطر عند ربى ، الذى لا يخطىء ـ تنزه عنه ، ولا يغيب عن علمه شيء .

ومضى موسى يعرض على فرعون الدلائل على وجود الله وآثار تدبير الله فى الكون فقال : انظر إلى الأرض لقد خلقها كالمهد لقضاء المصالح ، إنها كمهد الطفل (وما البشر إلّا أطفال هذه الأرض يضمهم حضنها ويغذوهم درها .. وهى ممهدة لهم للسير والحرث والزرع والحياة[2]) والله الذى جعل لكم الأرض مهاداً هو الذى شق فيها الطرق وأنزل من السماء الماء فأخرج به النباتات المختلفة الطعم والشكل والرائحة كل صنف منها زوج يتكاثر وينمو

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٤٣٥ . قال الزمخشرى (لله دَرُّ هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه وما أبينه) .
(٢) الظلال جـ/ ٤ ص ٢٣٣٩ .

ويزدهر فيصبح طعاماً لكم ومرعى لأنعامكم . أليس فى ذلك كله يا فرعون علامات واضحة لمن يستخدم عقله ويتدبر به .. على وجود الله ووحدانيته . إن تلك الأرض التى تخرج هذا النعيم كله والخير جميعه هى مصيرنا حيث نعود إليها مقبورين ، كما خرجنا منها أحياء نرزق .. فمنها خلقنا وإليها نعود ومنها مرة أخرى نخرج للبعث والحساب ..

.. وانتظر موسى أن يدرك فرعون تلك الآيات الدالة على قدرة الله ووحدانيته ، ولكنه أخذته العزة بالإثم وطغى عليه الإحساس بالربوبية المدعاة .. فكذب ذلك كله بالرغم من الوضوح الجلى فى سرد الدلائل الحسية والعقلية .. وأبى أن يؤمن وأن يدرك وأن يطيع تلاؤماً مع ما ركب فى نفسه من صفات العلو والاستكبار .

ومن خلال هذا المقطع الحوارى الذى يتناول فى جدل تعليمى مظاهر القدرة ، وتدرج مناحى التعليم ، واستخدام وسائله الادراكية .. نتبين بعضاً من الملاحظ الهامة .. منها أن موسى قد ردَّ صفة الإبداع والخلق والتسوية فى الهيئة إلى الله سبحانه واستخدم فى العطف الأداة «ثم» التى خرجت عن معناها وهو التراخى إلى المصاحبة فكل خلق وهديه . ذلك أن «كل شىء مخلوق ومعه الاهتداء الطبيعى الفطرى للوظيفة التى خلق لها وليس هناك افتراق زمنى بين خلق المخلوق وخلق وظيفته»(١)

كما لخص موسى أكمل الآثار الالهية المدبرة للوجود .. حيث

---

(١) الظلا جـ ٤ ص ٢٢٣٨ .

تتجلى تلك الآثار فى القدرة المدبرة المبدعة فى كل كائن صغير أو كبير من الذرة المفردة إلى أضخم الأجسام ومن الخلية الواحدة إلى أرقى أشكال الحياة فى الإنسان . إنه الترابط المحكم بين عوالم الكائنات ، هذا التلاؤم الذى يبدو فى وضع كل كائن فى مكانه من التركيب الكونى ، وإيصال كل عنصر من عناصر الكون بسائر العناصر . إنه الوحدة القائمة على عدل الميزان .

والتذكير بالأرض فى هذا الحوار الرائع فيه إيحاء بأن فرعون على جبروته وعلى ادعائه الربوبية ذو منشأ ترابى .. وهو مثل غيره من الذى خلقه الله ثم هدى .. ومن ملامح النسق القرآنى فى هذا الحوار القصصى هو استخدام عنصر الالتفات حيث انتقل من ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم المعظم فى قوله (فأخرجنا) للإشارة إلى كمال القدرة وانقياد الكون له .

يقول الزمخشرى فى هذا النسق البلاغى («فأخرجنا» انتقل فيه من لفظ الغيبة إلى لفظ المتكلم المطاع لما ذكرت من الافتنان والإيذان بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لأمره وتذعن الأجناس المتفاوتة لمشيئته لا يمتنع شىء على إرادته ...)[1]

●● .. وفى مجال التربية والتعليم تأتى قصة قارون متناسقة مع المنهج القرآنى فى عرض القصص حيث تقف على جوهر المعنى ومغزاه دون اهتمام بالوصف المادى للشخصية وتاريخها وزمانها ومكانها .. إنها تخترق ذلك كله لتقف على العبرة وتقدم العظة

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٤٣٦ .

التربوية فى نسق تعليمى يبرز أنماط السلوك الرديئة فى تصوير حسى بالغ التأثير ، فتثير المشاعر والانفعالات البشرية وترتفع بها إلى درجة من السمو السلوكى الذى ترمى إليه القصة ، بحيث يصبح مسلكاً سوياً .

ولقد وردت القصة فى سورة القصص . وهى سورة حافلة بكثير من المواقف القصصية .. وسورة القصص مكية تدور حول فكرة الحق والباطل ومنطق الاذعان والطغيان وتصور الصراع بين جند الرحمن وجند الشيطان وقد ساقت لتوضيح ذلك قصتين : الأولى قصة تصور الطغيان بالحكم والسلطان ممثلة فى قصة فرعون والأخرى تمثل الاستعلاء والطغيان بالثروة ممثلة فى قصة قارون . (وكلتا القصتين رمز إلى طغيان الإنسان فى هذه الحياة ، سواء بالمال ، أو الجاه ، أو السلطان)[1]

ويحكى القرآن قصة قارون فيقول :

قال تعالى :

﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إنَّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين . قال إنما أوتيته على علم عندى أو لم يعلم أنّ الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشدّ منه قوةً وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون . فخرج على قومه فى زينته قال

---

(١) صفوة التفاسير ص ٤٢٣ جـ ٢ .

الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خيرٌ لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلّا الصابرون . فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئةٍ ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين . وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدرُ ، لو لا أن منَّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون . تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين .﴾[1]

وعن ابن عباس : أن قارون كان ابن عم موسى ـ وعن قتادة قال : كان يسمى المنوّر لحسن صوته بالتوراة ، ولكن عدو الله نافق .. فأهلكه البغى لكثرة ماله .. واختلف المفسرون حول قارون والدافع الذى دفعه إلى الكيد إلى نبى الله موسى . والوسيلة التى لجأ إليها لتحقيق هذا الكيد ، ولكنهم أجمعوا على أنه كان كافراً فى الباطن منافقاً فى الظاهر ..

ومما قاله المفسرون منسوباً إلى ابن عباس : أن قارون أعطى امرأة بغيّا مالاً على أن تقول لموسى عليه السلام إنك فعلت بى كذا وكذا فيقال أنها قالت له ذلك فأرعد من الفرق (الخوف) وصلى ركعتين ثم أقبل عليها واستحلفها .. فذكرت أن قارون هو الذى حملها على ذلك واستغفرت الله وتابت إليه فعند ذلك خرَّ موسى لله ساجداً ودعا الله على قارون . فأوحى الله إليه : أنّى أمرت الأرض

---

(١) سورة القصص آيات ٧٦/٨٣ .

أن تطيعك فيه . فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره فكان ذلك .. [1]

.. وليس غريباً على شخصية كقارون أن تسلك هذا المسلك البذيء للنيل من نبي الله موسى ، فما ركب فى ذاته من عوامل العلو والغلُوّ .. يجعله يشعر بالاستعلاء وهى صفة فى الظاهر قوية لكنها تحوى فى الداخل قلبا مريضاً ، يحقد ويهدم .. فهى إذن شخصية منقسمة ، يحرك بريق الظاهر الأخاذ باطنٌ يمور بفساد أخلاقى .. ولأن الطبع البشرى واحد فى كل زمان ومكان ، فإننا نجد كثيراً من الشخصيات فى زماننا هذا تلجأ إلى هذا الأسلوب المتدنى للنيل من غيرهم . وهو سلوك يدينه القرآن ، وهى شخصية مرفوضة بالمنهج القرآنى القويم .

إن قارون يحمل نفساً مريضة ، وعقلاً لا يدرك أو يفهم ، وقلباً خالياً من الانفعالات السوية كالحب والحق . (إن النفس المريضة نفس معطلة الحواس لا تستقبل الخير . نشطة فى إرسال موجات الشر والفتنة والفساد والضلال والغواية .. إنها نفس شريرة) [1] . وهى نفس ظالمة تظلم نفسها بسلوكها وتوقع الظلم بغيرها . ذلك لأن من سماتها الظلم والبغى .. ومن ثم نرى هذا الموقف الذى نحن بصدده .. العلاقة بين الظالم الذى أبطره غناه والمظلوم الذى وقع عليه البغى ومن قبلُ الفقر .. قائمة عبر نوعين من حالات النفس : حالة الشكوى والتمنى ، وحالة النشوة والفرح والاستعلاء .. وهما

---

(١) قصص الأنبياء ابن كثير ص ١٦٦ .

(٢) دراسات نفسية وتأملات قرآنية د . عزت الطويل ص ٢٥ .

موقفان مدانان فى القصة .

...وقارون من قوم موسى بل من عشيرته الأقربين ، آتاه الله المال الوفير والسعة فى الرزق فحاز سعادة الدنيا ، فاكتظت خزائنه وعجز الأقوياء من أتباعه عن حملها .. وكان قارون يحيا حياة البذخ والترف يسكن القصور الشامخات ويصطفى الخدم والعبيد ولا يبدو إلّا فى أبهى منظر وأجمل زينة . وسيطر المال عليه ففرح وبطر وجحد نعم الله عليه .. وفرض سلطانه على قومه وسامهم البطش والعنت .. وهو فى زينته لا يسمع إلّا إطراء المنافقين . ولا يحس نقمة المحروم ولوعة المظلوم ...

ولكن القوم وقد رأوه سادراً فى غيه ، نصحوه طالبين منه أن يشكر الله على نعمه ، حتى لا يغويه المال فيضل فيكفر ، ويضن بماله على المحتاج والمسكين من قومه وعشيرته .. وها هو المال فلتأخذ منه طيِّبه وتمتع به فى إطار الحلال الذى شرعه الله .. ولا تنس حق البؤساء والمساكين فى هذا المال الذى استخلفك الله عليه .. ولكنه حين سمع هذه النصيحة ، ازداد تكبراً وصلفًا (وأنّى للطاغية أن تتفتح آذانه للنصيحة تلقى إليه . ومَنْ للمستكبر ينال النصح من نفسه ويمس شغاف قلبه)[1] .. وجاء رده على القوم جافياً ومتعالياً .

لقد أعطيت هذا المال لأننى جدير به ولولا رضى الله عنى ومعرفته بفضلى واستحقاقى له لما أعطانى هذا المال دون قومى

---

(١) قصص القرآن ص ١٤٦ .

جميعاً ، فاحتفظوا بالنصيحة لعلها تقوّم أموركم وتزيد من مالكم .
ولكن الله عزّ جلّ يؤكد أن هذا الإنسان المغرور بماله . الجاحد نعم الله عليه ، لا يدرك أنه ليس جديدا فى عالم الكفرة الطغاة ، وليس بدعاً فى عالم الجاحدين ، هؤلاء الذين أهلكهم الله بكفرهم وطغيانهم .. ولم يستمع قارون لذلك كله بل أراد أن يزيد فى إيلام القوم فخرج عليهم فى كامل زينته يحيطه الأتباع الكثيرون فى حلل من الذهب والحرير ، على خيول موشحة بالذهب ومعه الجوارى والغلمان .. ولما رآه ضعفاء الإيمان من قومه خدعتهم الدنيا ببريقها وزخرفها وتمنوا فى أسى أن يكون لهم مثل هذا الثراء الفاحش .. واعتبروه رمزاً عظيماً للغنى وصاحب الحظ فى الدنيا .. ولكن عقلاء القوم الذين ثبت الإيمان فى قلوبهم زجروا الضعفاء الذين أصابتهم رعشة الثراء وزينته ، ونصحوا لهم أن جزاء الله لعباده الصالحين خير وأبقى .. واستحق قارون عذاب الله . واستجاب الله لدعاء موسى وخسف به وبداره الأرض ، وما كان له من فئة يدفعون عنه العذاب .. فابتلعته الأرض ولقفت ماله وقصوره فكان عبرة لقوم موسى والضعفاء من قومه .. ولما رأى القوم ما حل بقارون رجعوا إلى أنفسهم نادمين .. وأدركوا أن الله منَّ عليهم باللطف وتفضل عليهم بنعمة الإيمان والرحمة ، وحمدوا الله أنهم لم يكونوا مثله .. وأن عند الله الخير الوفير ، ودار النعيم الخالد الذى لا يبلى ولا يزول .. تلك الدّار التى وُعد بها المتقون الذين يبتغون رضوانه ويحذرون عقابه .

.. وعندما نمعن النظر فى هذه القصة ندرك أن سلطان المال

ينتهى بصاحبه إلى البغى والبطر فالهلاك والبوار ومن ثم فإن المعنى الكامن وراء القصة يشعر بأن قيمة المال والزينة ترخص إلى جانب الإيمان والصلاح . كما تشعر بالاعتدال فى الاستمتاع بطيبات الحياة .. فى توازن لا يجنح إلى الافراط أو التفريط .

والقرآن الكريم لا يحدد زمان القصة ولا مكانها وإنما يكتفى ـ تناسقاً مع المنهج القرآنى فى سرد قصصه ـ بأنه كان من قوم موسى .. ذلك أن الهدف هو تقرير القيم الإيمانية والقواعد السلوكية . وجزاء البغى الذى مارسه قارون على قومه .. وكل باغٍ يمارس طغيانه على قومه فى كل زمان ومكان .

(ولا يذكر فيما كان البغى ، ليدعه مجهلاً يشمل شتى الصور)[1] من بغى بالمال والسلطان واغتصاب الأرض والأشياء . وحرمان الحقوق ، كما يفعل الطغاة عموماً . ولقد أبرزت الآيات المنهج الالهى القويم . المنهج الذى يعلق قلب واجد المال بالآخرة . ولا يحرمه أن يأخذ بقسط من المتاع فى هذه الحياة .. وهذا المنهج القويم يحقق التعادل والتناسق فى حياة الإنسان . ويمكنه من الارتقاء الروحى من خلال حياته الطبيعية .

والقصة حفلت بالأحداث والانفعالات البشرية ، فمن تطاول بالبغى والإعراض عن النصيحة إلى الزهو بالنفس والاعتداد بها ونسيان نعم الله وفضله ، إلى العذاب الذى حاق بأهله .. لما فعلوه من بطر وغلو وفساد .. إلى تصوير النفس الضعيفة أمام سطوة

---

(١) الظلال مجلد/٥ ص ٢٧١١ .

المال والجاه ، إلى الإيمان الحق الذى يرى فى ذلك كله خداعاً وابتعاداً عن الحق .

كما أبرزت القصة فيما أبرزت القيمة الثابتة للإنسان بين المادة والروح .. موضحة استخدام النعم التى أنعم الله بها على خلقه .. فى حدود المصلحة العامة للجماعة على نحو يضمن المتعة والخير ، فالتوجيه الإلهى يضبط غريزة التملك وينظمها فتربط بين الفرد والجماعة ، وتحمى المجتمع من عواقب الصراع الهدام حول المال والغنى .

كما أن المال وما يجره من متع ليس هو الذى يحدد قيمة الإنسان فى مقياس الحق ولكن (قيمة الإنسان إنما يقررها العمل المنسجم مع تعاليم الله)[1]

ولقد تراوحت القصة بين السرد والحوار والوصف وإبراز المشاعر المتضادة فجسدت بذلك المعنى المراد أقوى تجسيد وأروعه ورسمت بتلك الصورة المجسمة تلك النهاية للبغى والفساد ، وأدانت فى تصويرها كل الانفعالات التى تخرج عن المنهج الإيمانى الحق ..

---

(١) قصص وعبر ص ١٣٧ .

القصـــة النفسية

يسمو الإنسان بنفسه ويعلو عن الطبيعة الجامدة وإن بدت حية زاهية تخلب اللب وتأسر الفؤاد ، ذلك لأن الإنسان هو الأعقل وهو الأعمق والأفضل .. ومن ثم استحق أن يتحمل الأمانة التى عجزت عن حملها السموات والأرض .. إنه القوة المبدعة ، والروح الصافية المتسامية . وهو فى الوقت ذاته يجمع الأضداد والتناقضات ، ويمور داخله بصراعات ، ويشتجر فى نفسه صراع أبدى بين الخير والشر ، الحق والباطل . وهو كتلة من الوجدان والمشاعر تشف فيحصل على منزلة عليا ويصبح نورانياً كالملائكة ، ويسف فيسفل ويضحى ثقيل المادة مطموس القلب ويقترب من الحيوانية ويتعادل فى حالات الانهيار والثقل مع الجمود والمادة :

.. ومن ثم جاء التوجه الإلهى إلى البحث فى أعماق النفس البشرية التى تجمع هذا الخليط العجيب من المشاعر والرؤى والانفعالات ، من أجل إدراك جوهرها .. والقبض على العنصر الخيّر فيها والتسامى به ..

ولقد كشفت القصة القرآنية عن الشعور الإنسانى الفطرى الكامن فى الذات البشرية حيث لمست أبرز المشاعر الإنسانية ، وأرقها وانبلها ، كما عرّت النفس البشرية فى عنادها وتهورها ووقوعها تحت سطوة الانفعال اللاسوى كالحقد ، والغيرة ، والبطر ،

والجنس ، والانتقام ، والخوف ..

«والجانب الوجدانى من الإنسان هو بطبيعته أدخل الجوانب فى موضوع الفنون»[1]

ومن ثم يتأتى عمق التأثير فى العمل الفنى حين ينجح فى تصوير الوجدان البشرى تصويراً عميقاً وموحياً يكشف عن جوهر النفس ، وطبيعة الذات البشرية .

والنفس منبع القوى الباطنية فى الإنسان ومناط سموه وترقيه ، أو انحطاطه وترديه . ولقد دعا القرآن الإنسان أن ينظر فى نفسه كمنطلق إلى الإيمان بخالق النفوس الذى يعلم سرها ونجواها .. قال تعالى : ﴿**وفى أنفسكم أفلا تبصرون**﴾ ..

وطريق النفس إلى المعرفة يتمثل فى ذلك الشعور العميق المتأصل فى نفس كل إنسان مهما كان حظه من العلم والثقافة ، وهو ميله الذى لا يغالب ، وانعطافه الذى لا يقاوم نحو السمو والجمال والخير . ومن آيات روعة القرآن وجلاله أن الخالق يحدثنا فيه بنفسه عن همسات الضمائر وخواطر القلوب وما فى خبايا النفوس ، وهو أدرى بما أودع فيها من أسرار[2] ﴿**ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**﴾[3]

والقصة القرآنية تنظر إلى الإنسان فى حقيقته ، وتعرضه عرضاً تكشف فيه ما انطوت عليه نفسه من خير وشر ، وضعف وقوة ، كما

---

(١) منهج الفن الإسلامى ص ٦٥ .
(٢) سيكلوجية القصة فى القرآن ص ٢٦٦ .
(٣) سورة الملك آية ١٤ .

أنها تكشف ما عند الإنسان من قدرة قادرة على الارتفاع والسمو وما لديه من استعداد إلى التدنى والهبوط .. والانسان فى المعنى العميق الذى يكمن وراء القصة القرآنية قادر على أن ينتصر على جوانب الشر والضعف فيه وأن يطمس مسارب الشر ومداخله .

والنفس هى جوهر الإنسان ولبابه ، وإليها وبها يكون صلاح الإنسان أو فساده . فمن نفس الإنسان توجد أنسام الطمأنينة والخير والراحة النفسية ومنها أيضاً تثور الأعاصير المهلكة .

ولقد قسم القرآن الكريم النفس إلى أقسام ثلاثة هى : النفس المطمئنة وهى النفس التى تؤمن بالله وتستحضره فى كل موقف . وهذا الذكر الدائم يفيض على النفس أمناً واطمئناناً .

قال تعالى ﴿**الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾[١]

والنفس الأمارة هى المقابل للنفس المطمئنة فهى تتضاد معها وتختلف اختلافاً بيّناً . إنها الوحش الضارى تنزع إلى الشر وتنتهك الحرمات . ومع ذلك فإن لهذه النفس علاجها وتطبيبها ، وهو ذكر الله والرجوع إليه .

قال تعالى : ﴿**وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلّا ما رحم ربّى إن ربّى غفورٌ رحيم**﴾[٢]

والنفس اللوامة هى التى تلوم صاحبها على ما فرط فيه بما لا يرضى ربّه (والنفس اللوامة لا تسكن إلّا قلب المؤمن بالله المراقب

---

(١) سورة الرعد آية ٢٨ .

(٢) سورة يوسف آية ٥٣ .

الجلال سلطانه وما يخشى من سطوة عذابه سبحانه ، يوم يقوم الناس لرب العالمين فى موقف المساءلة والمحاسبة وفى مقام الثواب والعقاب)[1]

قال تعالى : **﴿إنّ الذين اتقوا إذا مسَّهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون﴾**[2]

ولقد عالجت القصة القرآنية شرور النفس ومسالكها المريضة حتى تضرب للبشر العبرة وحتى توضح مجالات الصراع المشتجر داخل الذات الإنسانية بين الخير والشر وهما قوتان تتصارعان منذ همس إبليس لآدم أن يعصى ربّه .

كما عالجت القصة القرآنية جمال النفس واطمئنانها وضربت لذلك نماذج للنفس الخيرة الكريمة ، ومن خلال هذا الضرب من القصص القرآنى تأتى الأحكام لتعديل السلوك وتقويمه وضبط العاطفة وكبح الانفعال .

ووراء النفس البشرية حياة متلاطمة الأمواج قليل منها يظهر والكثير مؤلف من نزعات خفية وأهواء دفينة وأحلام مكبوتة وذلك كله مطمور تحت قشرة رقيقة فى المخزون النفسى الذى يشبه البركان الخامد ، ولا شك أن هذه التراكمات لها آثارها على الذات والسلوك . ويجدر بالذكر التأكيد على أن (أول صورة للعاطفة الأخلاقية هى الشعور بالممنوع والمكروه . فقد كانت الأشياء فى الجماعات الابتدائية منقسمة إلى ممنوع ومطلوب وحرام وحلال .

---

(١) الإنسان فى القرآن الكريم ص ٩٧ .

(٢) سورة الأعراف آية ٢٠١ .

فأدى وجود الممنوعات .. والمحرمات إلى إيقاظ شعور الإنسان بشخصيته وإرادته .

لقد كان هذا المنع فى الجماعات الابتدائية منعاً خارجياً[1]

● ولنذكر فى هذا المجال أن قصة قابيل وهابيل ـ ولدى آدم ـ نموذج فذ ، موجز غاية الإيجاز ، على حدة الصراع بين قوتى الخير والشر أو بين النفس المطمئنة والنفس الأمارة بالسوء .

قال تعالى : **﴿واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحقّ إذْ قرّبا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، قال لأقتلنّك ، قال إنما يتقبل الله من المتّقين . لئن بسطت إلىّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك ، إنى أخاف الله ربَّ العالمين . إنّى أريد أنْ تبوءَ بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النّار وذلك جزاءُ الظالمين . فطوعت له نفسه قتل أخيه ، فقتله فأصبح من الخاسرين . فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه ، قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين﴾**[2]

ولقد حظى نبأ ابنى آدم بكثير من التأويلات والتخريجات . اعتماداً على ما ورد فى التوراة وما قال به أهل الكتاب .. وكعادة القدماء حين كانوا ينظرون فى قصص القرآن ، فإنهم كانوا يدلون بمعلومات تاريخية عن طريق الرواية ليس لها سند من حقيقة .. وهو تأويل لا يضفى جديداً .. وداخل هذه المعلومات استقاء معارف

---

(١) علم النفس د . جميل صليبا ص ٢٨٧ .

(٢) سورة المائدة ٢٧ ـ ٣١ .

اسطورية وردت حول القصة مأخوذة من كتب أهل الكتاب ، وهى مليئة بأخبار الأولين .. ولقد بلغ التعنت والتأويل مداه حين نسبوا إلى آدم أبياتاً شعرية قالها بعد وقوع الجريمة يصف فيها حزنه ويصب فيها حكمته عن الدنيا ومصائر الناس .

وذكر السّدى عن ابن مالك ، وأبى صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة ، أن آدم كان يزوج كل بطن بأنثى البطن الآخر ، وأن هابيل أراد أن يتزوج بأخت قابيل ... وكان أكبر من هابيل ، وأخت قابيل أحسن . فأراد قابيل أن يستأثر بها على أخيه وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فأبى ، فأمرهما أن يقربا قرباناً .. فقرب هابيل جذعة سمينة وكان صاحب غنم وقرب قابيل حُزمةً من زرع ردىء زرعه . فنزلت نارٌ فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل . فغضب وقال : لأقتلنك حتى لا تنكح أختى فقال (هابيل) .. إنما يتقبل الله من المتقين .. فلما كان ذات ليلة أبطأ هابيل فى الرعى ، فبعث آدم قابيل لينظر ما أبطأ به .. فلما ذهب إذا هو به . فقال له : تقبل منك ولم يتقبل منى . فقال : إنما يتقبل الله من المتقين . فغضب قابيل عندها وضربه بحديدة كانت معه فقتله . وقيل إنه قتله بصخرة رماها على رأسه وهو نائم فشدخته ، وقيل بل خنقه خنقاً شديداً وعضه كما تفعل السباع فمات ..[١]

وقيل أنه (بجبل قاسيون شمالى دمشق مغارة يقال لها مغارة الدم مشهورة بأنها المكان الذى قتل قابيل أخاه هابيل عندها)[٢]

---

(١) انظر قصص الأنبياء ابن كثير ص ٨٥/٨٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٨٩ .

● إن القصة تبدأ بالأمر الإلهى إلى رسوله بقص قصة ابنى آدم إلى اليهود الذين يحسدون على المسلمين دينهم ورسولهم .. فها هى الحياة قد استقرت بآدم وزوجه ، واستقبلت حواء أولادها عاماً بعد عام .. وكانت أن وضعت توأمين قابيل وأخته ، وهابيل وأخته . وشبوا جميعاً فى رعاية الأبوين حتى امتلأوا نضارة وشباباً وقويت فيهم غريزة الحياة فمال الفتيان إلى أن يتخذا الزوجة التى يسكن إليها .. كى تعمر الدنيا ويكثر الناس وتتحقق سنة الله فى الكون وتتجلى الحكمة من الخلق .

فأوحى الله إلى آدم أن يزوج كل فتى من توأم أخيه . وحين أفضى آدم إلى ولديه بذلك هبت عواصف النفس وبدت الطبيعة الإنسانية فى احتوائها على المشاعر المتضادة .. وحدث الشقاق بين الأخوين ، وأثار الجمال الأنثوى حفيظة النفس فجمح من جمح ، وأطاع من أطاع ... وحين رأى آدم هذا .. هداه الله إلى مخرج ، فطلب منهما أن يقربا قرباناً إلى الله .. ومن يتقبل الله منه يأخذ ما يتمنى ويشتهى ، فقدم هابيل قربانه واختار أزكى ما عنده وقدمه ، وكان هابيل مؤمناً سَوِىَّ السلوك محباً للخلق الكريم ، صافى القلب فَتُقُبِّل منه ، على حين اشتط قابيل غضباً ، وامتلأ قلبه بالحقد ، وخلا قلبه من الخلوص إلى الله .. وذلك حين رُفض قربانه .. وانطفأ الأمل فى قلبه وسيطرت عليه الأثرة والأنانية .. وأضحت نفسه مغموسة بالشر ، وانطمست النفس ورجعت إلى بدائيتها وتملكت النفس الأنانية والغيرة .. وهى غرائز ترتكز عليها النفوس المريضة ، ومن يقع تحت وطأتها يهدم نفسه وغيرها أيضاً .. وها هو

الجموح الأنفعالى يتأجج .. فيهدد أخاه هابيل بالقتل : لأقتلنك ، ولم يرفع هابيل إلى أخيه يداً بل ناصحه أن يتعرف موضع الداء ويعالجه ، فالله لا يقبل إلّا من المتقين .. فقوّم السلوك ، وأخلص النية لله .. وأطعه واخضع له .. وتصور هابيل أن كلماته قد تشفيه وتستل من نفسه سخائم الحقد والغيرة .. ولكن البركان فى النفس يدمدم والغيرة نار مشتعلة ، ولم تشفع له أخوة أمام غريزة مريضة تجتاحه .. فوقعت الواقعة وتمت الجريمة وراح هابيل قتيلاً ، وسجَّل بمقتله أول جريمة وقعت على ظهر الارض .. وحار قابيل بجثة أخيه وظل يحملها على ظهره حتى شاءت إرادة الله أن يضع حدًّا لهذه الحيرة ، تكرمةً للإنسان ، وتعليماً له من طائر أراد الله به أن يلقنه درساً . ويفضح التدنى الإنسانى الذى سقط فيه .. وها هو الغراب .. ينكش الأرض ويحفرها ، ويوارى جثة غراب آخر فى التراب .. ووصلت الرسالة إلى قابيل فتحسر نادماً على عجزه البشرى الذى لا يدانى علم الغراب .. الذى جعله الله درساً له ..

.. وتعلم من هذا الرمز الخاطف كيف يوارى جثة أخيه .. وكيف يتعالى ببشريته المتدنية إلى رمزية الطائر الأخرس .

والقصة تبين بالدليل أن الغيرة والحسد فى النفس المريضة يؤديان إلى العداوة والاعتداء على النفس والغير ، ولا علاج للحسد ـ وهو يحدث بين الأخوة كما حدث هنا . وكما حدث بين يوسف واخوته ـ إلا بالبتر والمواجهة لما فيه من صلاح الجماعة وصلاح النفوس وصلاح الدين .

وقصة ولدى آدم وردت فى سورة المائدة ، وهى سورة مدنية

طويلة تناولت التشريع الإسلامى لتمكين الإسلام فى الأرض ، ولتأصيل المنهج الربانى فى تنظيم شئون الكون والحياة . ولا شك أن جريمة القتل من الجرائم التى تهز البناء الاجتماعى والنفسى . ولقد جاء القصاص حاداً وحاسماً تلاؤماً مع عنف الجريمة وبشاعتها[1] .

ومن ثم فقد وردت الأحكام التشريعية التى تنظم حياة المسلمين وتضع العقاب الملائم للقتل والنهب والسرقة والغصب .. مما يوحى بأن قصة ولدى آدم جاءت متنامية تماماً مع السياق القرآنى ، إنها المدخل الحسى إلى الفكر التجريدى المنظم . (ويحس القارىء المتأمل لسياق وظيفة هذه القصة فى موضعها ، وبعمق الإيحاء الإقناعى الذى تسكبه فى النفس وترسّبه . والاستعداد الذى تنشئه فى القلب والعقل لتلقى الأحكام المشدَّدة ..)[2]

وانطلاقاً من المنهج القرآنى فى قصصه ، فالسياق القرآنى لم يحدد زمان القصة أو مكانها أو تفاصيلها ، بل جاءت القصة قصيرة جداً تتضمن موقف القربان وأثره ، ولكن لا شك أن ثمة فجوات كما قلنا تسمح بالخيال أن يملأ هذه الفجوات بما يتنامى مع الحدث الرئيسى ونموذج الشخصية الذى دار بين نوعين من القيم .. الخير والشر . المؤمن والجاحد ، السوى والمحبط .. وهى قيم تقبض على الصراع وتدفع بالحدث إلى نهايته الطبيعية .. ولنا أن نتخيل طفولة الإنسان الأولى وهو يواجه هذا النوع الغريزى من الصراع .. ولكنه غريزى بالفطرة لأن الحواس هى التى تطفو وتتحكم ، ولازال الإنسان مهما

---

(١) نظرات فى قصص القرآن جـ ١ ص ٩٣/٩٤ .
(٢) الظلال جـ ٢ ص ٨٧٣ .

أوتى من تحضر يرتد إلى تلك الطفولة البشرية .. ويقع فيما وقع فيه قابيل ولنفس السبب ..

ونحن نتابع هذا الصراع النفسى عبر الألفاظ والتراكيب القرآنية الموجزة التى عكست للك فى قوة معجزة .. فى قوله تعالى : ﴿**فطوعت له نفسه قتل أخيه**﴾ توحى كلمة (طوّعت) بظلالها المصاحبة ، بأن قابيل ـ الشخصية المنهزمة المحبطة ـ كان فى صراع مع الضمير ، وكأنما كان يراجع موقفه . إلّا أن الهوى الجامح والغيرة المشتعلة والبركان المدمدم ، ينضوى تحت كلمة (نفسه) .. التى أمرته بالسوء ودفعته دفعاً إليه .. إنها النفس الأمارة بالسوء ..

.. ولننظر أيضاً إلى قوله تعالى ﴿**فأصبح من الخاسرين**﴾ ... ﴿**فأصبح من النادمين**﴾ . فالفعل يشى بتحول النفس من حال إلى حال .. حالة الطيش والجموح والحقد وسطوة الغضب .. والذى لا متنفس لذلك كله ـ فى غيبة الإيمان ـ إلّا الجريمة التى تحوله من رجل غِنىً وربْحٍ وذلك بفضل الله ، إلى خاسر فقد كل شىء .. الإيمان ، والذات فى انتظار نزول العقاب .. وحين تفور النفس ، ترتكب الخطأ وتهدأ .. ويتبدى العجز البشرى واضحاً . وتنعقد المقارنة بين النفس والطائر . فيندم الإنسان لعجزه وإحباطه .. والندم شعور طبيعى يتولد من تصور الخطأ .. مصداقاً لما ورد عن رسول الله ﷺ من أن الزانى لا يزنى وهو كؤمن ولا يقتل حين يقتل وهو مؤمن .. لأنه فى هذه الحالة قد غاب العقل وغُيّب بفعل الغضب وسطوته ومن ثم يأتى الندم تباعاً .. وتلك صفة نفسية بشرية تتابعت من طفولة الإنسان حتى يومنا هذا .

ولنتأمل أيضاً الفعل المبنى للمجهول فى قوله تعالى : ﴿**فتُقبِّلَ من أحدهما .. ولم يتقبَّل من الآخر ..**﴾ .. فالبناء للمجهول يبين أن القبول والرفض موكول إلى الله وهذا يفيدنا فى أن لا نبحث عن الكيفية ولا نخوض فى تأويلات لا تتلاءم مع السياق .. وأن الأمر كله قد تولاه الله لحكمة عليا .. ومشيئة مسبقة . وأن المعنى المصاحب لذلك كله هو أن الإيمان من أسباب ادراك القبول الأساسية .

يقول الزمخشرى «لما كان الحسد لأخيه على تقبل قربانه هو الذى حمله على توعّده بالقتل قال له : إنما أتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى لا من قبلى . فلم تقتلنى . ومالك لا تعاتب نفسك ولا تحملها على تقوى الله التى هى السبب فى القبول .. فأجابه (أى هابيل) بكلام حكيم مختصر جامع ، وفيه دليل على أن الله تعالى لا يقبل طاعةً إلّا من مؤمنٍ متّقٍ[1]

إن الجريمة الأولى تعلمنا كيف نعالج سوءات النفس ونزواتها الحمقاء بمراقبة الله ، والخضوع له ، واتقائه بالإيمان والعمل الصالح .. وانزال العقاب الذى شرعه الله سبحانه فى هذه الحالات ، حتى لا نقع تحت كلمتى الخسران ، والندم ، التى شملت قابيل فى جريمته .

وإذا كان القرآن الكريم قد صور لنا تلك العواطف الغليظة التى تخرج من نفس أمارة بالسوء ، فتسول لصاحبها إتيان الفعل المحرم

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٣٣٣ .

وهو القتل ، لما وقعت تحته من سطوة الغيرة والحسد ، والرضوخ لمشاعر إحباط نفسي تدفع صاحبها إلى الإفساد الذاتى والجماعى .. فإنه أيضاً قد حدثنا عن عواطف صافية ، كرقة النسيم تهمس بها الضمائر وتخطر على القلوب اليقظة الواعية .. فتكشف خبايا النفس ومطاويها فى إشارات تمسّ أرق العواطف والمشاعر .

● وموقف موسى من إبنة شعيب خير مثال لهذا اللون النظيف من المشاعر .. وتلك القصة حلقة من حلقات موسى عليه السلام .. تسجل لحظة هروبه وخوفه من فرعون .. إنها لحظة البداية إلى الرسالة ، فهو حين قتل المصرى خطأ .. هرب حين علم أنه مطلوب واستقر به المقام تجاه مدين عسى الله أن يهديه سواء السبيل .

ويحكى القرآن عن القصة فيقول :

قال تعالى : ﴿**وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ، قال يا موسى إنّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين . فخرج منها خائفاً يترقَّب ، قال ربّ نجنى من القوم الظالمين . ولما توجه تلقاء مدين ، قال عسى ربّى أن يهدينى سواء السبيل . ولمّا ورد ماء مدْين وجد عليه أمةً من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لاَ نسقى حتى يصدر الِّرعَاءُ وأبونا شيخٌ كبير . فسقى لهما ثم تولى إلى الظلّ فقال ربّ إنّى لما أنزلت إلىَّ من خير فقير . فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت إنّ أبى يدعوك ليجزيك أجْر ما سقيت لنا فلمّا جاءهُ وقصَّ عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين . قالت إحداهما يا أبت استأجره إنَّ خير من استأجرت القوىُّ الأمين . قال إنّى أريد أن**

أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك ، وما أريد أن أشقّ عليك ، ستجدنى إن شاء الله من الصالحين. قال ذلك بينى وبينك . أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علىّ والله على ما نقول وكيل﴾[1] .

وفى هذا المجال فقد ورد عن المفسرين عدة روايات .. ربما كان تأثير ما ورد فى الكتب السابقة واضحاً فيها .. حيث تؤكد على عامل القوة البدنية ، ذلك العامل الذى يلفت إلى صاحبه الأنظار ، ويوقع فى القلوب الاعجاب والخوف معاً ..

ورد عن ابن عباس : سار (موسى) من مصر إلى مدين لم يأكل إلّا البقل وورق الشجر ، وكان حافياً فسقطت نعلا قدميه (جلده) من الحفاء . وجلس فى الظل ، وإن بطنه للاصقٌ بظهره من الجوع وإن خُضرة البقل (نبات عريض الأوراق) لترى من داخل جوفه[2] .

وقيل إن الرعاة كانوا إذا فرغوا من وردهم ، وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة ، فتجىء هاتان المرأتان فتشرعان غنمهما فى فضل أغنام الناس . فلما كان ذلك اليوم ، جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده ثم استقى لهما وسقى غنمهما ثم رد الحجر كما كان .

وقيل : كان الحجر لا يُقله إلّا سبعة رجال وقيل عشرة وقيل أربعون ..

---

(١) سورة القصص آيات ٢٠ ـ ٢٨ .

(٢) المراد تأويلاً لأن العقل لا يتصوره ، أن جلد البطن وجلده عمومًا ، قد تلون من كثرة ما أكل من البقل .. أو أن المعنى يقصد إلى المبالغة .

وورد أنهما (المرأتان) لما رجعتا إلى أبيهما قبْل الناس واغنامهما حُفَّل بطانٌ . قال لهما : ما أعجلكما ! قالت وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا فسقى لنا ، فقال لإحداهما اذهبى فادعيه لى ، فتبعها موسى فألزقت (ألصقت) الريح ثوبها بجسدها فوصفته ، (أى حددته) فقال لها أمشى خلفى وانعتى لى الطريق .

وهذا الموقف يورده المفسرون حين يتحدثون عن عفة موسى وطهره .

واختلف فى أمر شعيب . أهو شعيب النبى عليه السلام .. رسول الله إلى أهل مدين ؟ ورأت طائفة أخرى أن شعيباً عليه السلام عاش عمراً مديداً بعد هلاك قومه حتى ادركه موسى وتزوج بابنته الصغرى .. وروى عن الحسن البصرى : أن صاحب موسى عليه السلام هذا ، اسمه شعيب ، ليس بالنبى صاحب مدين ، وقيل أنه ابن أخى شعيب ، وقيل رجل مؤمن من قوم شعيب ..

● ومنهج القرآن الكريم حين يتحدث عن القصص ويورد موقفاً من المواقف لا يجرى وراء التفاصيل ، ولا يحدد الصفات المادية للشخصية ، ولا يسرد تاريخاً تتابعياً .. بل هو يختار من المواقف وحلقات الحياة ، ما يؤدى إلى إبراز الهدف وتوضيح العبرة . فلا حاجة لما قاله المفسرون حول قوة موسى البدنية ، فالبئر لم تكن مغطاة وإنما وجد الناس يسقون فسقى للمرأتين معهم .. (ولا حاجة كذلك لما رووه عن دلائل أمانته من قوله للفتاة ، امشى خلفى ودليني على الطريق ، خوف أن يراها أو أنه قال لها هذا بعد أن مشى خلفها فرفع الهواء ثوبها عن كعبها .. فهذا كله تكلف لا داعى له

ودفع لريبة لا وجود لها . وموسى عليه السلام عفيف النظر نظيف الحس وهى كذلك ، والعفة والأمانة لا تحتاجان إلى كل هذا التكلف عند لقاء رجل وامرأة ، فالعفة تتضح فى التصرف العادى البسيط بلا تكلف ولا اصطناع)[1] .

ويميل الشهيد سيد قطب إلى ترجيح أن شعيباً ليس هو النبى وإنما هو رجل آخر من مدين ، ذلك أن شعيباً شهد مهلك قومه ، ولم يبق معه إلّا المؤمنون فلو كان هو النبي ما سقى الرعاة قبل بنتى نبيهم الشيخ الكبير ، فليس هذا سلوك قوم مؤمنين .. يضاف إلى هذا أن القرآن لم يشر إلى أية علامات للنبوة ، قد تبدت لموسى وقد عاش معه سنوات ..

.. أما وأن المنهج القرآنى فى سرده للقصص يكف عن ذلك كله .. فلنمض نحن إلى القصة نسردها فى مشاهدها المتتابعة ..

● عرف الملأ من قوم فرعون وحاشيته نبأ ما فعله موسى بالرجل القبطى الذى وكزه فلقى حتفه ، وها هم القوم يأتمرون عليه ليقتلوه ، إن ما فعله موسى أمر خطير ، وجاءه رجل مؤمن من آل فرعون يحذره ، جاءه ساعياً من أقصى المدينة ليبلغه بالأمر الخطير ويطلب منه أن يخرج من المدينة حتى لا يلحقه الأذى . وخرج موسى خائفاً وحيداً ، مطارداً . واتجه صوب الصحراء نحو مدين داعياً الله أن ينجيه من القوم الظالمين .. مضى لا أنيس له إلّا نور الله

---

(١) الظلال جـ ٥ ص ٢٦٨٧/٢٦٨٨ .

ولا زاد معه إلّا التقوى الخالصة ، اسلم نفسه إلى ربه ، واستسلم له ، ودعاه أن يهديه إلى سواء السبيل . واليد التى رعته طفلاً هى التى ترعاه وهو مطارد خائف .. وانتهى به السفر الشاق إلى ماء لمدين يستسقون به . وصل مكدوداً ومتعباً ، فوجد أناساً قد تزاحموا على مورد المياه لسقى الأنعام ، ورأى على البعد امرأتين منعزلتين تدفعان الأغنام عن ورود الماء .. وكأنما كانتا تنتظران .. ـ وقد بدا عليهما الضعف والمسكنة ـ أن ينكشف الزحام وينصرف الجمع فتتقدما للسُّقيا .

.. ورق قلب موسى لهما ، وثار فى نفسه حب الانتصاف لهما وحمايتهما مما هما فيه من ضعف .

إن النظرة السليمة تدعوه إلى أن يتقدم إليهما . وسألهما : ما خطبكما ؟ وفى انكسار يثير العطف قالت المرأتان : لا نقوى على السُّقيا حتى ينصرف الرعاة .. فنحن لا نقوى على المزاحمة ، ولا نرضاها ، وليس عندنا من يقوم بالفعل ، فأبونا شيخ كبير لا يقوى عليه .. ولم يتأخر : ومضى إلى البئر وسقى لهما دون انتظار لشىء ، فهو صاحب النفس التى صنعت على عين الله ..

وتولى إلى الظل فالجو حار ، والسفرة أتعبته .. وانطلق لسانه يسترحم ربّه ، ولسانه يعبر عن وحدته ، وغربته ، وألمه من هجير الصحراء ، وجوعه الذى يضنيه .. ويرفع رأسه ويدعو : إننى إلى فضلك وكرمك فقير محتاج .. وكانت المناجاة تشى بالحزن والألم وتوحى بالحاجة والمساندة .. واستجاب الله وساق إليه الفرج .. إذ أرسل شعيب إحدى ابنتيه فى طلبه ، فجاءته الفتاة تمشى على

استحياء مشية الفتاة الفاضلة الطاهرة وقالت له : فى إبانة ووضوح : إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا . وكان موسى فى حاجة إلى الأمن ، كما كان فى حاجة إلى طعام ، وكان غريباً فاحتاج إلى الأنيس .. وتبع موسى الفتاة إلى بيت أبيها ، وآنس موسى الأمن والأمان وقصّ على الشيخ قصته فطمأنه الشيخ : أنت هنا آمن ، نجاك الله من الظالمين ولا سلطان لقومك علينا ، فطمئن النفس وابعد الخوف .

وتهدأ نفس موسى وتسكن ، وكان موسى مثار اعجاب الشيخ لما زانه الله به من طبع قويم وخلق طيب . وتبادر إحدى البنتين فى مشاعر انثوية غاية فى الاستقامة والسلامة .. تبادر إلى أبيها قائلة فى إبانة وحياء : يا أبت استأجره .. وكأنما فطن الشيخ إلى المراد .. وكأنما تابعها فى اهتمام مندهش ، فتسرع الفتاة لتؤكد أنه القوى الذى زاحم وسقى ، وأنه العفيف الذى أطرق حياء حين جاءته واستدعته ، وانه الذى سار أمامها حفاظاً على الطهارة وحرصاً على المكرمات ، إنه أمين على العرض ، والأمين على العرض أمين على سواه . إن خير من استأجرت القوى الأمين .

وكأنما كان حديث الفتاة صدى يترجرج فى صدر الشيخ أملاً ورجاءً ، وقد أكد التماس الفتاة ما استقر عليه الشيخ .. ووعاه .. وأدركه .. واستجاب الشيخ ولعله أحس من نفس الفتاة ونفس موسى ثقة متبادلة وميلاً فطرياً سليماً لبناء أسرة .. وتوجه الشيخ إلى موسى قائلاً : إننى أرغب فى أن أزوجك إحدى ابنتى هاتين على أن تكون عوناً لى ترعى الغنم وتساعدنى ثمانى حجج . وإن زدتها اثنتين

فذلك فضل منك ومنّة .

ولم يكد موسى يسمع دعوة الشيخ حتى سرى أمل الحياة فى نفسه وانطلق سعيدًا ، وطلب من الشيخ أنه لا عدوان عليه إن أتم أحد الأجلين .

واطمأن موسى فى المقام فى بيت الشيخ وقد أمن فرعون وكيده وابتعد عنه الخوف وشعر بالأمان .

●● إن هذه القصة واحدة من النعم الإلهية التى أنعم بها الله على موسى عليه السلام ، إذ كانت بمثابة مرحلة إعداد روحى عميق أشبه بالاعتكاف الذى يربّى الارادة ويصفىّ النفوس من عوامل الضعف .

والقصة تصور بعض الجوانب النفسية فى شخصية موسى ، إنها تصور الحيرة التى عاشها موسى ـ ربيب القصر ـ وقد رأى نفسه منبوذًا ومطرودًا فى صحراء قاحلة . كما تصور حالة الخوف الشديد الذى سيطر عليه حين علم بنية قوم فرعون ثم الأمان وطمأنينة القلب .

كما تصور القصة عواطف الأنثى النظيفة تجاه الرجل (عواطف الإعجاب بقوته ونبله وشهامته ثم أمانته المتمثلة فى محافظته عليها ، والفتاة تعبر عن هذه العواطف على طريقة الأنثى الحييّة الخجول)[1] .

والتعبير القرآنى استطاع أن يعبر عن كل هذه العلاقات النظيفة

---

(١) منهج الفن الاسلامى ص ٧٦ .

التى لا تنحرف ولا تسف لإبراز أجمل ما فى النفس البشرية من مشاعر ووجدانات على طريق الحياة النظيفة التى أرسى قواعدها الإسلام .

وتسبق الزواج مشاعر وأفكار وتجارب تؤهل له وتمهد له . وهذه العواطف ليست حراما . إنها عواطف الإعجاب والميول وما يصحبها من عمل طيب وسلوك قويم . والحكم عليها هو الحكم الذى يستمد شرعيته من قوانين الدين وشرعه الذى يتلاءم مع الفطرة السّوية الطاهرة النقية . إنها تهدف إلى علاقة نظيفة مثمرة منتجة ، اتساقا مع فطرة الحياة التى خلقها الله . والجمال هو فطرة الطبيعة ، وكل مشاعر طيبة مبرأة من الغرض فهى مشاعر جميلة ، تساهم فى حسن الأداء ، وتقويمه وتعديله وتخليصه من الهوى والجموح والشطط والسقوط .

●● ولقد أشعت الألفاظ بهذه المعانى جميعها ، فعكست مشاعر الخوف والحيرة والرغبة النظيفة ، وجاءت متنامية مع الموقف ومع الحالة المصاحبة .

فلفظ «يترقب» يصور مشاعر القلق الذى يهجس بالذات ويسيطر على الوجدان ، ويتبدى فى حركات مسلكية تدعو إلى التلفت والتوجس وتوقع الشر . وهو فضلاً عن ذلك يعكس ملامح الشخصية الانفعالية العصبية . وكذلك اللفظ (على استحياء) يشى بما تتصف به الفتاة من عفة ونبل وطهارة فهى جاءته تمشى مشية الفتاة الفاضلة العفيفة النظيفة .. تمشى على استحياء فى غير تبذل أو تبرج أو خروج عن المألوف فى الفطرة السوية .. إنه لفظ قصد إلى

المعنى قصداً فى إيجاز مشع .

أما قول الشيخ لموسى (لا تخف) فهو طلب بابتعاد الخوف ، وهو قول يبعث على الطمأنينة ويشعر بالأمان ـ ويحتوى الموقف كله ـ فالحالة التى تصاحب موسى هى الخوف من فرعون وقومه ، هذا الخوف الذى استتبع النبذ والطرد والهروب .. فكان طبيعياً وتلاؤماً مع النسق النفسى أن يكون بدء الحوار إبعاداً للخوف وإشعاراً بالأمان ..

ولقد جاء لفظ (تذودان) ليصف مشاعر الضعف والذلة والمسكنة والتى كانت عليه حالة الفتاتين وهما ينتظران السقى إنهما امرأتان ضعيفتان مستورتان لا تقدران على مساجلة الرجال ولا ترضيان لنفسيهما أن تزاحما الناس على فعل هو من عمل الرجال الأقوياء ..

ويأتى اللفظ (استأجره) ليكشف ذلك الهاجس الجميل الذى تحس به الفتاة إنه الاعجاب بنوعين من القوة تبدت لها من موسى : القوة المادية التى ظهرت فى مزاحمته للرجال وسقايته لها ، والقوة الخلقية التى تتبدى فى العفة والطهر ونقاء القلب ، والبعد عن تتبع عورات الناس .. أو اقحام البصر فيما هو مفسد .

.. واللفظ يظهر نفسية المرأة وتكوينها الوجدانى .. فالمرأة حين تعجب بأحد .. هذا الاعجاب النقى النظيف تحاول فى رقة ، ونبل ، وإيحاء ، أن تزينه فى عيون الآخرين .. ومن ثم فلقد زينت إبنة شعيب .. فى عين أبيها .. موسى وزكته له وفى هذا المجال فإننا ننقل عبارة قالها أحد المؤلفين فى هذا المجال الفنى لقصص القرآن

تتناول هذا الموقف الشعورى بين موسى والفتاة يقول المؤلف «وتبدأ مرحلة أخرى تصور الاعجاب بالفتى والاحتيال على لقائه إذ تتقدم إحدى ابنتى شعيب إلى أبيها وتطلب أن يستأجره ..»[1]

والكاتب فى العبارة يصور موسى والفتاة كما لو كانا بطلين لقصة غرام وحب ، فيها المغامرة وفيها الاحتيال ومن ثم الدسيسة للظفر بالحبيب .. ولا شك أن ذلك خيال جر المؤلف إلى الوقوع فيما لا يجب أن يقع فيه ، فالقرآن لا يحكى قصة غرامية ، وإنما هو يورد حلقة من حلقات موسى ولقائه بمن أصبحت زوجة له ، وبيان نعم الله على نبيه إذ آمنه من خوف وهيأ له سبل الأمان والأمن .. والاعداد للرسالة ومواجهة فرعون . وما جاء فى القصة كان «تمهيداً طبيعياً وعادياً لأن يزوج الشيخ إحدى ابنتيه من موسى إعجاباً بقوته وأمانته وما قص عليه من قصص نبوته واستعانة به فى رعى ماله تعويضاً عن فقده الذرية من الذكور[2]» .

والاحتكام إلى النص القرآنى يشعر فى حسم مدى النظافة التى شملت هذه العلاقة النظيفة التى بنيت على أساس من العفة والطهارة والنبل ..

وموسى نبى أهلته عناية الله ليعلو فوق الحرص على متاع الدنيا والاحتفال بها ، فلطالما تنعم فى المال والنعيم فى قصر فرعون . ولكنه فى هذا الموقف نبذ متاع الدنيا وجلس إلى الشيخ الفقير وسمع له

---

(١) نقلاً عن كتاب القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته ص ٢١١ والعبارة من كتاب (الفن القصصى فى القرآن) لمؤلفه د . محمد أحمد خلف الله .

(٢) المصدر السابق ص ٢١٤ .

ورأى الشيخ فيه بعدما سمع منه ما يؤهله لحمل الرسالة فوجدها شرفاً له أن يعرض الزواج عليه من إحدى ابنتيه ولم يكن فى ذلك عيب أو حرج والناس يرون المطارد الغريب صهراً للشيخ ولكن نظرة الرجل الحكيم كانت تنظر إلى قابل الأيام ، إلى موسى والرسالة ، إلى موسى الذى صنعه الله على عينه وتنظر إلى سالف الزمان .. موسى الأمير الذى تربى فى حضن فرعون ملك الزمان فى ذلك الأوان .

وموسى فى هذه القصة لا يحزن على جاه افتقده ولا يفكر فى العودة إلى حظيرة ملك طاغ قد تبناه ورعاه وأولاه بالتربية لينعم بما عنده من جاه أو مال ونعيم .. ولكنه يهاجر إلى الله هرباً من الطغيان إلى الحق ، ويقبل أن يعيش مع شيخ عاجز ضعيف تخدمه فتاتان منكسرتان وترعيان له الأغنام .. وها هو موسى يصاهر الشيخ وها هو الشيخ يهيء المكان الطيب والإقامة الآمنة لموسى ..

(فنحن نرى صورة من بساطة الأنبياء ، واحتمالهم لقضاء الله ، وفرحهم به ، والتكييف له ، لا يفرحون بما آتاهم .. ولا يأسون على مافاتهم)[1]

ولقد تعلق موسى بالشيخ وتزوج ابنته بعد أن وفىّ بأطول الأجلين .. ولا عجب فى ذلك فلقد آوته الأسرة وحمته وكانت عوضاً عن أهله الذين تركهم فى مصر ... ولقد لقى عندها الاحترام والإجلال والتوقير ..

---

(١) القصة القرآنية فتحى رضوان ص ٧٦ كتاب الهلال .

(وموسى عليه السلام نبي من أنبياء الله أعده الله لحمل رسالته . والأنبياء هم أعظم أبناء آدم وفاءً وأكثرهم عرفاناً بالجميل لأن الوفاء صنعة تكلف صاحبها مشقة وحرماناً وجهداً)[1] .

.. ولقد جرت القصة حسب النهج القرآنى فلم يورد من الخبر إلّا ما كان متلائماً مع جوهر المعنى والمغزى الإيمانى المطلوب لإبراز المعانى الروحية الجميلة والتوجيهات الأخلاقية فى أسلوب موجز يشف عن المعنى فى وضوح باهر .. لا يحتاج إلى تكلف ، ولا يقتضى التأويل ، ولا يتحمل الجنوح إلى غير مغزاه ومراده .

● ● ●

● ولقد عبَّرت القصة القرآنية عن مشاعر مضطربة تتملك النفس وتسيطر عليها . مشاعر ترتد إلى عنف الرغبة وسيطرتها ، واحتوائها للذات وعجز الذات عن مواجهتها .. وربما كانت هذه المشاعر أدخل إلى جانب اللذة وشهوة الحس منها إلى رقة الوجدان ونظافته .. وهو تعبير عن جانب من جوانب الذات فى لحظة تهورها وعجزها أو فى آنية الضعف التى تلبستها .. وتلك العاطفة الجنسية عميقة فى الكيان الإنسانى منذ خلق الله الإنسان . وهى طاقة هادرة توجه السلوك أحياناً .. ولكن ليست الدافع الوحيد إليه .. وليست هى العامل الكامن فى توجه الإنسان وتحديد مقاصده .. وليست هى العاطفة الطارئة على الإنسان حتى يخجل منها أو يقع تحت سطوتها ، وإنما هى حقيقة كونية فلا تستقيم الحياة بدونها

---

(١) المصدر السابق ص ٧٩ .

قال تعالى : ﴿**سبحان الذى خلق الأزواج كلَّها مما تنبت الأرضُ ومن أنفسهم ومما لا يعلمون**﴾ [1] .

ونظرة الإسلام إلى الجنس نظرة تنطلق من هذا الوجود الكونى كله .. إنها بنية الكون إن صح التعبير . وفى القرآن الكريم أشارات تتعلق بالجنس كحقيقة بشرية . قال تعالى ﴿**هُنّ لباس لكم وأنتم لباسٌ لهن**﴾ [2]

فثمة التقاء وتلاصق حتى ليبدو الجسدان جسداً واحداً ، ولكنه التلاصق تحت جناح الستر الروحى والنفسى الذى هو وقاية من الفحش والتبذل .

والإسلام يدرك تماماً ما يحدثه التجاذب الفطرى بين الجنسين من مشاعر وخواطر وأفكار وسلوك ولكنه يقيسها بمنهجه (لأن منهجه الذى يسير عليه فى معالجة النفس هو الاعتراف بالطاقات البشرية كلها ، نظيفة فى معرض النور ، لا مستقذرة ولا مختلسة فى الظلام) [3]

ولقد تحدثت القصة القرآنية عن مجالات الجنس التى تهبط بصاحبها وتسفل به ، وتجنح به طاقته المنحرفة إلى سبيل فاسد .. ولكن الحديث وهو يصور لحظة الهبوط لا يرتقى بها إلى الإثارة أو إحداث اللذة .. شأن ما نراه فى الأدب البشرى المائل إلى الإثارة ودغدغة العواطف . وإنما يقصد التعبير إلى تصوير النفس البشرية فى لحظة الضعف دون تزيّد ، للتنفير من تلك الفطرة المنحرفة عن منهج

---

(١) سورة يس آية ٣٦ .　　(٢) سورة البقرة آية ١٨٧ .

(٣) منهج الفن الإسلامى ص ٧١ .

الله ونسق الفطرة السوى ، ومن ثم فإننا قد نلحظ المواقف الجنسية والتهيؤ البشرى لها ، والصراع النفسى المشتجر فى الموقف ، والحالات الوجدانية المعبرة أدق تعبير عن الموقف ولكن فى موضعها من السياق العام دون إثارة أو إحداث لذاذة عاطفية وإنما هو عرض لباطن النفس ورغباتها فى نظافة ، وقصد محسوم .

● وتعكس قصة يوسف هذا الجانب من جوانب النفس البشرية . حين راودت امرأة العزيز فتاها .. والقصة حين تعرض هذا الموقف لا تثير تلذّذ القارىء بمشاعر منحرفة وإنما تهدف إلى إدانة هذا اللون من المشاعر الفاسدة فضلاً عن إبراز جانب من جوانب الابتلاء التى واجهها يوسف عليه السلام .

(والاسلام لا يحرم وصف المشاعر الجنسية ـ نظيفة أو غير نظيفة ، ولا يحرم وصف لحظة الهبوط والضعف ، ولكنه يعرضها كما ينبغى أن تعرض . لحظة ضعف لا لحظة بُطولة . ولحظة عابرة يفيق منها الإنسان إلى ترفعه الواجب ، ولا يظل دائراً فى حلقتها المرتكسة على الدوام)[1] .

.. ولندخل إلى القصة لنقف على هذه المعانى جميعها .

قال تعالى :

﴿ولمّا بلغ أشده آتيناه حُكماً وعلماً ، وكذلك نجزى المحسنين . وراودته التى هُوَ فى بيتها عن نفسه وغلّقت الأبواب وقالت هَيْتَ لك ، قال معاذ الله إنّه ربّى أحسن مثواى إنّه لا يفلح الظالمون .

---

(١) المصدر السابق ص ١٦٢ .

ولقد همَّت به وهمّ بها لولا أنْ رأى بُرهان ربِّه ، كذلك لنصرف عنه السُّوءَ والفحشاءَ إنَّه من عبادنا المخلصين . واستبقا الباب وقدَّت قميصه من دُبُرٍ ، وألفيا سيِّدها لدى الباب قالت ما جزاءُ من أراد بأهلك سوءاً إلَّا أنْ يسجن أو عذابٌ أليمٌ . قال هي راودتنى عن نفسى ، وشهد شاهدٌ من أهلها إنْ كانَ قميصه قُدَّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين . وإنْ كانَ قميصه قُدَّ من دُبرٍ فكذبتْ وهو من الصادقين . فلمَّا رأى قميصه قدَّ من دُبرٍ قال إنَّه من كيدكنَّ إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنَّك كنت من الخاطئين . وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراودُ فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنَّا لنراها فى ضلالٍ مبين . فلمَّا سمعت بمكرهنّ أرسلت إليهن وأعتدت لهُنّ مُتكأً وآتت كل واحدةٍ منهنَّ سكيناً وقالت اخرج عليهن فلمَّا رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلّا ملكٌ كريمٌ . قالت فذلكنَّ الذى لمتنَّنى فيه ، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمُرُه ليسجننَّ وليكونًا من الصَّاغرين . قال ربِّ السجن أحبُّ إلىَّ مما يدعوننى إليه وإلَّا تصرف عنِّى كيدهن أصبُ إليهِن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنَّه هو السميع العليم . ثم بَدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننَّه حتى حين .﴾[1]

جاء فى حديث الاسراء «**فمررت بيوسف وإذا هو قد أُعطى شطر الحسن**» . قال السهيلى وغيره من الأئمة : معناه إنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام ، لأن الله تعالى خلق آدم بيده

(١) سورة يوسف آيات ٢٢ ـ ٣٥ .

ونفخ فيه من روحه ، فكان فى غاية الحسن البشرى . ولهذا يدخل أهل الجنة ، الجنة على طول آدم وحُسنه . ويوسف كان على النصف من حسن آدم ، ولم يكن بينهما أحسن منهما .

وقال ابن مسعود : وكان وجه يوسف مثل البرق ، وكان إذا أتته امرأة لحاجة غطى وجهه . وقال غيره ، كان فى الغالب مبرقعًا لئلا يراه الناس . ولهذا لما قام ، عذرن امرأة العزيز فى محبتها لهذا المعنى المذكور ، وجرى لهن وعليهن ما جرى . من تقطيع أيديهن بجراح السكاكين . وما ركبهن من المهابة والدهشة عند رؤيته ومعاينته .[1]

وعن السبعة الأتقياء المذكورين فى الصحيحين عن خاتم الأنبياء يأتى حديث رسول الله ﷺ فيوضح ذلك :

«**سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلّا ظله .**» وذكر منهم «**ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله .**» .

وعن النبى ﷺ مررت بيوسف الليلة التى عرج بى إلى السماء فقلت لجبريل من هذا ؟ فقال : يوسف . فقيل يا رسول الله كيف رأيته ، قال **كالقمر ليلة البدر**[2] .

وقيل كان يوسف إذا سار فى أزقة مصر يُرى تلألؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس من الماء عليها .

● وقد فسَّر هَمّ يوسف بأنه حلّ الهميان وجلس منها مجلس المجامع وبأنه حلَّ تكة سراويله وقعد بين شعبها الأربع وهى مستلقية على

---

(١) قصص الأنبياء ابن كثير ص ٣٣٤ .
(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٢٥٣ .

قفاها . وفُسِّر البرهان بأنه سمع صوتاً : إياك وإياها . فلم يكترث له فسمعه ثانياً فلم يعمل به ، فسمع ثالثاً أعرض عنها فلم ينجع فيه حتى مُثّل له يعقوب عارضًا على أنملته ، وقيل ضرب بيده فى صدره فخرجت شهوته من أنامله .

يقول الزمخشرى فى رده على هذه الروايات المفتريات :

(ولو وجدت من يوسف عليه السلام أدنى زلة ، لنعيت عليه . وذكرت توبته واستغفاره كما نعيت على آدم زلته ، وعلى داود وعلى نوح وعلى أيوب وعلى ذى النون ، وذكرت توبتهم واستغفارهم ، كيف وقد أثنى عليه وسُمىَّ مخلصاً فعلم بالقطع أنه ثبت فى ذلك المقام وأنه جاهد نفسه مجاهدة أولى القوة ، والعزم ، ناظراً فى دليل التحريم ووجه القبح حتى استحق من الله الثناء فيما أنزل من كتب الأولين ثم فى القرآن الذى هو حجة على سائر كتبه ، ومصداق لها ، ولم يقتصر إلّا على استيفاء قصة وضرب سورة كاملة عليها ليجعله لسان صدق فى الآخرين وليقتدى به الصالحون إلى آخر الدهر فى العفة وطيب الإزار والتثبت فى مواقف العثار .

فأخزى الله أولئك فى إيرادهم ما يؤدى إلى ، أن يكون إنزال الله السورة فى القرآن العربى المبين ليقتدى بنبى من أنبياء الله فى القعود بين شعب الزانية ، وفى حل تكته للوقوع عليها ، وفى أن ينهاه ربه ثلاث كرات ويصاح به من عنده ثلاث صيحات بقوارع القرآن ، وبالتوبيخ العظيم ، وبالوعيد الشديد ، وبالتشبيه بالطائر الذى سقط ريشه حين سفد غير أنثاه ، وهو جاثم فى مربضه لا يتحلحل ولا ينتهى ولا ينتبه حتى يتداركه جبريل . ولو أن أوقح

الزناة وأشطرهم وأحدهم حدقة لقى بأدنى ما لقى به نبى الله مما ذكروا لما بقى له عرق ينبض ولا عضو يتحرك فياله من مذهب ما افحشه ومن ضلال ما أبينه)[1]

● ولقد جنح الخيال كثيراً فى هذا الموقف بالذات ، ذلك لأن القصة تحكى عن موقف تعرّض يوسف للفتنة والإغواء ، ذلك الموقف الذى عبرت عنه الآيات تعبيراً واضحاً ودقيقاً ، حتى أن ملابسات الفعل من إغواء واغراء وصد واعتصام .. قد صورت تصويراً لا يترك للخيال بعد ذلك فسحة للتخيل .. ولم يمر الموقف مروراً عابراً بل أخذ مساحته من القصة ، بحيث غطى تلك المحنة الهائلة التى واجهت يوسف ، المحنة التى أحكمت فيها امرأة العزيز خطتها ليقع الفتى فى شركها .. وربما كان إيراد الروايات الدالة على حسن جمال يوسف . من أسباب وقوع المرأة فى حبه وهواه ومن ثم محاولة إغرائه .. وكأن الجمال وحده هو المحرك للمرأة لأن تفعل . وكأن هذه الروايات تقدم لها العذر فيما أقدمت عليه .. فلا الجمال مثير بمفرده ، ولا الرغبة الجامحة يثيرها جمال ، أو قبح ، إنما هو نمط من السلوك تحكمه الدوافع القوية المتسلطة ونموذج من الشخصية الواقعة تحت أسر الجموح العاطفى ..

ولو كان الأمر بهذا التأويل الخيالى .. ما كان لعصمة الأنبياء من معنى ، وما كان للاصطفاء من مغزى وهدف ..

● وسورة يوسف مكية ، أفردت الحديث عن يوسف عليه

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٢٤٩/٢٥٠ .

السلام موضحة فى أسلوب سردى فذٍّ ما لقيه من ألوان البلاء والمحن ومن ضروب المعاناة والشدة .. فكانت المحنة الأولى له مع إخوته التى صاحبها احداث أدت به فى النهاية إلى بيت عزيز مصر حيث نشأ وتربى ـ لتأتى المحنة الثانية وهى موضوع درسنا ـ لتبرز الصراع بين امرأة العزيز وفتاها الذى تراوده عن نفسه ، وقد هيأت كل الأسباب ، وغلّقت كل الأبواب ، ولا منقذ من السقوط إلّا رحمة الله . وتمسك المحن بعضها بالبعض الآخر ، فيقع فى محنة ثالثة حيث سجن ظلماً على ما لم يفعل . وفى كل هذه المحن كانت عين الله تحرسه . وتعصمه ، وتؤازره حتى جاء الفرج ، وخرج من السجن عزيزاً مكرماً ، مبرءاً مما اتهم به ومكَّن الله له فى الأرض .

ولقد نزلت السورة فى فترة عصيبة من حياة الرسول ﷺ حين توالت الشدائد والنكبات عليه وعلى المؤمنين وخاصة بعدما فقد نصيريه : زوجته الطاهرة خديجة بنت خويلد رضى الله عنها وعمه أباطالب ، ولقد كانا خير نصير له وخير معين ، وبوفاتهما اشتد الأذى والبلاء حتى عرف هذا العام بعام الحزن .. وفى هذا الجو العصيب الحزين المليء بالغربة والوحشة ، والألم ، أنزل الله على رسوله هذه السورة تسرية له ، وإيناساً وتخفيفاً للألم ، ومؤازرة للنفس والعقيدة . فمن هذا الجو الحزين سينبثق الفرح حين يأتى فرج الله سبحانه ، وينتصر الحق على الظلم ، كما انتصر الله ليوسف ضد أعدائه ، ومكّن له فى ا س وجعله عزيزاً فى أرض مصر وملكه خزائنها .. فالقصة فى المعنى العميق تحمل البشر والأنس والطمأنينة ، وتؤازر كلَّ من يقف على طريق الحق ، متسلّحاً

بالعقيدة ، داعياً إلى التوحيد . متحملاً كافة ألوان الأذى من أجل هذا الهدف النبيل السامى ..

ولهذا الموقف النفسى الذى مر بمحمد وبالمسلمين فى بداية الدعوة ، جاءت السورة ذات وحدة واحدة ، ألقت بثقلها ، فطهرت المشاعر ، وآزرت الجموع ، واستلّت من النفوس بوادر الضعف وعلامات اليأس ، وأدخلت السامعين فى سياق الحركة التوحيدية واصطفاء الأنبياء لحمل هذه الرسالة للتصدى لجحافل الوثنية وغرس شجرة التوحيد الخالص لله .. ومن ثم كان نزولها فى هذا الوقت متلائماً مع الحركة التوحيدية ، ومع الحركة النفسية ، الأمر الذى جعلها لا تتكرر فى سور القرآن .. لقد قامت بدورها ، فى الإمتاع والمؤانسة وفى المؤازرة والمساندة ، وفى العظة والعبرة ، وفى إبراز مشاعر النفس المختلفة من حب وكراهية ، وحقد وحسد ، ولهفة وشوق ، وجموح واعتصام ، وغربة ووحشة .. وفرج ونصر .. مما يعطى لها تفرداً خاصاً فى مجال القصة القرآنية .

(وهذا الطابع الخاص يتناسب مع طبيعة القصة ، ويؤديها أداءً كاملاً ... ذلك أنها تبدأ برؤيا يوسف وتنتهى بتأويلها ، بحيث لا يلائمها أن تكون حلقة منها أو جملة حلقات فى سورة وتكون بقيتها فى سورة أخرى . وهذا الطابع كفل لها الأداء الكامل من جميع الوجوه)[1]

● ولنمض إلى هذا الموقف المشحون بالصراع .

---

(١) الظلال جـ ٤ ص ١٩٥١ .

● ها هى الأيام تتوالى على يوسف فى كنف عزيز مصر ورعايته ، ويشب الفتى ويخلع رداء الحداثة ويمضى قدماً إلى الشباب وفتائه ، قوى البدن ، وضىء الوجه ، عفيف البصر ، تقى القلب . لقد بلغ العمر الذى تلقى فيه الحكمة والتفقه فى الدين فأحسن الله إليه وآتاه من لدنه الحكمة والعلم .. ولكن الأيام لا تريد له الراحة والأمان ليتفرغ لرسالته ، فها هى امرأة العزيز قد شغلها أمر فتاها ، وقد نما وشب تحت عينيها ، شعرت المرأة المترفة بدبيب الحب ينبض فى العروق ، وبحسيس حسى يتمشى فى الداخل فيشغل قلبها ويحتويها .. ولم تصمد أمام جموح العاطفة ، ولم تلق بالاً إلى مكانتها ومنزلة زوجها ولم تراع الحرمة ، لقد شغلتها الغريزة ، فضاق صدرها ، وأجابت داعى الهوى الجامح ، وبدأت تنصب للفتى حبال الاغراء والمخادعة .. لمّحت ، وأشارت ، وشجعت ، وصرّحت ، ولكن الفتى الجميل ما كان ينظر إليها إلّا غاضاً ، وما كان يميل قلبه إليها ، أو تحدثه نفسه خاطراً ، وهو الذى نشأ فى كنف الرجل ، وتربَّى تحت يد المرأة ، وشملاه جميعاً بالرعاية ..

ولكن الأنثى وقد شب فى الداخل حريق الرغبة ، تضاعف هواها وهى تراه مُعرضاً عنها لا يبالى بما تشير أو تلمّح .. فلم يعد أمامها إلّا الفعل الحسى نفسه تلجأ إليه وتضع فتاها أمام الموقف الجامح . فهيأت نفسها جمالاً وزينة ، ونحت جانباً كل جوانب السلطان ، وأبدت عشقاً متصابياً . فغلقت الأبواب وأسدلت الستائر وتقدمت إليه قائلة فى صوت ينضح بالرغبة : لقد تهيأت لك ، فهلمّ إلى الفراش وأنت آمن فليس هناك من أحد تخشاه ..

.. ولكن يوسف النبي ولد يعقوب النبي ، ليس كأى فتى ، إنما هو المصطفى للرسالة والمحروس بعين الله .. وواجهها الفتى الجميل الحكيم مذكراً إياها بمكانته فى القصر وقال : معاذ الله أن أجيبك وأفعل السوء ، وأذعن إلى ما تطلبين من فحش ، وحاشاى أن أخون زوجك ، وهو السيد العزيز الذى أكرمنى وأحسن مثواى وإقامتى وتعهدنى بالرعاية فكيف أخونه فيك .. وإن كنت قد غلقت الأبواب فإن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وكيف تطاوعنى نفسى إلى هذا الإثم والمعصية . إنه لا يفلح الظالمون . وجنحت بها العاطفة ، واستشاط غضبها واستطار ، كيف للفتى أن يرفض ! ! وهى السيدة ، صاحبة الصول والطول ، وأنى له ذلك ، وهى تبدى وهو يرفض ، أهو إذلال ! أهو تمنع ! أم هى عفّة ولا تدرى ! ! وهمت به عن عزم وإصرار ، لقد عقدت العزم على الفاحشة ولن يصرفها عنها صارف ، وكأنما تقصد إلى إجباره قصداً . وأمام هذا الموقف الجانح حدثته نفسه بالنزول عند رغبتها ، ولم يكن الهم من الفتى إلّا حديث نفس فى موقف مأزوم .. ولكنه حديث ككل أحاديث النفس ، خالٍ من العزم والقصد . وأدركته عناية الله فأحس بإشراق النبوة ، وترقرق برهان الله على صفحة القلب ، فصرف الله عنه السوء وعصمه من الفحشاء والتبذل .. فهو المصطفى للرسالة ، ومثله لا تخدعه امرأة ، أو يغويه شيطان .. ورأت منه نية الهروب والبعد فجذبته فى شدة حتى مزقت ثوبه ، ولكنه يفلت من المكيدة ، ويمضى قدماً إلى الباب وهى تتبعه ، وما أن انتهى إلى الباب حتى وجد عزيز مصر ، ورب البيت واقفاً لدى

الباب ، وقد رآه مضطربا ، ممزّق الثوب . ولا تعدم الأنثى حيلة فى مثل هذه المواقف فبادرت زوجها قائلة : إن الفتى لم يرع حرمتك وقد حفظته ، ورغب فىّ وقد صنته .. فقل لى إذن : ما جزاء مثل هذا الفعل إلّا السجن ، أو إيقاع العذاب به ! وإذا كانت المرأة قد عادت إلى كيدها ولجأت إليه فإن يوسف التجأ إلى الصدق وإلى الصراحة ، فالموقف لا يحتاج إلّا إلى الصدق . قال يوسف للعزيز : هى التى راودتنى ، ودعتنى إلى مقارفة الفحشاء ، وجذبتنى ومزقت ثوبى ..

وكان يشهد الموقف قريبٌ لها وكان فيه ذكاء وفطنة ، فبادر القوم قائلاً : إن كان ثوبه قد مزّق من الخلف فهو والله صادق ، أما هى فتصبح كاذبة . وإن كان الثوب قد مزق من أمام فهى الصادقة ، وهو الكاذب .. وتطلع العزيز إلى يوسف فرأى قميصه ممزقاً من الخلف ، فوضح له الأمر وأدرك أن الأمر كله ناتج عن كيد النساء ومكرهن ، وطلب من يوسف أن يتكتم الأمر فلا يذكره لأحد .. وتوجه إلى امرأته ناهراً إياها طالباً منها الاستغفار والتوبة من هذا الفعل القبيح .

ولكن الخبر يشيع فى المدينة ، ويتطارح على الألسنة ، ويصل إلى النساء فيجعلن منه قصة ، وبدأن يرددن أن امرأة العزيز ، تطلب من فتاها وخادمها أن يواقعها ، بل وصل بها الأمر أن تتوسل إليه كى يقضى وطرها . لقد وقعت فى غرامه ، ونزلت عن عرشها ، وتلقت الصدمة عاتية حين وجدته زاهداً فيها . لقد شغفها حبا ، ووقعت أسيرة له ..

ووصلت الشائعة إلى امرأة العزيز وهالها ما سمعت ، لقد فُضحت بين الناس ولم يعد للنساء من حديث غير هذا الحب المتيم المفضوح . لقد نالها النساء بالسوء ، وتزيدن كطبيعتهن . فأرادت أن تجمعهن . فدعتهن إلى طعام وهيأت لهن متكآت وثيرة ، ومساند مريحة . وقدمت لهن الطعام والفاكهة ، وأعطت لكل واحدة منهن سكيناً ، لتقطع كل واحدة بها ما أمامها من حبات الفاكهة . وانتحت جانباً بيوسف . وطلبت منه أن يخرج عليهن وهن منشغلات بالطعام وتقطيع الفاكهة .. ولتمش يا يوسف بينهن فى أجمل زينة ، حتى تفاجئهن .. وفوجئن به بينهن قائماً كأجمل ما يكون إنسان ، فلما رأينه أكبرنه وأعظمنه ، وأصابتهن دهشة بالغة ، فما هو فتى كالفتيان ، فما أجمله ! وما أروعه ! وظلت العيون تحدق بالفتى على حين مشت السكاكين على الأكف تجرح وتقطع وهن مذهولات مندهشات .. وقلن فى صوت واحد وفى نغمة مندهشة واحدة ، سبحان الله .. إن هذا الجمال الفائق يليق بملك كريم .

وهنا تتقدم امرأة العزيز إليهن ، وهى تشعر بأنها انتصرت عليهن وهى ترى عيونهن تأكل الفتى ، رغبة ، وطمعاً ، ودهشة . وقالت امرأة العزيز لهن : إنه يوسف الذى أحبه والذى لمتنّنى فيه ، ولقد أثر فيكن فى لحظة رأيتنّه فيها . فما بالكم وهو معى أراه أمامى صباح مساء .. لقد شغفت به ، وأصدقكن أننى راودته عن نفسه فاستعصم وأعرض ، فأدمى الفؤاد ، وأصاب القلب .. وإن لم يطاوعنى ، ويفعل ما آمره به لأدفعن به إلى غيابات السجن

وظلماته ، يعانى الظلام والوحدة ، ويفنى بهاءه وجماله الأخاذ هذا ، حتى يصبح ذليلاً مهاناً .. وأبدت النسوة رأفة بحال المرأة ، فرغّبنه فيها ، وحاولن كسر التأبى الذى هو فيه . والتمنع الذى يصرف قلبه . حاولن أن يلنَّ قلبه ، ويثرن عاطفته ، ويثرن كوامن نفسه .. حتى بدا الموقف عصيباً ومثيراً .. فلم يملك يوسف إلّا أن يلتجىء إلى الله ، ضارعاً أن يصرف عنه هذا السوء . ويبعد عنه هذا الكيد الذى يمارسنه وينفثن فيه سحر الأنوثة وفتنة الرغبة .. والسجن آثر عندى وأحب إلى نفسى من اقتراف الفاحشة .. إنه بالرغم من ظلماته ، وجهامته .. ووحشته ، أقرب إلىّ وأميل إلى قلبى من تلك الدعوة الظالمة . فلتعصمنى يا ربى من شرهن وكيدهن .. فأنا بشر ، وبمقتضى بشريتى لن يعصمنى من الفاحشة إلّا أنت . واستجاب الله لضراعته فصرف عنه الكيد . ولما عجزت النسوة جميعهن .. فزعت المرأة إلى زوجها عزيز مصر قائلة له : إن يوسف قد فضحنى ، وافترى علىّ ، وأرى أن تسجنه فتشفى غيظى منه ، وتبرىء شرفى مما ناله من سوء . وانقاد الرجل إليها ، ودفع بيوسف إلى السجن ، مظلوماً ، وبريئاً .

• • •

وحين نعاود النظر مرة أخرى فى القصة ، ندرك أن كل المقولات التى وردت عن جمال يوسف ، أو عن تفسير الهم ، كلها مقولات خارجة عن جسم القصة ، ولا تلقى ظلالاً عليها ، أو تساعد على ادراك الموقف ، أوكشف غموض ، أو توضيح مبهم ، ذلك لأن الآيات القرآنية ، واضحة المعنى مفهومة الغرض

والدلالة ، خالية من أى غموض أو إبهام ، فضلاً عن أن الموقف القصصى قد اكتفى بذاته انطلاقاً من المنهج القرآنى فى السّرد القصصى وتأكيداً للغرض الدينى الذى يساق من أجله أى موقف قصصى . فنحن هنا لسنا أمام حكاية تدور حول امرأة وفتى ، وإنما نحن فى المقام الأول أمام نبى من أنبياء الله ، مرّ بمحن وتجارب ، وكان محروساً من الله ، معصوماً عن أى خطأ يرتكب ، فهو القدوة ، وهو المثل .. لأنه المصطفى لتحمل النبوة ، إنه صقل النفس ، وتقوية الارادة وتدريبها على الصبر ..

● وإذا كانت السورة تعرض للشخصية الرئيسية ، وهى شخصية يوسف .. بكل ما تنطوى عليه هذه الشخصية من أبعاد ومواقف ، وصراعات ، وتحولات .. فلقد عرضت بجانب هذه الشخصية المحور ، شخصيات فاعلة كان لها دورها الفعَّال فى حركة الأحداث ونموها .. وهذا الموقف القصصى الذى نحن بصدده يتناول شخصية المرأة .. فى غرائزها ورغباتها واندفاعاتها الأنثوية .. وهى فى حمأة الشهوة قد عميت عن كل شىء ، فلم تعد تحفل بالحياء الأنثوى الفطرى ، ولا بالكبرياء الذاتية ، ولا بالمركز الاجتماعى الذى توجد فيه ، ولا بالفعل الذى ينبىء عن فضيحة مزلزلة .. إنها مجرد امرأة ذات منصب وجمال تسعى إلى إرواء هواتفها الأنثوية .. ولم تكتف الآيات بتوضيح ذلك المعنى الانثوى ، ولكنها كشفت أيضاً عن نفسية المرأة المترفة ، ذات المنصب الرفيع والجمال الأخاذ ، الذى يدين له زوجها ــ ولها أيضاً ــ بالولاء والتبعية . ليصبح دلالة إشاريَّة إلى الطبقة المترفة التى خمدت فيها الغيرة والحمية فى مسائل العرض

والشرف ..

ولقد كان للمرأة تواجدها فى التعبير القرآنى ، ولقد اختلف ذلك التواجد باختلاف السياق ، والمغزى ، ونمط الشخصية ، فامرأة فرعون نموذج لقوة الإرادة ، وصفاء القلب ، فلقد رفضت الوثنية ، ورفضت زوجها وما يدين به ، وولت وجهها إلى الله سبحانه لتحدد توجهها الدينى والإيمانى ..

وتقف امرأة لوط على النقيض . حيث خانت دعوة النبى ولم تهتد بنور النبوة وكانت حرباً عليه مع الكافرين ، وكذلك امرأة نوح ..

وتتحول أم موسى إلى رمز للأم القلقة ، الحائرة ، المعذبة بفقدان الرضيع .. ويغلب عليها الفزع والخوف والاضطراب ، لو لا أن تدركها عناية الله ، فيتحول الخوف إلى طمأنينة ، والهلع إلى رضى بقضاء الله ، فيمتنع الطفل عن المراضع ليعود إلى أمه كرة أخرى وهى فى حال بين اليأس والرجاء ..

وفى سورة مريم يظهر لنا جانب من خصائص الأنوثة متمثلة فى عذراء طاهرة متبتلة ، انقطعت عن الدنيا ، واتجهت إلى الله .. ثم ها هى يتملكها الرعب إذ تجد نفسها فى خلوة مع الملك ـ الرجل .. فينبثق من داخلها مشاعر التقوى .

وينقلنا لفظ «المراودة» إلى حركة نفسية تصوِّر داخل الأنثى فى مناورتها للرجل ومخادعته له ..

ويرى الزمخشرى أن (المعنى : خادعته عن نفسه ، أى فعلت ما يفعل الخادع لصاحبه عن الشىء الذى لا يريد أن يخرجه من يده ،

يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه ، وهى عبارة عن التجمل لمواقعته إياها !)[1]

والمراودة فعل يحتاج إلى زمن .. مما يعنى أن ثمة تمهيداً واغراءً سبقا لحظة الفعل ، حيث ظلت امرأة العزيز تبدى للفتى زينتها يوماً بعد يوم لعلها تستثير فيه كوامن الغريزة .. ولكن الفتى يغض البصر ويهمل الأمر كله ، مما يسرع بالرغبة إلى ساحة الفعل الذى بدأت القصة بسرده . وهى المراودة للفعل نفسه بعد أن يئست من أساليب المخادعة والتزيّن الطويل .

.. ويسفر اللفظ عن المعنى .. فكلمة «هيت لك» وكلمة «غلقت الأبواب» . تتناميان مع دلالة لفظ المراودة .. فالتهيؤ يعنى وصول المرأة إلى قمة الرغبة . والقصد الحاسم إلى تحقيقها يعكسه لفظ الاغلاق .. فنحن هنا أمام لحظة حاسمة ، اهتاجت فيها رغبة الجسد ، فراودت المرأة ، وتهيأت وأغلقت الأبواب .

.. وهذه الدعوة الراشحة بفحيح الأنثى لا تكون أول دعوة من المرأة .. بل هى الدعوة الأخيرة .. دعوة الفعل نفسه .

ومع ذلك فإن اللفظ القرآنى ــ بالرغم من صراحته ووضوحه ــ إلّا أنه يتجمل فى نقل الحكاية ، تجملاً يشعر بالنظافة والاشارة الدالة .

ويساهم لفظ (الهَمّ) فى دفع الحدث إلى ذروة الفعل وعقدته .. ذلك أن نتيجة الهم سيترتب عليها أمور معضلة ، ومثيرة

---

(1) الكشاف جـ ٢ ص ٢٤٨ .

للجدل .

ولقد روت كتب التفاسير روايات أقرب إلى الأساطير التى لا يعقلها إنسان .. وخلاصة تلك الروايات توحى بأن يوسف عليه السلام ، كان هائج الغريزة ، شبق الحس ، مندفع الانفعال .. ولقد رأينا كيف ردَّ الزمخشرى على هذه الروايات ردًّا فيه كثير من التهكم والسخرية

لقد انهى «الهمّ» الموقف الطويل من الاغراء ، وهو تصوير واقعى صادق حالة النفس البشرية الصالحة فى المقاومة والضعف . ولكن السياق القرآنى لم يفصل تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة ، لأن المنهج القرآنى لا يريد أن يجعل من هذه اللحظة معرضاً يستغرق أكثر من مساحته فى محيط القصة ، وفى محيط الحياة البشرية المتكاملة .. وهو أقرب إلى الطبيعة البشرية وإلى العصمة النبوية .. والعرض القصصى يبلغ قمة الأداء الفنى .. ولقد كانت السورة خليقة أن تستر على يوسف أنه هم بها .. ولكن الله سبحانه يريد أن يقول لعباده أن يوسف إنسان ، يهم بالخطيئة شأن الإنسان ثم يرجع عنها شأن الصالحين ، وفى هذه العبارة القرآنية روعة فنية وكشف نفسى عميق حيث تجعل القارىء وهو يقرأ ويتدبر الموقف القصصى أنه أمام شخصيات تحيا وتعيش مثل حياة الناس وعيشهم ، ويهمون بالخطأ ويوشكون أن يقعوا فيه ثم يرتدون عنه [1] .

إن قصص الناس تغرينا أن نتشبه بهم حتى وإن كانوا أنبياء .

---

(١) السرد القصصى فى القرآن ثروت أباظة ص ٢٦ نهضة مصر .

والمراد من الهم ـ كما يرى الزمخشرى ـ أن نفسه مالت إلى المخالطة ونازعت إليها عن شهوة الشباب . ميلاً يشبه الهم والقصد إليه ـ وكما تقتضيه صورة تلك الحال التى تكاد تذهب بالعقول والعزائم وهو يكسر ما به ويرده بالنظر فى برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم . ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى همًّا لما كان صاحبه ممدوحاً عند الله بالامتناع ، لأن استعظام الصبر على الابتلاء على حسب عظم الابتلاء وشدته ولو كان همه كهمها عن عزيمة ، لما مدحه الله بأنه من عباده المخلصين[1]

.. وهذا يعطى للموقف القصصى قوة الفعل ، ويوحى بالصراع المشتجر ، ويكشف عن طبيعة هذا الصراع وعن مكوناته ودخائله .. ويجعلنا نتصور تلك المحنة الجديدة التى صمد فيها النبى الشاب وإن شمله إحساس بالمخالطة ...

ومن الألفاظ التى تساهم أيضاً فى كشف طبيعة الأنثى ، لفظ (الكيد) . فى قوله تعالى على لسان العزيز ﴿**إنه من كيدكن**﴾ .. وإذا كان الخطاب واقع فى حالة فردية إلّا أنه إشارة عامة للدلالة على طبيعة الجنس .. واستُعظم كيد النساء ، لأنهن ألطف حيلة وأنفذ كيداً ولهن فى ذلك وسائل وأساليب يغلبن فيها الرجال . وروى أن بعض العلماء أعلن أنه يخاف من النساء أكثر من خوفه من الشيطان لقوله تعالى ﴿**إن كيد الشيطان كان ضعيفاً**﴾ فى حين عظّم كيد النساء فقال تعالى : ﴿**إن كيدكن عظيم**﴾ .

.. والعبارة القرآنية كأنما تحمل حكماً جامعاً .. حكما أطلق فى

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٢٤٩ .

وجه النساء ولم يخصص فى المرأة الخائنة ، التى احتالت ، وكادت ، وسجنت ..

ويرى العقاد فى كتابه «المرأة فى القرآن» أن الكيد فى القرآن مذكور بمفاهيم متعددة . «أما الكيد الذى وصفت به امرأة العزيز وصاحباتها فهو كيد يعهد فى المرأة ولا ينسب إلى غيرها ، أو هو كيدهن الذى يتسمن به ، ويصدر من خلائقهن وطباعهن كما يفهم من الاضافة المتكررة ويدل عليه عمل امرأة العزيز فيما غشَّت به زوجها ، واحتالت له من مراودة غلامها عن نفسه ، ثم من اتهامه بمراودتها وتنصلها من فعلها» .

وكلها أعمال تتلخص فى (الرياء) أو فى إظهارها غير ما تبطنه ، واحتيالها للدس والاخفاء[1] . فالكيد الذى وصفت به المرأة فى القرآن يحمل مفهوماً خاصاً ينسجم مع طبيعة المرأة وتكوينها النفسى .. كما أن التهيؤ والتزين من طبائع المرأة ، فهى تتزين وتتهيأ لتعزز إرادة الغير فى طلبها .. وهى زينة كافية إذا راقت بمنظرها ، ومن ثم تصبح الزينة فى مثل هذه المواقف وسيلة للاغراء ..

وهكذا تعكس الألفاظ القرآنية دلالة الموقف القصصى ، فى أداء متحرك باهر .. أخاذ ، وتكشف عن شخصيات تمور بالحياة ، وتمتلىء بعواطف البشر .

والتجاء امرأة العزيز إلى النسوة اللائى أشعن الخبر وفضحن المرأة يندرج تحت هذا النوع من الكيد والمكر .. ولكنها ــ نفسياً ــ

---

(١) المعانى الثانية فى الأسلوب القرآنى ص ٢٩٩ .

التجأت إلى دعوتهن ، ومجالستهن وإطعامهن ـ واخراج يوسف عليهن فجأة ليثيرهن بجماله .. إنما فعلت ذلك لتبرير السلوك الذى أقدمت عليه .. وحتى لا يقوين على الانكار مما يساعد على اقتناص الاعتراف منهن بعدالة مسلكها ـ حسب وجهة النظر الخاصة .. وهذا ما حدث .. ويعتبر ذلك نفسياً .. تبريراً للسلوك .. والتبرير لا يعنى أن تكون التصرفات المسلكية معقولة ، وإنما يعنى أن نبرر السلوك حتى يبدو فى نظرنا معقولاً .. وهى من حيل الذات الدفاعية حتى يجنب الذات الإنسانية مغبة الاعتراف الحقيقى بدوافع السلوك ..

.. ولقد أبرزت أحداث القصة القرآنية الصراع بين الخير والشر والفضيلة والرذيلة ، وصوت الحق ومغريات الهوى .. فى اختيار حر وإرادة متحررة .

القصة الإشارية الرمزية

هذا نوع آخر من أنواع القصة القرآنية ، يختلف تماماً عن النوع المعروف والذى تحدثنا سابقاً عن بعض منه . فالقصص فى القرآن نوعان : نوع ورد فى القرآن الكريم انطلاقاً من قوله تعالى : ﴿**نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين**﴾[1] حيث تسرد القصة أخبار الأنبياء والرسل والأمم الغابرة . وذكر ما لقيه الرسل من تكذيب من أقوامهم ، ومدى صبرهم الهائل حتى تم لهم النصر على الأعداء الذين مُنوا بعذاب شديد من الله .

ولقد سيق هذا النوع من القصص لتحقيق أغراض دينية متعددة منها إبراز جوهر الرسالات السماوية الداعية إلى التوحيد الخالص وإفراد الله بالوحدانية .. فالدين كله من عند الله . والمؤمنون كلهم أمة واحدة .. والأنبياء سلسلة متماسكة منذ آدم حتى محمد ﷺ . ومن ثم وجدنا فى الآيات القرآنية ما يؤكد على الوحدانية والعبودية لله . وما من نبى إلّا وجاء بهذه الدعوة . قال تعالى : ﴿**لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنّى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم**﴾[2] وقال تعالى

---

(١) سورة يوسف آية ٣ .   (٢) سورة الأعراف آية ٥٩ .

﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بيّنة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذابٌ أليم﴾[1] وقال تعالى : **﴿وإلى عادٍ أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون﴾**[2] .. ونحن نلاحظ العبارة القرآنية المتكررة : **﴿اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾** قد وردت على لسان كل نبى تأكيداً على أن التوحيد أساس العقيدة «يشترك فيه جميع الأنبياء فى جميع الأديان وترد قصصهم مجتمعة فى هذا السياق لتأكيد ذلك الغرض الخاص»[3]

كما أبرزت القصة القرآنية وحدة الوسيلة إلى الدعوة . فوسائل الأنبياء والرسل فى دعوتهم أقوامهم إلى الإيمان بالله وخلوص العبادة له .. وسائل واحدة ، حيث يعرض الرسول دعوته على القوم داعياً إلى الإيمان بالله واحداً لا شريك له ، ثم يتبع ذلك بالتحذير من العناد والمكابرة التى يواجهها من القوم ، ويخوفهم عذاب يوم أليم . وتذكر القصة القرآنية فى سياق الدعوة أن طريقة الكافرين واحدة فى مواجهتهم للدعوة ، وتكذيبهم للرسل ، بداية من ادعائهم بأن الأنبياء بشرٌ لا يفضلونهم فى شىء ، وأن أتْباع الرسل إنما هم أراذل القوم . .. وهم لا يفضلونهم فى شىء ، ويبدى الرسل النصح مما يدعونهم إليه فهم يبلغون رسالة ربهم لا يبتغون أجراً ولا مغنماً ، ولكن القوم يعاندون ويتحدون الرسل فى صلافة المتجبر ،

---

(١) سورة الأعراف آية ٧٣ . (٢) سورة الأعراف آية ٦٥ .

(٣) التصوير الفنى ص ١٤٩ .

أنْ ينزل الله العقاب كما يقولون ..

ولقد ألمحنا إلى ذلك فى القصص التى أوردناها حول هود وشعيب وغيرهما ويرتبط بهذا الغرض غرض آخر ملازم له لأنه نتيجة له . إنه الغرض الذى يؤكد على مؤازرة الرسول وتثبيته فى مواقفه وطمأنة المؤمنين معه حيث تبين تلك القصص جميعاً مصارع الأقوام الذين كذبوا برسل الله ، وكذلك نصر الله لأنبيائه والمؤمنين به .

قال تعالى : ﴿**ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلّا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون . فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين**﴾[1] وقال تعالى : ﴿**وإلى مدين أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين**﴾[2]

.. وأغراض القصة القرآنية كثيرة ومتعددة ولكنها تستقى تنوعها من الغرض الدينى الكبير الذى سيقت من أجله وهو بيان وحدة الدين والرسالات ووحدة الوسائل ومؤازرة الرسول وتثبيته .

وهذا الجانب القصصى نزل به القرآن الكريم .

أما الجانب الآخر من القصص فقد نزل من أجله القرآن ، ذلك لأن الآيات القرآنية التى وردت فى هذا اللون إنما جاءت إشارات رامزة إلى قصص وأحداث قد وقعت للمسلمين تحتاج إلى

---

(١) سورة العنكبوت آية ١٥/١٤ .

(٢) سورة العنكبوت آية ٣٧/٣٦ .

القول الفصل ، وتنتظر نزول القرآن الكريم ليبين فيها الحكم والتشريع والعبرة والموعظة .. وكشف حقائق المواقف وأسرارها ، وهو من هذه الناحية يعتبر قصصاً إشارياً لموضوعات ذات أحداث ومواقف وقصص .

وهذا الجانب الإشارى فى القصة القرآنية ينقسم قسمين : قسم يتخذ الرمز محوراً للقصة . وهذا يتأتى فى القصص التاريخية التى جاء بها القرآن ، أما الجانب الاشارى الآخر فيختص بما وراء الآيات من مواقف قصصية حدثت للمسلمين أنفسهم .

وخير نموذج للنوع الأول من القصص الاشارى الرمزى . قصة (البقرة) .. التى وردت فى سورة (البقرة) والتى سميت باسمها .. ولا شك ان الاشارة كرمز إلى البقرة يعنى معنى عميقاً تدل عليه تلك الإشارة المتكررة «إن الإشارة هنا إلى محسوس خارجى ، ولكنها فى الدلالة تكتسب أهمية فى الحدث لأنها أصبحت بؤرته ومحوره . وتصبح العلاقة ليست علاقة تشابهية بقدر ما هى إدراك للمغزى الخفى»[1]

.. وتحكى الآيات القصة فتقول :

قال تعالى :

﴿وإذ قال موسى لقومه ، إنَّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة . قالوا أتتخذنا هُزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين . قالوا ادع لنا ربَّك يُبين لنا ما هى قال إنَّه يقول إنَّها بقرةٌ لا فارضٌ ولا بكرٌ عوانٌ

---

(١) الصورة الأدبية د . مصطفى ناصف ص ١٤٥ .

بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون . قالوا ادعُ لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنَّها بقرةٌ صفراء فاقعٌ لونها تَسُر الناظرين . قالوا ادع لنا ربَّك يبين لنا ما هى إنَّ البقر تشابه علينا وإنَّا إن شاءَ الله لمهتدون . قال إنَّه يقول إنَّها بقرةٌ لا ذلول تثير الأرض ولا تسْقى الحرث مسلَّمة لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون . وإذْ قتلتم نفساً فادَّارأتم فيها والله مخرجُ ما كنتم تكتمون . فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾[1]

● وهذه القصة الرمزية التى تدور حول رمز حيوانى وهو البقرة وردت فى كتب المفسرين على صور عديدة «ولكن هذه الصور كلها تلتقى على أمر واحد هو أن رجلاً غنياً من بنى اسرائيل ، لا ولد له ، فاستعجل وارثه قتله ليأخذ ماله ، وتظاهر بأنه يطالب بدم القتيل أو دية القتيل»[2]

ولقد تناولت الكتب الدينية جانبين من القصة . كل جانب يغطى موقفاً من القصة بحيث يتبدى لنا المعنى العميق وراء القصة . ويكشف لنا السر وراء رمز البقرة .

الأول وهو إحدى الصور التى وردت عن سبب حدوث القصة .

والثانى موقف حياتى يكمن وراء تعدد الصور التى وردت للبقرة بحيث تنطبق فى النهاية على بقرة اليتيم .

---

(١) سورة البقرة آية ٦٧ ــ ٧٣ .

(٢) القصص الرمزى فى القرآن الكريم . أحمد محمد جمال ص ١٢٥ .

● كان رجل من بنى إسرائيل مكثراً من المال وله إبنة واحدة ، كما أن له ابن أخ وحيدا ، فخطب ابن أخيه إليه ابنته فأبى أن يزوجه إياها لفقره وحاجته . وغضب الفتى واشتد غضبه حتى أقسم : والله لأقتلن عمى ، ولآخذن ماله ولأنكحن ابنته ولآكلن ديته . واحتال لذلك حيلة . فجاء إلى عمه ـ وقد قدم إلى المدينة تجار ببضائعهم وسلعهم ـ فقال يا عم . انطلق معى ، فخذ لى من تجارة هؤلاء القوم لعلى أصيب منها خيراً فإنهم إذا رأوك معى أعطونى . واستجاب العم لابن أخيه فانطلق معه إلى القافلة ليلاً ، وفى الطريق اغتاله الفتى ، ثم عاد إلى أهله ، فلما أصبح جاء يطلب عمه كأنه لا يدرى أين هو؟ ولما لم يجده عاد إلى المكان الذى طرحه فيه قتيلاً فوجد قوماً مجتمعين عليه ، وهنا تابع الفتى تنفيذ مكيدته فألقى تهمة قتل عمه على هذه الجماعة المحيطة بجثته ، وقال أنتم قتلتم عمى فأدوا إلىّ ديته ، وجعل يبكى وينادى واعماه .. ودفعهم إلى موسى عليه السلام ليقضى فيهم ، فقضى عليهم بالدية . ولكنهم أبوا وقالوا يا رسول الله ، إن ديته علينا لهيّنة ولكننا نستحى أن نعيَّر به ونحن أبرياء .. فادع لنا ربك مَن صاحبه فيؤخذ به . وسأل موسى ربَّه فاستجاب له ونزل جبريل يأمرهم بذبح البقرة[1]

وعن ابن عباس : كان رجل فى بنى إسرائيل كثير المال ، وكان شيخاً كبيراً وله بنو أخ ، وكانوا يتمنون موته ليرثوه ، فعمد أحدهم فقتله فى الليل وطرحه فى مجمع الطريق ، ويقال على باب رجل منهم . فلما أصبح الناس اختصموا فيه ، وجاء ابن أخيه فجعل

---

(١) القصص الرمزى ص ١٢٥/١٢٦ .

يصرخ ويتظلم فقالوا : مالكم تختصمون ولا تأتون نبيّ الله ، فجاء ابن أخيه فشكا أمر عمه إلى رسول الله موسى . فقال موسى عليه السلام .. أنشد الله رجلاً عنده علم من أمر هذا القتيل إلّا أعلمنا به ، فلم يكن عند أحد منهم علم منه . فسألوه أن يسأل فى هذه القضية ربّه عز وجل . فسأل ربه عز وجل فى ذلك ، فأمره الله أن يأمرهم بذبح البقرة ..[1]

● أما الجانب الثانى الذى يكمل بناء القصة ويكشف عن بعض معانيها المستترة فيتمثل فى أنه كان هناك ولد صالح بار بأبيه وكان يملك هذه البقرة الموصوفة بصفات لا تنطبق إلّا عليها ، فلما وجدها القوم المتخاصمون عنده ، ساوموه عليها بقرة ببقرة ولكنه أبى وظلوا يزايدون حتى عرضوا عشراً ولكنه فى كل مرة يرفض حتى أعطوه وزنها ذهباً .. وقيل وزنها عشر مرات .. فقبل .

● (وروى أنه كان فى بنى إسرائيل شيخ صالح له عجلة «بقرة» فأتى بها الغيضة وقال : اللهم إنى استودعكها لابنى حتى يكبر ، وكان برًّا بوالديه ، فشبَّت ، وكانت من أحسن البقر وأسمنه ، فساوموها اليتيم وأمه حتى اشتروها بملء مسكها ذهباً ، وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير)[2]

وعن رسول الله ﷺ : **«لو اعترضوا أدنى بقرة فذبحوها لكفتهم ، ولكن شددوا فشدد الله عليهم»** .

... ولندخل إلى القصة :

---

(١) قصص الأنبياء ص ١٢٨/١٢٩ .

(٢) الكشاف جـ ١ ص ٧٥ .

قتل الرجل الغنى من بني إسرائيل ، ولم يعرفوا قاتله الحقيقى ، فلم يجد القوم ملجأ إليهم إلّا موسى عليه السلام ، فذهبوا إليه يتحاكمون ويلتمسون عنده الحل وتوضيح ما خفى عليهم ..

ويسأل موسى ربَّه عن الأمر . وينقل إليهم المطلب الإلهى ..

.. يا قوم إن الله يأمركم بذبح بقرة .

ولكن القوم ، وقد أخذوا بظاهر اللفظ دون أن يدركوا مغزاه ، بادروا موسى فى استهزاء وسخرية ، كعادتهم دائماً مع أنبيائهم ، وقالوا ..

ـ أتهزأ بنا يا موسى .. وكأنما تسفّه عقولنا ! !

ولكن موسى يواجه القوم فى حلم وأناة ، صابراً عليهم ، فهو أعلم بطبعهم .

ويستعيذ بالله مما قالوه ، وتمادوا فيه .

ـ أعوذ بالله أن أكون مستهزئاً بكم ، فما هو طبعى وأنتم تعرفون

ويتدارك القوم الموقف ويتأدبون إلى حين مع نبيهم .

ـ إذن .. ما البقرة التى تريدنا أن نذبحها .. ما صفتها ؟ فالأمر مهم . والبقر كثير ..

ويقول موسى فى نبرة تحمل الدعوة إلى الطاعة وتنفيذ الأمر .

ـ إن البقرة المطلوبة تتصف بأنها وسط بين الكبر والصغر .. فدعوا اللجاج وكثرة السؤال ، ونفذوا ما يطلب منكم .

ولكن الطبع غالب ، فعاودوا السؤال فى إلحاف ، وأدخلوا أنفسهم فى دوامة الاستقصاء .. والاستقصاء شؤم[1]

---

(١) الكشاف جـ١ ص ٧٤ .

ـ يا موسى .. فلتبين لنا ما لونها .. أهي من جنس البقر ولونه ..
وكأنما لا يزالون فى أعماقهم يرفضون هذا النوع من الطلب ..
وعقولهم الضالة تصور لهم عدم ارتباط الأمر الجلل بالبقرة .. وكأنما
يقولون .. فلنمض معه إلى النهاية ، فإما نقتنع .. وإما ينتهى الأمر
كله .

ويخبرهم موسى باللون قائلاً :

ـ إنها بقرة صفراء شديدة الصفرة تسر بمنظرها من يراها ..
ووقع القوم فى حيرة ، وازداد عجبهم من الأمر .. فالبقر كثير واللون
ينتشر وليس محدداً على بقرة بعينها .. إن الأمر يثقل عليهم .. وعادوا
إليه بعد أن تعبوا من البحث .. وعاودوا السؤال بصيغته الأولى
ولكنهم أضافوا اعتذاراً جديداً .. فلعلهم أدركوا مدى اللجاجة التى
وقعوا فيها ..

ـ إننا فى حاجة إلى تحديد أكثر . فلا عمر البقرة كافٍ ولا
لونها .

ولقد تشابه علينا البقر .. ووقعنا فى حيرة ..

.. ولو أن القوم تعرضوا إلى بقرة ما فذبحوها كما جاء فى الحديث
لأجزأتهم . ولكن طابع التشكك أوقعهم فى دوامة الاستقصاء
فشدد الله عليهم .

وموسى عليه السلام يدرك ذلك ويتابعهم بعينه ، مدركاً هذا
الطبع المتشكك وهو وراءهم بتلك الوسيلة الحسية المشهودة
ليتعرفوا إلى الحق ..

وهو يعرف أن عقولهم قد ضلت وأنهم عجزوا عما وراء الرمز من

سرَّ .. وقال لهم دون أن يغضب أو يضجر .

ـ إنها بقرة ، لم تسخر لحرث الأرض ولا لسقاية الزرع .. مبرأة من العيوب ، ليس فيها لون يخالف لونها الأصفر الفاقع .. .. إنها صفراء كلها ..

واهتدى القوم إلى البقرة بعد بحث وتعب ، ووجدوها عند ذلك اليتيم الذى بارك الله فى بقرته فاشتروها منه بمال وافر[1]

وتوجهوا إلى موسى وقد قضوا على الحيرة التى تملكتهم وابتدروه قائلين :

ـ الآن جئت بالحق .. ووضحت تماماً ، بل ولقد اهتدينا إليها وانتهى الغموض الذى اكتنف الأمر كله ..

ثم ذبحوها وما كادوا يفعلون .. ذلك لأنهم وهم أمام الأمر الواقع شغلهم ـ وهم الماديون ـ هذا الذهب الباهظ الثمن لقاء تلك البقرة ، والذى ذهب إلى ذلك اليتيم .. كما شغلهم أمر الفضيحة .. فالذبح هو الكشف النهائى للسر الذى خفى وحاولوا أن يدفعوه ..

ويكشف موسى عليه السلام سر البقرة فيقول :

ـ اذكروا أيها القوم من بنى إسرائيل انكم قتلتم نفساً وتخاصمتم بشأنه ، وتدافعتم ، كل فريق يدفع التهمة عن نفسه وينسبها لغيره .. ولكن الله يفضح شأنكم ويخرج سرَّكم .. ويقف القوم حائرين خائبين المسعى وموسى يواصل .. حديثه ..

---

(١) قصص القرآن ص ١٣٩ .

ـ هيّا إلى البقرة المذبوحة .. فاضربوا القتيل بشىء منها فيحيا بإذن الله .. ويخبركم عن القاتل ..

وأسقط فى يد القوم .. حين رأوا الآية واضحة جلية ـ حيث نهض القتيل بعد ضربه فسأله موسى من قتلك ؟ قال : قتلنى إبن أخى ثم عاد ميتاً كما كان[1]

وهكذا رأى القوم بأعينهم دلائل قدرة الله على البعث والاحياء ليتفكروا ويتدبروا ويعلموا أن الله على كل شىء قدير[2]

● ● ●

وهذه القصة الرمزية القصيرة ذات دلالات متعددة .. فهى تدل على طبيعة بنى إسرائيل .. فقلوبهم منقطعة الصلة إلى الإيمان بالغيب والثقة بالله ، وعدم الاستجابة للتكاليف وتلمس الحجج ، والسخرية المنبعثة من سلاطة اللسان .

ولقد ضيق بنو إسرائيل على أنفسهم دائرة الاختيار وكانوا من الأمر فى سعة فأصبحوا مكلفين أن يبحثوا لا عن بقرة .. مجرد بقرة بل عن بقرة .. محددة الصفات ..

ولقد كشف الحوار هذه الطبيعة ، المتشككة ، الساخرة ، الرافضة ، الغليظة القلب ..

● كما تدل القصة فى معناها العميق الذى يأتى من وراء الرمز ـ البقرة ـ على قدرة الله ، وحقيقة البعث وطبيعة الموت والحياة .

ويتلاءم سياق الأداء القرآنى مع هذه النقلة الفكرية ـ الدينية ـ

---

(١) قصص الأنبياء ص ١٣٠ جـ ٢ .

(٢) صفوة التفاسير جـ ١ ص ٦٨ .

حيث تحول الأداء من سرد الحكاية ومواقفها المتناقضة ، إلى استخدام الخطاب ٨. الذى يتلاءم مع المواجهة والتحدى .. حيث كشف الخطاب عن الحكمة من ذبح البقرة .. وهو المعنى العميق وراء الرمز الإرشادى . حيث أظهر الله الحق على لسان القتيل ذاته . وكان ذبح البقرة وسيلة إلى إحيائه .

(إن البقر يذبح قرباناً كما كانت عادة بنى إسرائيل .. وبضعة من جسد ذبيح ترد بها الحياة إلى جسد قتيل . وما فى هذه البضعة حياة ولا قدرة على الإحياء . إنما هى مجرد وسيلة ظاهرة تكشف لهم عن قدرة الله . التى لا يعرف البشر كيف تعمل . فهم يشاهدون آثارها ولا يدركون كنهها ولا طريقتها فى العمل . ﴿**كذلك يحيى الله الموتى**﴾ [1]

... والقصة بدئت بداية تثير الشوق .. فثمة مجهول لا نعرفه ، وثمة ماديات حوارية تدور حول الظاهر ـ البقرة ، عمرها ، لونها ، حقيقة شكلها .

ولكن الباطن مغيّب .. ولن تسفر القصة عنه إلا فى سياقه الطبيعى ومكانته الدالة عليه .. وبين البدء والمنتهى يدور الحوار .. ولكن كما عوَّدنا المنهج القرآنى فى السرد ، فثمة فجوات كثيرة يستطيع الخيال البشرى أن يملأها بالتصور وهى فى جانب تصوّر طبيعة النبى الصابر على لجاجة القوم ، الحليم على سلوك يتسم بالشك والحذر ـ وطبيعة بنى إسرائيل الحائرة ، الشاكة ، المندهشة ،

---

(١) الظلال مجلد/١ ص ٨٠ .

الباحثة عن شيء مادى ليحلُّوا به شيئاً يكتنزه رمز البقرة ..

وفى النهاية تأتى المفاجأة ـ حاسمة ، جلية تكشف عن القاتل ، وتحمل العظة والعبرة عبر الرمز ، وعن طريق المشاهدات الحسية ، للتأكيد على الغرض الدينى وهو البعث والإحياء ..

يقول الزمخشرى فى هذا السياق .. سياق ترتيب القصة على هذا المنوال السياق . (فإن قلت : فما للقصة لم تقص على ترتيبها وكان حقها أن يقدَّم ذكر القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها . وأن يقال : وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه بها . (قلت) . كل ما قصّ من قصص بنى إسرائيل إنما قصّ تعديداً لما وُجِد منهم من الجنايات وتقريعا لهم عليها . وهاتان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع وإن كانتا متصلتين متحدتين . فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال . وما يتبع ذلك . والثانية للتقريع على قتل النفس المحرّمة وما يتبعه من الآية العظيمة . وإنما قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل لأنه لو عمل عكسه لكانت قصة واحدة ولذهب الغرض من تثنية التقريع) [1]

والقصة ذات موضوع . وهو قتل إنسان برىء من أجل أن يسلب القاتل ماله .. (فالقضية هى الطمع فى مال الغير واستعجال الإرث قبل أن يحين ميقاته بإزهاق الرُّوح وسفك الدماء ، وبهذا تكون الجريمة مضاعفة مغلظة .. والموضوع يحمل عبرة وهى أن الله

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٧٦ .

عزّ وجلّ بالمرصاد لكل ظالم . وهو آخذه مهما حاول من اختفاء واحتيال ، وفاضحه على رءوس الأشهاد)[1] .

ومن أجل إبراز ذلك كله جاءت القصة على طريقة المنهج القرآنى . فمن أجل توصيل هذا المعنى وإبرازه .. جاء التشويق ليمسك أنفاس أنظار القوم ويقبض على مشاعرهم الداخلية ..

(هذه الواقعة قتل النفس جرت قبل أمرهم بذبح البقرة وإن وردت فى الذكر بعده ، والسر فى ذلك : التشويق إلى معرفة السبب فى ذبح البقرة ، والتكرير فى التقريع والتوبيخ . قال العلامة أبوالسعود : وإنما غُيّر الترتيب لتكرير التوبيخ وتثنية التقريع فإن كل واحدٍ من قتل النفس المحرمة ، والاستهزاء بموسى عليه السلام والافتيات على أمره جناية عظيمة جديرة بأن تنعى عليهم)[2]

.. ومثل هذا النوع من القصص الاشارى الرمزى يتخذ الرمز الحسى أداة فعّالة فى مجريات الحدث .. يكمن وراءه الفكرة المجردة .. ذات المعنى العميق المستتر خلف الرمز .. (وهذا التخييل والتجسيم وعمق التصوير يساعد على تشكيل الفكرة المجردة تشكيلاً يتلاءم مع مدركات الإنسان ووجداناته)[3]

فالبقرة تجسيد لموقف قصصىٍّ محدّد استولدت منه أحكام وتشريعات .. والرمز هنا هو البنية الحية فى الحدث كله .. وهى على مستوى التشكيل الفنى أداته الفعَّالة . فكلمة البقرة نستطيع أن نقف عندها ونلم بهيكلها العام وصفاتها ، ولكن البقرة فى القصة

---

(1) القصص الرمزى ص ١٢٧ . (2) صفوة التفاسير جـ١ ص ٦٩ .
(3) المذاهب الأدبية د . نبيل راغب ص ١١٢ .

هنا .. ليست هذا الهيكل الخارجى فقط وإنما هى إشارة إلى معنى عميق يكمن خلف اللفظ ، ويحمل تشريعاً ويشى بقصة بشرية هامة .. فاللفظ هنا يستقطر عالماً كاملاً ، يجيش بالعواطف وأنماط السلوك الفاسد الذى يردعه العقاب . ولفظة البقرة فى دلالتها الخارجية ينضح على القصة نمطا من التعرف الشكلى الظاهرى على نوعية البقرة ، ولكن اللفظ ينتهى فى الواقع المادى بمجرد التعرف عليه .. لخلوصه من الشكل واقترابه من المعنى الذى رمز به إليه .. (فى الحياة العملية تنتهى قيمة الكلمة بمجرد التعرف على الشىء الذى تدل عليه[1] .. ولكنها هنا تظل قائمة وفاعلة بما تشعه من دلالات) .. ويحمل الرمز كثيراً من المعانى والمشاعر والأحكام وأنماط السلوك .. ومن ثم فهو وسيلة وظيفية فى كل فن عظيم .. ذلك أنه من سمات الأداء القرآنى فى القصة .. اتباع طريقة تصوير المعانى الذهنية والحالات النفسية فى صور حسية .. حتى لتبدو كأنها حاضرة شاخصة . وهذه الطريقة التعبيرية : تخاطب الحس والوجدان ، وتصل إلى النفس من منافذ شتى ومن الحواس بالتخييل ، ومن الحس عن طريق الحواس ، ومن الوجدان المنفعل بالأصداء والأضواء .. ويكون الذهن منفذاً واحداً من منافذها الكثيرة إلى النفس[2] .

وجو القصة مشبع بالخوارق .. التى تتمثل فى إحياء القتيل . وإعادة الحياة بعد الموت تؤلف الركن الأساسى فى بناء الإيمان حيث

---

(١) المذاهب الأدبية ص ١٠٧ .

(٢) التصوير الفنى ص ٢٤٢ .

تربطنا بفكرة البعث والحساب . وبابتعاد الإنسان عن هذه الفكرة الإيمانية تتوحش فيه المسالك ..

.. ومن ثم كثر ورود مشاهد البعث ، والاحياء بعد الموت لاحداث التأثير الإيمانى ، والمسلك التهذيبى فى النفس البشرية .

ولا شك أن القصة تكشف عن طبع يهودى ورث روح التمرد ، والنفاق . ودأب على الفتنة والدس . ومن ثم كان الخطاب الذى ينتقل به إلى تعليم المؤمنين طبيعة هؤلاء اليهود . وفضحهم أمامهم ﴿**أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعدما عقلوه وهم يعلمون**﴾ .

● أما الجانب الآخر من القصص الاشارى ، فهو الذى يرد فى القرآن فى أماكن كثيرة ، مشيراً فى السياق القرآنى إلى الأحداث والوقائع والقضايا والمشكلات كلتى جاء بها القرآن العظيم ليعطى فيها العبرة والموعظة أو الحل ، أو يكشف عن أصحابها من براءة أو خيانة ، وصدق أو كذب ، ووفاء أو غدر[1] .

وتتضمن هذه الآيات أيضًا عددًا وفيرًا من القصص والحكايات التى كانت وراء هذه الآيات ، سبباً لها وداعياً إلى نزول القرآن بها .. يتضمن تلك الاشارة إلى الفعل ـ الحدث ـ القصة ، ثم يعطى الحكم فى النهاية فى اقتضاب أو إطناب حسبما يتأتى السياق القرآنى ويتطلبه .

وهذا النوع يندرج تحت ما يسمى «بأسباب التنزيل» .. وفى

---

(١) القصص الرمزى ص ٧ .

هذا المجال فإن القرآن الكريم يساير الحوادث والوقائع فى حينها وينبه على الأخطاء فى وقتها (فإن ذلك أوقع فى النفس وأدعى إلى أخذ العظة والعبرة منها عن طريق الدرس العملى . فكلما جدَّ منهم جديد نزل من القرآن ما يناسبه وكلما حصل منهم خطأ أو إنحراف نزل القرآن بتعريفهم وتنبيههم إلى ما ينبغى اجتنابه ، ولطلب عمله ، ونبههم إلى مواطن الخطأ فى ذلك الوقت والحين[1]

.. وقصة «الثلاثة الذين خُلّفوا» تقع فى هذا الجانب الاشارى . ولقد وردت فى أواخر سورة التوبة . وسورة التوبة ترسم صورة كاملة لحركة المجتمع الاسلامى ، فى جهاده ضد المشركين وفى سعيه نحو إقامة مجتمع إسلامى منظم .. ولكنها ترصد الخلل الذى يعترى تلك الحركة الاسلامية التنظيمية ، من تعدد فى المستوى الإيمانى ، ومن أعراض السلوك النفسى كالشح بالنفس والمال من أجل الجهاد ، أو من نفاق يتلون بمشاعر الباطن والظاهر ، ومن تردد فى السعى إلى الجهاد ونكوص عن الواجبات والتكاليف .

قال تعالى :

﴿لقد تاب الله على النبىّ والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العُسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريقٍ منهم ثم تاب عليهم إنَّه بهم رءوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنُّوا أنْ لا ملجأ من الله إلَّا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إنَّ الله هو التواب

(١) التبيان فى علوم القرآن . محمد على الصابونى ص ٣٩/٣٨ .

الرحيم . يا أيُّها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين !﴾[1]

وجو النص القرآني يشير إلى الغزوة التي تخلف عنها البعض . تلك الغزوة التي أمر بها رسول الله ﷺ للجهاد ضد الروم وهي ما تسمى بغزوة «تبوك» . ولقد حض رسول الله أهل الغنى على النفقة على إعداد الجيش ، ومساعدة المجاهدين الذين لا يجدون وسائل الحرب من دواب أو زاد .. وأبرزت تلك الغزوة كثيراً من دواخل البشر ومشاعرهم ، وكشفت عن طبيعة الانفعالات التي لازمتهم . وبينت الصادق الإيمان من ضعيفه ، والمنافق من الصادق الوعد . والضعيف من القوي ، والمتردد من الساعي إلى الجهاد ..

(والعسْرة حالهم في غزوة تبوك . كانوا في عُسْرة من الظَّهر (الدواب) يعتقب العشرة على بعير واحد . وفي عسرة من الزاد . تزودوا التَّمر المدوّد ، والشعير المسوّس . وبلغت بهم الشدة أن اقتسم التمرة إثنان ، وربما مصّها الجماعة ليشربوا عليها الماء . وفي عسرة من الماء حتى نحروا الإبل واعتصروا فروثها ، وفي شدة زمان من حمَّارة القيظ ، ومن الجدب والقحط ، والضيقة الشديدة)[2]

ويمضي الرسول بجيشه في هذا الجو القائظ الحرارة ، وفي تلك العسرة التي كلت بالناس ، وتخلف من تخلف ، وأبطأ من أبطأ .. وأبرزت الغزوة نماذج بشرية تتسم بالإقدام ، أو التردد .

● عن أبي ذر الغفاري أن بعيره أبطأ به فحمل متاعه على ظهره واتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً ، فقال رسول الله لما رأى سواده .

---

(١) سورة التوبة آية ١١٧ - ١١٩ .

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ١٧٥ .

(كن أباذر . فقال الناس هو ذاك . فقال : رحم الله أباذر ، يمشى وحده ، ويموت وحده ويبعث وحده) .

● وأبوخيثمة رجع بعد أن سار رسول الله أياماً إلى أهله فى يوم حار . فبلغ بستانه ، وكانت له امرأة حسناء ، فرشت له فى الظل ، وبسطت له الحصير ، وقربت إليه الرّطب والماء البارد ، فنظر فقال : ظل ظليل ، ورطب يانع ، وماء بارد ، وامرأة حسناء ، ورسول الله ﷺ فى الضَّح (الشمس) والريح . ما هذا بخير . فقام فرحل ناقته ، وأخذ سيفه ورمحه ، ومرّ كالريح ، فمدّ رسول الله طرفه إلى الطريق فإذا براكب يزهاه السراب . فقال : **كن أبا خيثمة** فكانه . ففرح به رسول الله واستغفر له .

● ومن الذين لم يلحق برسول الله الثلاثة موضوع الآيات القرآنية .. وهم . كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن مرة .

ويحكى كعب بن مالك القصة فيقول :

«لم اتخلَّف عن رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها قطّ ، إلّا فى غزوة تبوك .. غير أنى قد تخلفت فى غزوة بدر ، ولم يُعاتب أحدٌ تخلَّف عنْهُ .

.. وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، أنّى لم أكن قط أقوى ، ولا أيسر منى حين تخلَّفت عنه فى تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة . ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلّا ورَّى[1] بغيرها حتى كانت تلك الغزوة . فغزاها رسول الله ﷺ فى حرّ

---

(١) ورَّى : أوهم الناس بغيرها .

شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ، ومفازاً[١] ، واستقبل عدداً كثيراً . فجلّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجههم الذى يريد . والمسلمون مع رسول الله كثير ولا يجمعهم كتابٌ حافظ (أى ديوان) .

قال كعب : فقلَّ رجلٌ يريد أن يتغيب إلا ظنّ ذلك سيخفى به ، ما لم ينزل به وحى من الله . وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، فأنا إليها أصعرُ[٢] .

فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه . وطفقت أغدو لكى أتجهز معه ، فأرجع ولم أقض شيئاً . وأقول فى نفسى أنا قادرٌ على ذلك إذا أردت . فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى استمر بالناس الجدُّ ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه . ولم أقض من جهازى شيئاً . ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً . فلم يزل ذلك يتمادى بى ، حتى أسرعوا وتفارط[٣] الغزو . فهممت أن أرتحل فأدركهم فياليتنى فعلت . ثم لم يقدَّر ذلك لى ، فطفقت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ﷺ ، يحزننى أنى لا أرى لى أسوة[٤] ، إلا رجلاً مغموصاً[٥] عليه فى النفاق أو رجلاً ممّن عذر الله تعالى من الضعفاء . ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك . فقال وهو جالس فى القوم بتبوك : **ما فعل كعب بن مالك ؟** فقال رجل من بنى سلمة : يا رسول الله حبسه برداه والنظر فى

---

(١) مفاز : أرض واسعة لا ماء فيها ولا عمارة .
(÷) أصعر : اختار الجلوس تحت الظلال .
(٣) تفارط : تقدم الجيش .
(٤) مثيل . .(٥) مغموص : مطعون فى دينه .

عِطفيه[1] . فقال معاذ بن جبلٍ رضيٍ الله عنه : بئس ما قلت . والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلّا خيراً . فسكت رسول الله ﷺ .

قال كعب : فلما بلغنى أن رسول الله ﷺ قد توجَّه قافلاً من تبوك ، حضرنى بثى[2] فطفقت اتذكر الكذب وأقول : بم أخرج من سخطه غداً واستعين على ذلك بكلِ ذى رأى من أهلى . فلما قيل : إن رسول الله ﷺ قد أظلَّ قادماً ، راح عنى الباطل حتى عرفت أنى لم أنج منه بشىء أبداً . فأجمعت صدقَة[3] .

وأصبح رسول الله ﷺ قادماً ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ، ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلَّفُون[4] يعتذرون إليه ويحلفون له . وكانوا بضعاً وثمانين رجلاً . فقبل منهم علانيتهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى حتى جئتُ .

فلما سلَّمت تبسَّم تبسُّم المغضب . ثم قال : **تعال** : فجئت أمشى حتى جلست بين يديه . فقال لى : **ما خلَّفك ؟ ألم تكن قد أتبعت ظهرك**[5] قلت : يا رسول الله إنى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر . لقد أعطيت جدلاً . ولكنى والله لقد علمت لئن حدّثتك اليوم حديث كاذب ترضى به عنىّ ، ليوشكن الله يسخطك علىَّ وإن حدثتك حديث صدق تجدُ[6] علىّ فيه . إنّى لأرجو فيه عُقبى[7] الله عزّ وجلّ .

---

(١) خيلاء . (٢) البث : أشد أنواع الحزن .
(٣) أجمعت صدقه : عزمت عليه وهيأت نفسى له .
(٤) الذين تخلفوا عن الذهاب إلى تبوك .
(٥) الظهر : الراحلة . (٦) تجد : تغضب .
(٧) يرجو حسن عاقبة الصدق .

والله ما كان لى من عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منّى حين تخلفتُ عنك . قال : فقال رسول الله ﷺ : **أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضى الله فيك .**

وسار رجال من بنى سلمة فاتبعونى ...

ثم قلت لهم : هل لقى هذا معى منْ أحد؟ قالوا : نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت ، وقيل لهما مثل ما قيل لك . قلت : من هما؟ قالوا : مرارة بين الربيع العمرى ، وهلال بن أمية الواقفىّ .

قال : فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدراً ، فيهما أسوةٌ ، ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا نحن الثلاثة من بين من تخلّف عنه .

قال : فاجتنبنا الناس . حتى تنكرت [1] لى فى نفسى الأرض فما هى بالأرض التى أعرف . فلبثنا على ذلك خمسين ليلة .

فأما صاحباى فاستكانا ، وقعدا فى بيوتهما يبكيان . وأما أنا فكنتُ أشبَّ القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج ، فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله ﷺ فأسلِّم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة . فأقول فى نفسى هل حرَّك شفتيه بردِّ السلام أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه وأسارقُه النظر . فإذا أقبلتُ على صلاتى نظر إلىّ ، وإذا التفت نحوه أعرض عنّى . حتى إذا طال ذلك علىّ من جفوة المسلمين ، مَشيت حتى تسورت

(١) تغيرت .

جدار حائط أبى قتادة وهو ابن عمى وأحب الناس إلىّ ، فسلمت عليه فوالله ما ردّ علىّ السلام .... ففاضت عيناى .. وتوليتُ حتى تسورت الجدار ..

فبينا أنا أمشى فى سوق المدينة إذا نبطىٌّ[1] من نبط أهل الشام ممّن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له إلىّ حتى جاءنى ، فدفع إلىّ كتاباً من ملك غسان ، وكنت كاتباً ، فقرأته فإذا فيه : أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان أو مضيعة . فالحق بنا نواسك . فقلت حين قرأتها : وهذه أيضاً من البلاء . فتيممت بها التّنور ، فسجرتها[2] . حتى إذا مضت أربعون من الخمسين ، واستلبث[3] الوحى ، إذا رسول يأتينى فقال : إن رسول الله ﷺ **يأمرك أن تعتزل امرأتك** ، فقلت : أطلقها ؟ أم ماذا أفعل ؟ فقال : **لا بل اعتزلها فلا تقربنّها** . وأرسل إلى صاحبىَّ بمثل ذلك : فقلت لامرأتى : الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر . وجاءت امرأة هلال بن أميّة رسول الله ﷺ فقالت له : يا رسول الله إن هلال بن ربيعة شيخ ضائع ، ليس له خادم ، فهل تكرهُ أن أخدمه ؟ قال : **لا ، ولكن لا يقربنك** . فقالت : إنه والله ما به من حركة إلى شىء ، ووالله مازال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا . فقال لى بعض أهلى : لو استأذنت رسول الله ﷺ فى امرأتك فقد أذن لامرأة

---

(١) فلاّح . (٢) أشعلتها .
(٣) أبطأ وتأخر .

هلال أن تخدمه ؟ فقلت لا استأذن فيها رسول الله ... فلبثت بذلك عشر ليالٍ فكمل لنا خمسون ليلة من حين نُهي عن كلامنا ، ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالسٌ على الحال التي ذكر الله تعالى منّا ، قد ضاقت عليّ نفسي ، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أوفى على سلعٍ [1] يقول بأعلى صوته يا كعب بن مالك أبشر ، فخررت ساجداً ، وعرفت أنه قد جاء فرجٌ ، فآذن [2] رسول الله ﷺ بتوبة الله عزّ وجلّ علينا حين صلى صلاة الفجر . فذهب الناس يبشروننا ، فذهب قبل صاحبيّ مبشرون ، وركض إلى رجلٌ فرساً ، وسعى ساعٍ من أسلم قِبلي وأوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس . فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني ، نزعت له ثوبي فكسوتهما إياه ببشراه . والله ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أتأمم [3] رسول الله ﷺ ، يتلقاني الناس فوجا فوجاً يهنئونني بالتوبة ويقولون لي ، لتهنك توبة الله عليك .

حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس ، فقام طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه يهرول حتى صافحني وهنأني . والله ما قام رجل من المهاجرين غيره ..

قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور : **أبشر بخير يوم مرّ عليك مُذ ولدتك أمك** .

---

(١) أشرف على جبل سلع ، وهو جبل بالمدينة .
(٢) أعلَم .   (٣) أقصد .

فقلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : **لا : بل من عند الله عزّ وجل** .

وكان رسول الله ﷺ إذا سُرّ ، استنار وجهه حتى كأن وجهه القمر، وكنا نعرف ذلك عنه. فلما جلست بين يديه قلت : يارسول الله إن من توبتى أن أنخلع [1] من مالى صدقةً إلى الله وإلى رسوله .

فقال رسول الله ﷺ : **أمسك** [2] **عليك بعض مالك فهو خير لك** .

فقلت : إنى أمسك سهمى الذى بخيبر ، وقلت : يا رسول الله إن الله تعالى إنما أنجانى بالصدق ، وإن من توبتى ألّا أحدثَ إلا صدقاً ما بقيت فوالله ماعلمت احدا من المسلمين ابلاه الله تعالى فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم احسن مما ابلانى [3] الله تعالى . والله ماتعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ الى يومى هذا ، وانى لأرجو ان يحفظنى الله تعالى فيما بقى .. قال : فأنزل الله تعالى ﴿**لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة**﴾ حتى بلغ : ﴿**انه بهم رءوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت**﴾ . حتى بلغ : ﴿**اتقوا الله وكونوا مع الصادقين**﴾ .

قال كعب : والله ما أنعم الله علىّ من نعمة قط بعد إذ هدانى الله للاسلام ، اعظم فى نفسى من صدقى رسول الله ﷺ [4] ..

---

(١) أتركه . (٢) أحبس/أبق .

(٣) المراد : أنعم علىّ وأكرمنى .

(٤) انظر صحيح البخارى المجلد الثانى (كتاب المغازى - باب غزوة تبوك ص ١٣٠ - ١٣٤) .

●● إن ورود قصة الثلاثة المخلفين فى هذا السياق الاشارى القصير، يعطى للنص القرآنى الكريم الأداء المميز الذى ترتقى فيه العبرة الى قصتها، انطلاقا من جو السورة الذى هو معرض رهيب لصور الجهاد والصراع النفسى المشتجر فى الذات. إنها صور لأنماط من البشر أثابهم الله، ثم تاب على البعض منهم بعدما أخذ جزاءه وعرف خطأه.

فلقد عرفنا نمطا من الناس باعوا الدنيا من أجل الدين، وتحملوا المشاق فى سبيل الجهاد ونصرة الحق. مثل ابى ذر الذى حمل متاعه على قلته وسار يدب فى الصحراء القائظة حين رأى بطئا فى راحلته، حتى يدرك رسول الله.

كما أرتنا نمطا من المترددين الذين وقعوا تحت سطوة صراع نفسى رهيب، بين الركون الى الراحة فى ظل البستان ونعيم المرأة وبين حرارة الصحراء ومشقة الجهاد. ولكن الإيمان يعلو على كل شىء، ويحسم الصراع فى صالح الايمان، ولينفضون عن انفسهم حلاوة التنعم، وينطلقون برواحلهم الى الجهاد واللحاق برسول الله ومن امثال هؤلاء ابوخيثمة.

وترينا آيات السياق الذى نحن بصدده نمطا آخر من البشر حرموا انفسهم من مرافقة الرسول، ومشاركتهم فى الجهاد، متلذذين بما لديهم من نعيم، ومتعللين بفسحة الوقت. والبحث عن راحلة، حتى غلبتهم الراحة فاستكانوا فى ظلها، فحرموا من متعة المرافقة، ومن جزاء الجهاد، وحل بهم ندم نفسى رهيب، وغضب كبير من الله ورسوله ومن المؤمنين.

ولعلنا نلاحظ من السرد القصصى الجميل الذى سرده كعب وهو يحكى عن موقفه .. تلك النبرة الصادقة فى الحكى ، بحيث رسم لنا صورة واضحة للشخصية المأزومة التى وقعت نتيجة فعل انفعالى سريع تحت أسر صراع رهيب يعتمل فى النفس .. ولقد توزعت قصته ناحيتان هامتان : الوصف النفسى لما حل به ، من ندم ، وأسف وهو يلاحظ العيون كل العيون تلاحقه بالتهمة والتقصير ، وكان غضب الرسول عليه ثقيلا لم يحتمله .. كما انه عبر بوضوح عن جانب نفسى آخر وهو «مراودة» النفس له بالجلوس .. والتلذذ بالراحة ، فهو فى عمقه النفسى يتمنى ان يبقى ، ولكنه فى الظاهر السلوكى ، يذهب ويجىء بحثا عن الراحلة متعللا بفسحة الوقت وطوله ، حتى غلبه فى النهاية الصوت العميق المستكين داخله والذى ظل يحركه هنا وهناك ، حتى بقى ولم يلحق بالمجاهدين .

ولقد عكست الالفاظ المصاحبة تلك المشاعر فى اضطرابها وتداخلها وتناميها ..

والناحية الثانية : هو الوصف الخارجى الذى جُوبه به من قبل الآخرين حتى بدا يومه ثقيلا ، وليله بطيئًا ، فالتهمة عالقة بكل العيون ، حتى من اقرب الناس اليه ، وينضاف الى هذا الهّم الثقيل الرسالة التى وصلته ، لتزيد من عذابه ، ولتمتحن مقدرته على الصمود .. انها شخصية مأساوية من الدرجة الأولى ، تضافر فيها الخارج والداخل ليرسما لنا هذه الشخصية الفذة فى دائرة الصراع المحكم الذى وقع فيه .

والآيات الاشارية التى تحمل تلك القصة ، لا تذكر شيئا عن

هؤلاء الثلاثة الذين خلفوا ، انطلاقا من المنهج القرآنى .. الذى لا يهتم بالشخص كشخص .. ولا بالمكان كمكان او الزمان كزمان . كما لم تبين لنا الموضوع الذى كان فيه التخلف ، أو الذنب الذى اقترفوه . واستحقوا عليه العقاب ثم التوبة ..

فالقضية هنا ليست «قضية أشخاص خطئوا فتابوا ، بمقدار ماهى قضية نظام إلهى ، يستهدف مجرد الردع عن مثل تلك الخطيئة ، وفتح ابواب التطهر من آثارها ، للذين امتحنوا بنظير ذلك الموقف»[1]

ومن ثم فإن ملازمة الايمان وتقوى الله ، تعتبران رادعا داخليا حيا يظل يشغل صاحبه حتى يهتدى الى الحق فى النهاية .. تلك التقوى التى تجعل المخطىء لا يلجأ إلا إلى الصدق والاقرار بالواقع الذى حدث .. راجيا ان يكون الصدق وسيلة الى رضى الله وعفوه . إنه الصدق الذى جعل صاحبه يعترف بخطئه امام الرسول وامام الأشهاد .. وهو الصدق الذى عامل به الناس هؤلاء حين امرهم الرسول بنبذ الثلاثة ومقاطعتهم .. والتزامهم بالأمر كله ، بالرغم من ان البعض فيهم كان أقرب الأقربين اليهم .. وهو درس اخلاقى ونفسى واجتماعى ، فيه عبير الوحى ، ورحيق التربية المحمدية التى قدمت للتاريخ نموذجا لكمال المسلم .. فى ضعفه وقوته ، وعلى المسلمين ان ينتفعوا بهذا الايحاء التربوى العظيم ليسيروا على المنهج الاسلامى ملتزمين به واضعينه امام اعينهم ، لتنظيم شئون الدولة والمجتمع الاسلامى .

---

(١) قصص وعبر ص ١٤٤ .

«وليتنا نأخذ بمبدأ المقاطعة الاجتماعية لكل مفسد لمصالح الدنيا ، وكل ملحد فى معالم الدين ، فليس منا .. كما هو منهج المدرسة القرآنية المحمدية .. الغشاشون والمحتكرون لأرزاق الناس ، وشاربو المسكرات ، والمعتدون على الأعراض والأموال والدماء[1]» وذلك يعنى تواصل الهدف والمغزى ليسرى فى كل أنشطة الحياة الاسلامية .

ولقد جاء البناء التعبيرى على قصره ، متساوقًا تساوقًا رائعا بين اللفظ والمعنى بين القالب والمحتوى ، وهو بعض من مواطن الاعجاز القرآنى فى الأداء الأسلوبى . (فهو محكم السرد ، دقيق السبك ، متين الأسلوب ، قوى الاتصال ، آخذ بعضه برقاب بعض فى سوره وآياته وجمله[2] .. متين النسج والسرد ، متآلف البدايات والنهايات .. مع خضوعه فى التأليف لعوامل خارجة عن مقدور البشر ، وهى وقائع الزمن واحداثه .. نزل مفرقا منجما ، ولكنه تم مترابطا محكما)[3] .

فالألفاظ التى صاحبت قصة الثلاثة تضئ ساحة المعانى وتكشف عنها ، وتوضح دخائلها ومكنوناتها ، وتبرز فى وضوح خلجات النفس التى حركتها الأحداث فى ايجاز محكم ، وإشارة موجزة ، فيتم التواصل المتنامى بين اللفظ والمعنى .

إن المفردة القرآنية ترسم صورة الموضوع رسما واضحا ، بما تحمله من جرس صوتى وبما توحيه من خيال ، وبما تثيره من انتباه ،

---

(١) القصص الرمزى ص ١١٢ .

(٢) التبيان فى علوم القرآن ص ٣٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٠ .

وبما تستدعيه من مدلولات حسية . إن كل مفردة تحمل معنى خاصا بها .. يترقرق كع موجة السياق القرآنى الرائق . فمفردة «التوبة» وردت اكثر من مرة على صغر الآيات وقلتها . فمرة جاءت بالفعل الماضى مسبوقة بالتوكيد (**لقد تاب**) لبيان رضى الله عن الذين تحملوا مشقة الجهاد . إنها لفظة فيها ايحاء بجلال التوبة . وهو نوع يستحقه الذين بادروا الى الجهاد .

وتأتى لفظة التوبة بالفعل الماضى مسبوقا بثم الدالة على التراخى لتعطى فسحة من الزمن بين توبتين . الثانية فيها أبطأ الزمن وثقل بطؤه على الثلاثة ، فوشت بدلالات ايحائية تصل الى المتلقى لترسم صورة نفسية للثلاثة الذين وقعوا تحت وطأة الزمن الطويل ، واكتووا بمرارته ، وحزنوا لبطء الرحمة والعفو . (**ثم تاب**) .

وأردفت المفردة بأخرى (**ليتوبوا**) ليحدث التلاصق بين الفعل الربانى والفعل البشرى ويختمها القرآن بكلمة «**التواب**» صيغة المبالغة من التوبة ، حيث النبع الالهى الذى يجب ألا يغفل المسلم عنه ابدا ..

وكذلك فإن العبارات القرآنية ، التى صاحبت السياق القرآنى ، كشفت عن الحالة العامة والخاصة التى كانت سائدة . فـ (**ساعة العسرة**) تعبير قوى يشى بالحالة العامة التى كانت قبل واثناء غزوة تبوك .. حتى ان الناس ـ كما يقول الزمخشرى وكما ورد فى كتب السيرة ـ كانوا يقتسمون التمرة الواحدة .. واللفظ يوحى بمعنى عميق وهو أن العسرة كشفت عن انماط معينة من البشر ، ومن الفعل .. فكأنما هى المدخل الحقيقى للأحداث كلها التى حدثت .

وجاءت عبارات ﴿**كاد يزيغ قلوب فريق منهم - ضاقت عليهم الأرض بما رحبت . ضاقت عليهم أنفسهم**﴾ لتكشف الصراع النفسى المشتجر داخل ذوات الثلاثة الذين خلفوا . فالأولى ترسم لنا صورة القلق والتردد والوسواس النفسى الذى شغل البعض .. وهو نوع يتضاد مع عمق الايمان الذى يجب أن يترسب فى نفس المسلم . والثانية توضح مدى القلق والحيرة الذى أصاب الثلاثة حتى بدت الدنيا على اتساعها فى أعينهم ضيقة وحملت العبارة التضاد بين (الرحب ـ الضيق) ليكشف الأزمة النفسية . فيقول الزمخشرى فى هذا المجال (وهو مثل للحيرة فى أمرهم كأنهم لا يجدون فيها مكانا يقرون فيه قلقا وجزعا مما هم فيه)[1] وتلتصق العبارة الثالثة بالثانية لتوضح المردود الخارجى على الذات ، حيث الضيق الذى صارت اليه نفوسهم ، والذى تستشعر منه الجو الخانق الذى شعروا به ، والضغط النفسى الذى عانوا منه ، والمجاهدة فى سبيل التخلص منه . حيث لا ملجأ لهم إلا الله . فقلوبهم (لا يسعها أنس ولا سرور لأنها حرجت من فرط الوحشة والغمّ)[2]

ويصبح الخروج من ذلك كله هو التقوى والصدق ، وهما مجمل الفضائل التى يحبها الله .

إن دراسة الاشارات النفسية والدينية فى القصة الاشارية يكشف عن علاقة الشعور الدينى بالعاطفة ، وارتباط الجانب العقيدى بالنفس ، لما تتضمنه القصة من إثارات متنوعة ، وتجارب

---

(١) الكشاف جـ٢ ص ١٧٦ .

(٢) المصدر السابق ص ١٧٦ .

دينية مختلفة .. كان الانسان محورها ، ومن دعوات سماوية استفزت مشاعر الداعين والمدعوين ، وتولد عنها صراع طويل بين الحق وأهله والباطل وناسه ، وكانت عين القصة تسجل وترصد وتؤازر الحق وأهله .

والقرآن الكريم من خلال هذه الاشارات القصصية الرامزة الى موقف ما ، أو حكم ما ، يتخذ أسلوبا حكيما ومعجزا ، من حيث التربية والتعليم ، والتغلغل الى داخل الذات البشرية بتلون مشاعرها ، وتضارب أهوائها ، وضبط حركة الفعل لديها .. وهو مايتنادى به علماء التربية وخبراء التعليم فى المدرسة التربوية الحديثة .

والقرآن بتلك الاشارات القصصية الرامزة يثير فى الفرد المسلم كوامنه الادراكية العاقلة فيجعله يواجه مشاكله المختلفة ، ويتصدى لها فى ضوء ما أبرزه القرآن من قيم وأحكام وتوجيهات ..[1]

---

(١) انظر مقالاً للمؤلف عن القصة الرمزية فى القرآن جريدة الندوة السعودية فى ١٨/٦/١٤٠٧هـ ١٨/١/١٩٨٧م .

قصة اليوم الآخر

كانت قضية التوحيد من القضايا الأصولية الأولى فى العقيدة الاسلامية وكانت الدعوة الى عبادة الله وحده لا شريك له ، بمثابة اقتلاع للعرب من جذورهم الوثنية . كما كان جوهر الرسالات السماوية الأخرى . والقرآن الكريم يقرر ذلك فى أكثر من آية .

قال تعالى ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول ، إلا نوحى إليه ، أنه لا إله انا فاعبدون**﴾[1]

ولكن كثيرا من الانحرافات والتحريفات «التى وقعت فى تصورات أتباع الرسل الى جانب طغيان الجاهليات على الديانات ، لم تبق فى الأرض كلها من تصور دينى صحيح إلا التصور الذى جاء به محمد ﷺ وحفظ الله أصوله ، فلم تمتد اليه يد التحريف ، ولم تطمسها كذلك الجاهليات التى طغت على حياة الناس .. ومن ثم أصبح التوحيد خاصية من خصائص هذا الدين»[2]

ولقد جاء الاسلام والعالم تخنقه الوثنية ، وتئده روح الأساطير والخرافة ، ووقع الانسان متخبطا فى الظلمات ، مابين فساد وانحلال وظلم وشقاء .

---

(١) سورة الأنبياء آية ٢٥ .

(٢) خصائص التصوير الإسلامى ص ٢١٤/٢١٥ . سيد قطب .

وكان الاسلام هو المخرج الى الهدى بعد الضلال ، واليقين بعد الحيرة ، والوحدة بعد التعدد . ولقد جاهد ﷺ سنين طويلة للدعوة الى عبادة الله وحده ، وتجنب الوثنية القاتلة ، التى أحاطت برقاب العرب وضمائرهم ، ولم يكن ذلك سهلا ، فإن تخرج قوما من ديانة أو ديانات تعودوا عليها سنين طويلة .. الى ديانة جديدة ، تدعوهم فيها الى الوحدانية ، أمر شاق يحتاج الى صبر وتحمل وحكمة من الداعى ، كما يحتاج الى إثارة الفطرة البشرية النقية وإزاحة ماعليها من ركام الوثنية ، والتوجه الى مظاهر القدرة فى الكون والانسان والحياة ..

ولقد تبع ذلك قضية على جانب كبير من الأهمية ترتبط ارتباطا وثيقا بقضية التوحيد . وهى قضية البعث والنشور ..

ولقد أنكر العرب هذه القضية انكارا تاما ، ولم يطاوعهم عقلهم على ادراك القضية ، وظل السؤال معلقا فى أذهانهم : مصاغا صياغة قرآنية معجزة تكشف هذا الجانب الإنكارى . قال تعالى ﴿**أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون . أو آباؤنا الأولون**﴾[1] .. وهذا الاستفهام الانكارى يعكس لنا طبيعة القوم وصدهم عن الدين . وانكارهم للبعث .. متصورين ـ انطلاقا من منطق وثنى مادى ـ أن الحياة حين تنتهى لن تعود .. وليس ثمة حياة أخرى .. لا بعث ، ولا قيامة ، ولا حساب ولا جزاء .. ويتبع القرآن الكريم هذا الموقف بالآية الحاسمة ، الدالة على البعث ووجود اليوم الآخر .. قال تعالى ﴿**قل إن الأولين والآخرين . لمجموعون الى**

---

(١) سورة الواقعة آية ٤٧ ـ ٤٨ .

ميقات يوم معلوم﴾[1]

ولقد عنى القرآن الكريم بمشاهد القيامة عناية أخذت جانبا كبيرا من السور القرآنية ، حيث البعث والحساب والنعيم والعذاب ، والرد على إنكار المنكرين ، فى نسق تعبيرى مصور يحيل الأمر الذهنى الى مشهد حي متحرك ، كما وضع الإطار القصصى كبديل تعبيرى مصور لقضية البعث والإحياء من جديد .. وضرب لذلك أمثلة توضيحية تقرب للناس قضية البعث بعد الموت .. ولقد رأينا ذلك فى قصة البقرة ، التى كانت وسيلة حسية بالغة الحسية فى كشف القاتل ، حيث ضرب المقتول ببعضها ، فهب واقفا وقد عادت اليه الحياة ، لقد أدت البقرة دورها فى إثبات الحياة بعد الموت . وما القيامة ، والنشور إلا مثل هذا القتيل الذى ضرب ببعض البقرة فعادت اليه الحياة[2] قال تعالى **﴿فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحى الله الموتى ، ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾** .

ولقد وردت مشاهد يوم القيامة والبعث فى ثوب قصصى وصفى يغلب عليه السرد الوصفى ، بحيث (يحس المتلقى للنص القصصى بالحركة والحياة تضطرب امامه من خلال الألفاظ والعبارات . وفوق ذلك ، نواجه فى العرض القصصى شخصيات نعرفها ، أو نعرف شيئا عنها ، تشارك فى أحداث تلك القصص التى هى أحداث اليوم الآخر . ذلك كشخصيات بعض الأنبياء والرسل والملائكة ، وهذا عامل مهم فى خلق اليقين بذلك اليوم والاقتناع

(١) سورة الواقعة آية ٤٩ ـ ٥٠ .

(٢) انظر فصل القصة الإشارية .

به[1])

إن الملاحظ فى عرض كثير من مشاهد يوم القيامة فى إطارها القصصى الوصفى أنها تجسد الواقع المغيب والمستقبلى فى نسق تعبيرى مصور ، نحس فيه ونحن نقرأ ونتابع المشهد بالصورة والحركة والايقاع والحياة المتلاطمة .

ولتأكيد معنى البعث ، والقيامة ، تكررت المشاهد فى كثير جدا من السور القرآنية وكل مشهد يتنامى ويتناسق مع السياق القرآنى وموضوع السورة . وهذا التكرار يتلاءم تماما مع منهج القرآن فى عرض الدعوة ، وتأكيد قضية البعث كقضية هامة وأساسية تتبع مباشرة قضية التوحيد .. ولقد جاء التكرار مواكبا لحركة الإنكار أولا ، ولتقييم السلوك وردعه ثانيا . ذلك أن العالم الآخر ومشاهده هو مكان للعقاب والثواب .. وتلك قضية أساسية فى المنهج القرآنى فى تقويم السلوك وتربية النفوس . والاسلام حريص على أن تظل هذه القضية حية متحركة ، تشغل قلب المسلم فيحسن القيام بمبادئ الدين والمعاملة ، وترسيخ قيمة هامة ، وهى قيمة المسئولية ، والاحساس بالمسئولية عن الفعل والقول ، ومن ثم فإن جانب الحرية والارادة البشرية وارد ومطلوب لأنه مناط كرامة الانسان ، وأحد عوامل مساءلته .

وإذا كان هذا التكرار واردا ومطلوبا لتأكيد القيمة التى ذكرناها ، فإن ذلك لا يعنى التماثل بالرغم من أن الأساس واحد

---

(١) القصص فى الحديث النبوى ص ٢٩١ .

والقضية واحدة . ولا يعنى الاطناب فى قضية عامة ترد باستمرار ، ولكنه التكرار المنفرد ـ إن صح التعبير ـ فهو تكرار للفكرة ، لكن السياق ينفرد فى وضعه فى كل سورة عن غيره فى سورة أخرى .. ذلك أن كل (مشهد يختلف عن سابقه فى كلياته أو جزئياته وذلك لون من الاعجاز . شبيه بالاعجاز فى خلق الملايين من الناس . كلهم ناس ، ولكن لكلٍّ سحنة وسمة[1] ؟)

وتعنى مشاهد القيامة بتصوير الهول فى ذلك اليوم ، وهو هول عام شامل لا يفوت منه شيء ، الكون كله بما فيه ومن فيه . حتى لتبدو كل المفردات حيّة شاخصة يدب فيها نوع من الحياة . وهذه المفردات التى تكون المشهد الحيّ قد تكون مفردات طبيعية ، كالشمس والنجوم والجبال .. وقد تكون نفوس البشر ، فى موقف الهول ، وقد تكون بين هذا وذاك .. ولكنها فى كل الأحوال تعكس فى إطارٍ قصص وصفى ذلك اليوم بما فيه من هول وخوف وعقاب وثواب ، وجنة ونار ، وجحيم ..

قال تعالى : ﴿**إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . خافضة رافعة . إذا رجَّت الأرض رجًّا . وبسّت الجبال بسًّا . فكانت هباءً منبثا .**﴾[2]

والمراد بالواقعة القيامة ، وسميت بذلك لأنها تقع لا محالة . وكل نفس حينئذ مؤمنة صادقة مصدقة ، وفى هذا اليوم ينخفض أقوام ويرتفع آخرون . وفى هذا اليوم تتحول مفردات الطبيعة

---

(١) مشاهد القيامة فى القرآن ص ١٠ .
(٢) سورة الواقعة آيات ١ ـ ٦ .

وتتبدل حيث تتحرك الأرض حركة شديدة حتى لتنهدم كل الأشياء فوقها من جبال شامخات لتتحول إلى غبار يتطاير فى الهواء . فالهول هنا عام وشامل .. يشمل السماء والأرض والحيوان والإنسان .. هذا الهول المادى المحسوس يلقى بأثره النفسى الهائل على الإنسان فى هذا الموقف العصيب . حيث تبرز المشاعر النفسية المضطربة والخوف الشامل .. وحتى ليتطارح الناس كالسكارى خوفاً ورعباً ، يفر كل منهم من الآخر ، الأب ، والابن ، والصاحب . فكل منهم به شاغله الذى يشغله ، وخوفه الذى يملأه ، ذلك اليوم الذى يجعل الأم رمز الحنان والعطف ذاهلة .. لا تدرى ما حولها ، ولا تلق بالا إلى رضيعها الصغير .. الكل خائف وجل . قال تعالى : ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم ، إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سُكارى وما هم بسكارى ، ولكنَّ عذاب الله شديد**﴾ .

وتصور المشاهد القرآنية لليوم الآخر بعد البعث والنشور . تصور النعيم والعذاب . وهذا النعيم والعذاب ، مصور تصويراً حسياً ، فيدركها المتلقى إدراكاً واعياً محسوساً ، يكون له النفاذ ، والتأثير .

وسورة الواقعة ـ كغيرها من السور ـ تعطينا هذا النموذج .. فثمة نعيم وعد به المؤمنون الصالحون ، نعيم الجنة المتمثلة بالسدر والطلح ، والظل ، والماء ، والفاكهة «وهو نعيم تتمتع به البطون والأجسام ، وتلتذه الجوارح والأبدان . ويدق النعيم والعذاب ويعمقان ، حتى ليغدوا ظلالاً نفسية رقيقة ، تنفرد بها النفوس أو

تنضح منها على الوجوه فى مثل هذه الصور للنعيم»[1]

قال تعالى : ﴿**وأصحابُ اليمين ما أصحاب اليمين . فى سدر مخضود . وطلح منضود . وظلّ ممدود . وماء مسكوب . وفاكهة كثيرة . لا مقطوعة ولا ممنوعة . وفرش مرفوعة . إنا أنشأناهنَّ إنشاءً . فجعلناهن أبكاراً . عُرباً أترابا .**﴾[2]

وأصحاب اليمين يتنعمون بهذا النعيم كله ، كما يتنعمون معه بالنساء .. وكل نعيم تبدل وتحول ، إنه ليس كما كان فى الحياة الدنيا ، فالنساء مثلاً خلقن خلقاً جديداً ... «ومعنى إنشاء النساء أن الله تعالى يخلقهن فى الجنة خلقاً آخر ، فى غاية الحسن بخلاف الدنيا ، حيث تصبح كل امرأة بكراً ، مهما آتاها زوجها ، متحببة لزوجها متوددة ، قال مجاهد : العاشقات لأزواجهن المتحببات لهن ، اللواتى يشتهين أزواجهن»[3] وهن مستويات فى السن مع أزواجهن .. كل ذلك نعيم يستمتع به أصحاب اليمين .

.. أما أصحاب الشمال فطعامهم زقوم وشرابهم حميم ، كلما شربوا منه ازدادوا عطشاً ، فهم كالإبل العطاش التى لا تروى لداء يصيبها ، إنهم مبتلون بريح حارة وماء مغلى ودخان أسود شديد السواد .

قال تعالى : ﴿**وأصحاب الشّمال ما أصحاب الشمال . فى سموم وحميم . وظلٌ من يحموم . لا باردٍ ولا كريم .**﴾[4]

وقال تعالى : ﴿**ثم إنكم أيها الضالون المكذبون . لآكلون من**

---

(١) مشاهد القيام ص ٥٣ . (٢) سورة الواقعة آيات ٣٧ ـ ٣٨ .

(٣) صفوة التفاسير جـ ٣ ص ٣٠٩ . (٤) سورة الواقعة آيات ٤١ ـ ٤٤ .

شجر من زقوم . فمالئون منها البطون . فشاربون عليه من الحميم . فشاربون شرب الهيم . هذا نزلهم يوم الدين﴾[1]

مشهد مخيف حافل بألوان العذاب المادية والحسية ، نحس به ماثلاً فى الموقف ، وفى اللفظ ، وفى الدلالة . وفى تناسق الجزئيات .. فالضلال يؤدى إلى الكفر والكفر يؤدى بصاحبه إلى النار .. وفى النار يصبح الطعام والشراب متلائمين مع جو الحرارة اللهيب ، فى هذا الجو الذى ينزف الجسد فيه عرقاً شديداً يصبح الميل إلى الشراب كثيراً ومستمراً ، ليستمر العذاب بشرب الماء الساخن المغلى ..

كما أن مشهد أصحاب اليمين يعكس طمأنينة النفس ، والتلذذ بالنعيم .. فثمة ألفاظ مادية تعكس نعيم النفس وباطنها الرضىّ ، وهى توحى بالظلال النفسية ، حين تؤكد على النعيم المادى .. فكأن ألفاظ النعيم المادية تعكس نعيم النفس الباطنية وقد رضى الله عنها .. فأدخلها الجنة ، ومتعها بالنعيم . إنها اللذائذ المادية ، التى توحى باللذائذ النفسية الداخلية .

والآيات الكريمة تتتابع فى إيقاع موسيقى أخاذ ، يعكس الجرس الصوتى فيه ، إيقاع الحركة المادية . ولعلنا نلاحظ حركة المدّ فى أواخر الآيات ، التى تستغرق حركة فى الزمن ، وكأنما تمدّ المعنى بنوع من الاستمرار والدوام .. كما أنها تعطى تأكيداً للمعنى وكذلك الآيات القصيرة ، التى تحمل ـ فى إيجاز ـ معانى عظيمة مترعة

---

(١) سورة القيامة آية ٥١ ـ ٥٦ .

بالأمل ، ومبشرة بالنعيم ، ومنذرة أيضاً بالويل والجحيم . وكذلك الالتفات من ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم ، لاسناد القدرة إلى الله ، وإسناد النعيم والرضى إليه .. ولإثارة كوامن الإنسان الراقية لترتقى إلى هذه المنزلة .

كما أن مشاهد القيامة تتضمن هذا الجدل الذى يشتجر بين المشركين وآلهتهم ..

«ومن أطرف مشاهد القيامة . ذلك الجدل العنيف الذى يقوم بين المشركين وآلهتهم أو بين المتبوعين وأتباعهم . وذلك السمر اللطيف الذى يدور بين المؤمنين والملائكة ، أو بين المؤمنين والمؤمنين»[1] إلى غير ذلك من أنواع الجدل والحوار ، وأنواع المشاهد ومقاصدها .

قال تعالى فى الموقف الأول :

﴿إذْ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعَوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا ، لو أنَّ لنا كرةً فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا . كذلك يريهم الله أعمالهم حسراتٍ عليهم ، وما هم بخارجين من النار .﴾

وقال تعالى فى الموقف الثانى :

﴿وأقبل بعضهم على بعضٍ يتساءلون . قالوا إنَّا كنَّا فى أهلنا مشفقين . فمنّ الله علينا ، ووقانا عذاب السّموم . إنا كنَّا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم﴾ .

---

(١) مشاهد القيامة ص ٥٦ .

.. ولنمض بعد هذا العرض إلى الوقوف فى تأمل أمام مشهد قصصى لليوم الآخر ، ورد طويلاً بحيث يبرز فيه الموقف القصصى الوصفى بروزاً واضحاً . ولقد ورد هذا المشهد فى سورة الأعراف .

قال تعالى :

﴿يا بنى آدم إمّا يأتينكم رسلٌ منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتّقى وأصلح فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون . فمن أظلم ممَّن افترى على الله كذباً أو كذّب بآياته ، أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلّوا عنّا وشهدوا على أنفسهم أنّهم كانوا كافرين . قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النَّار ، كُلّما دخلتْ أُمّة لعنت أختها حتّى إذا ادَّاركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربَّنا هؤلاء أضلُّونا فآتهم عذاباً ضعفا من النَّار ، قال لكلٍّ ضِعف ولكنْ لا تعلمون . وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا منْ فضْل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون . إنّ الذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السّماء ولا يدخلون الجنَّة حتى يلج الجملُ فى سمِّ الخياط وكذلك نجزى المجرمين . لهم من جهنم مهادٌ ومن فوقهم غواش وكذلك نجزى الظالمين .. والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً إلّا وسعها أولئك أصحاب الجنَّة هم فيها خالدون . ونزعنا ما فى صدورهم من غلّ تجرى من تحتهم الأنهار ، وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنَّا لنهتدى لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسلُ ربنا

بالحق ، ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون . ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربُّنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربُّكم حقاً ، قالوا نعم فأذَّن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين . الذين يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون . وبينهما حجابٌ وعلى الأعراف رجالٌ يعرفون كلًّا بسيماهُم ونادوا أصحاب الجنَّة أن سلامٌ عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون . وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النَّار قالوا ربَّنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون . أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمةٍ ادخلوا الجنَّة لا خوفٌ عليكم ولا أنتم تحزنون . ونادى أصحاب النَّار أصحاب الجنَّة أنْ أفيضوا علينا من الماء أو ممَّا رزقكم الله قالوا إنَّ الله حرَّمها على الكافرين . الذين اتَّخذوا دينهم لهواً ولعبا وغرَّتهم الحياة الدنيا ، فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون .﴾[1]

● وسورة الأعراف سورة مكية قررت أصول الدعوة وهو التوحيد . كما قررت البعث والجزاء . وذكرت قصة آدم عليه السلام وخروجه من الجنة بوسوسة الشيطان ، وهبوطه إلى الأرض ليبدأ الصراع البشرى بين الخير والشر والذى هو مناط الثواب والعقاب فى اليوم الآخر .

والسورة تعرض رحلة البشرية منذ نشأتها إلى نهايتها فى عرض قصصى مبهر ومن ثم جاءت قصص الأنبياء الذين دعوا أقوامهم إلى

---

(١) سورة الأعراف آيات ٣٥ ـ ٤١ .

التوحيد وعبادة الله بدءاً بنوح عليه السلام ومروراً بهود وصالح ولوط وشعيب وموسى حتى محمد ﷺ .. وهى فى هذا العرض لتلك الرحلة البشرية فى علاقتها مع الخير والشر، مع التوحيد والكفر، إنما تعرضها فى صورة معركة مع الجاهلية.

«ومن ثم فإنها تعرضها فى مشاهد ومواقف، وتواجه بهذه المشاهد والمواقف ناساً أحياء كانوا يواجهون هذا القرآن، فيواجههم هذا القرآن بتلك القصة الطويلة، ويخاطبهم بما فيها من خبر، مذكراً ومنذراً، ويخوض معهم معركة حقيقية حيّة ..»[1]

ومن أجل توصيل هذه العبر والعظات جاءت النداءات التى وجهها الله إلى بنى آدم ..

.. تلك النداءات المتتالية التى تحمل التأكيد على التوحيد والنبوة والتحذير من الشيطان الذى نشأ منذ البدء على عداوتهم وتضليلهم ﴿**يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطانُ كما أخرج أبويكم من الجنة ..**﴾.

● ولقد سميت السورة بسورة الأعراف لوجود ذكر اسم الأعراف فيها .. والأعراف هو السُّور المضروب بين الجنة والنار يحول بين أهلها .. أى بين أصحاب الجنة وأصحاب النار «روى ابن جرير عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف فقال : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فقعدت بهم سيئاتهم عن دخول الجنة، وتخلفت بهم حسناتهم عن دخول النار فوقفوا هنالك على

---

(١) الظلال مجلد/٣ ص ١٢٤٥ .

السور حتى يقضى الله فيهم ..»[1]

ومشهد القيامة الذى نحن بصدده يتناول فرقاً ثلاثة ، فرقة المؤمنين أصحاب الجنة ، وفرقة الكافرين أصحاب النار ، وفرقة ثالثة لم ترد إلّا فى هذه السورة وهم أصحاب الأعراف . والمشهد يوم القيامة على الحقيقة فلم يأت للتمثيل أو لمجرد التخييل .

والموضوع فى مشاهد القيامة موضوع دينى ذو «دلالات فكرية وخلقية وجمالية» . وهو من أصفى التصورات التى عرفتها البشرية لفكرة الجزاء فى الآخرة ، حيث تبرز الفكرة اتصال الحياة الدنيا بالآخرة إتصالاً وثيقاً بحيث تكون الآخرة هى الامتداد للدنيا بلا فواصل .

فالنفس البشرية تولد فى صورتها الحسية الجسمية على الأرض ، ثم تخوض التجربة الكبرى ، تجربة الحياة ، وتتطور فى أثناء هذه التجربة تطورات مختلفة ، بعضها صاعد وبعضها هابط ، وبعضها يتأرجح بين الصعود والهبوط .. حتى إذا تمت التجربة الأرضية كان التطور كذلك قد تم وأخذت النفس صورتها النهائية الصاعدة أو الهابطة ، وكان الجزاء بصورتيه هو التطور النهائى للحياة ، بما يناسب تطور النفس مع سماتها الأخيرة»[2]

.. ويبدأ المشهد الحى فى اليوم الآخر ـ كما ورد فى السورة ـ بنداء عام موجه إلى البشر ، وكأنما هو مدخل يربط أصول الدعوة بممارسات الإنسان وجزائه عليها .

---

(١) صفوة التفاسير جـ ١ ص ٤٣٥ .

(٢) منهج الفن الإسلامى ص ١٧٤ .

●● المدخـل :

جاءت دعوة الله إلى رسله ليبينوا للناس الأحكام والشرائع ، ويدعونهم إلى التوحيد والعمل بأحكام الله ، وعلى الناس أن يؤدوا دورهم وفق هذا التوجيه فمن أطاع الله واتقاه ، وصل إلى رضى الله ، وانتهت به رحلته إلى الأمن من الخوف والرضى من المصير. ومن يكابر ويعاند ويستكبر عن الإيمان فهم فى نار جهنم خالدين فيها أبداً .

●● الاحتضـار :

وها هم المكذبون بالله ، الذين افتروا على الله بالباطل أمام مشهد مهول ـ تقشعر منه الأبدان .. وها هم ملائكة الموت يقدمون فى رهبة ليقبضوا أرواحهم .

.. وهم فى موقف العاجز ، الذى لا يقوى على فعل شىء .. وهم التَّياهون فى الدنيا ، المستكبرون على أمر الله .. وتحاورهم الملائكة فى أسلوب ساخر يتسم بالتوبيخ والتبكيت .. يقولون .

ـ أنتم الآن فى اللحظة الحاسمة ، تسلب منكم الحياة ، عاجزين عن دفع شىء ، لا تجدون عاصماً من الموت .. فأين آلهتكم التى فتنتكم وأضلتكم .. وعبدتموها من دون الله ! !

واسقط فى أيدى الكفرة .. بماذا يجيبون ! ماذا يقولون فى هذا الموقف العصيب ! لقد ضاعوا وانتهى الأمر ، وحقت عليهم اللعنة ، واستحقوا الطرد من رحمة الله .. وجاء ردهم مبتسراً ، وشاهداً عليهم . قالوا ..

ـ غابوا عنَّا وتاهوا فلا نعرف لهم مقرّاً .

فما أضيع العباد الذين لا تهتدى إليهم آلهتهم ولا تسعفهم فى الموقف العصيب .. لقد أقروا واعترفوا فى هذا الموقف المروع بكفرهم وضلالهم .. ولم تخل مشاعرهم من الندم على مافات والتحسر على الدنيا التى كان يمكن أن يقطعوا رحلتها على غير ما فعلوا .. ولكنهم الآن فى انتظار البعث ليلقوا العقاب الشديد .

●● **البعث** :

وينتهى مشهد الاحتضار ويسجل الملائكة عليهم اعترافهم وندمهم واستحقاقهم للعذاب ، ونستقبل مشهد البعث حيث يوجدون فى النار عقاباً وعذاباً .. وتقف الآيات صامتة عن الفترة بين الموت والبعث .. فجوة كبيرة لا ندرى عنها شيئاً ، تأخذنا الآيات أخذاً متساوقاً إلى النهاية ، فلقد كانت البداية حياة ضالة ، ولقد كان موتهم اعترافاً بكفرهم فلم يبق إلّا الجزاء على الفعل .. وجاءت النقلة فى الزمان حيَّة ، مصوّرة تكشف عن المصير المؤلم للضالين المستكبرين ..

.. أما وقد اعترفتم بكفركم ، فادخلوا مع أمم أمثالكم ضلوا وفسدوا .. ويأتى النداء : انضموا إلى زملائكم وأوليائكم من الجن والانس .. واخلدوا فى نار جهنم .

وترد على النار الأمم الضالة ، والنار تلتهم جلودهم وتحصدهم حصداً .. وكلما وردت أمة من الأمم وحاق بها العذاب تصرخ لاعنة الأمة السابقة ..

.. فلتدخلوا إذن سابقين ولاحقين فكلكم أولياء وكلكم سواء ، فما اتعس نهايتكم وما أفظعها من نهاية .

●● **التلاعـن :**

وتلاحقت الأمم من الكفرة بعضها وراء بعض واستقر بهم المقام فى نار جهنم .. وتواصلت أجيال الكفر أمة أمة ، الأول بالآخر والقاصى بالدانى ، واشتد بينهم الخصام والجدل .. وبدأت كل أمة تلعن أختها ..

وقفت الأمة الأخيرة ، وقد ارتعدت من الهول ، متوجهة إلى ربها مبدية ندمها صارخة لاعنة قادتها ووثنيتها .. تستمطر عليهم العذاب ، وترجو الله أن يضاعف لهم العذاب .. ها هم يرجعون إليه فى اللحظة الحاسمة بعد أن كانوا يفترون عليه ويكذبون بآياته ..

ـ ربنا هؤلاء هم الذين أضلونا عن سبيلك وزينوا لنا طاعة الشيطان . ربنا ضاعف لهم العذاب ..

ويأتى الأمر واضحاً من قبل الله عز وجل .. وقد رأى موقفهم وتلاعنهم ..

ـ لكم ما طلبتم جميعاً من مضاعفة العذاب الذى تستحقونه .

وتنبرى الأمة الأولى ، أمة القادة والمتبوعين ، لترد على هذا القول الشامت ، بقول أكثر شماتة ، فيه من السخرية والعناد ما فيه ..

ـ لا فضل لكم علينا فى تخفيف العذاب ، فنحن متساوون فى العذاب لأننا متساوون فى الضلال .. فنحن كقادة ضللنا وأضللنا ، وأنتم كتابعين فلضلالكم وتقليدكم ..

إننا نتشفى فيكم فذوقوا العذاب بما أجرمتم .

●● **وينتهى هذا الموقف الساخر الأليم ، ليتبعه تقرير المصير**

لا يتبدل .. فالذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عن الإيمان وطاعته لا يصعد لهم عمل صالح[1] ولا تفتح لهم أبواب الجنة .. إن الأمر مقضى به ، ومن المستحيل أن ينعموا بنعيم الجنة .. إنهم كمثل من يحاول إبرار الجمل من ثقب الإبرة[2] ! فهل يقدر ؟ وهل يأملون ! فإلى أن يلج الجمل فى سم الخياط فهم فى نار جهنم خالدين فيها .. فراشهم نار ، واغطيتهم نار . وهذا جزاء كل من ظلم وتعدى حدود الله .

●● **المؤمنون :**

وبُعث الذين آمنوا وصدقوا برسله وعبدوا الله حق عبادته ، كل حسب طاقته وما فى وسعه .. وهؤلاء هم أصحاب الجنة ، جزاء إيمانهم وعبوديتهم . إنهم المستحقون لرضى الله ، وما أروعهم وهم يرفلون فى حلل السعادة .. لقد منّ الله عليهم .. فطهر قلوبهم من الحقد والحسد والبغضاء .. وسكنت قلوبهم المحبَّة والتعاطف والود .. وصدق فيهم قول الرسول ﷺ «**يدخلون الجنة وليس فى قلوب بعضهم على بعض غلٌّ**» .

إنهم ينعمون بجمال الجنة ونعيمها .. فالأنهار المليئة بالماء المصفى تجرى من تحتهم .. يرتوون ويغتسلون ، ويمتعون النظر ..

وفى هذا النعيم يتوجهون إلى الله سبحانه معترفين بالفضل مبتهلين

---

(١) قال ابن عباس : لا يرفع لهم عمل صالح ولا دعاء : صفوة التفاسير جـ ١ ص ٤٤٥ .

(٢) يرى سيد قطب رحمه الله أن الجمل هو الحبل الغليظ ، ذلك لأنه يتلاءم مع طريقة التصوير فى القرآن وتناسق أجزاء اللوحة ووحدة الجو فى النظر .. ذلك أن المعنى يتحقق والصورة تتناسق بهذا التفسير : أنظر « المشاهد » ص ١٠٤ .

إلى الله .. قائلين فى خشوع وطمأنينة :

ـ إننا نحمد الله على مننه ونعمه ، فلولا هداية الله وتوفيقه لنا ما كنا نعمنا بالجنة وما تحوى .. ولقد صدقنا رُسُلُ الله فيما أخبروا به عن الله عزّ وجلّ .. وآمنا به . وعبدناه .. فمن الله علينا .. وجعلنا من أصحاب الجنة ..

ويتصاعد من الأرجاء نداء رطب ندى .. نداء الملائكة إلى المؤمنين يزفون إليهم مشاركتهم فى فرحتهم . ويؤكدون أن الجنة التى حصلوا عليها إنما كانت بسبب العمل الصالح فى الدنيا[1] ..

●● التَّنَادى :

وتستمر المشاهد بعضها وراء بعض .. فلقد اطمأن أصحاب الجنة إلى دارهم واستيقن أصحاب النار من مصيرهم وإذا الأولون ينادون الآخرين يسألونهم عما وجدوه من وعد الله القديم[2]

يتوجه أصحاب الجنة إلى أصحاب النار قائلين فى فرح ، خاص بهم ، وفى سخرية من أصحاب النار .

ـ لقد وجدنا ما وعدنا به ربنا على ألسنة رسله من النعيم .. وجدناه حقاً وصدقاً .. ترى هل وجدتم ما وعد الله به الكافرين من خزى وعذاب .. هل وجدتم ذلك حقاً وصدقاً ؟[3]

ويجىء الجواب .. مكتسيا بالحزن والألم والندم .. يجىء فى

---

(١) قال القرطبى : ورثتم منازلها بعملكم ، ودخولكم إياها برحمة الله وفضله .

(٢) الظلال جـ ٣ ص ١٢٩٢ .

(٣) وإنما قالوا لهم ذلك اغتباطًا بحالهم ، وشماتة بأهل النار وزيادة فى غمهم ـ الكشاف جـ ٢ ص ٦٣ .

كلمة واحدة .. نعم .

ويقف المنادى بين الفريقين معلناً أن لعنة الله على الظالمين . الذين منعوا الناس فى الدنيا عن اتباع الحق .

●● أصحاب الأعراف :

وها هو السور العظيم الذى يقف فاصلاً بين الجنة والنار ، يقف حاجزاً بين أهل الجنة وأهل النار .. حتى يمنع وصول أصحاب النار إلى الجنة .. ووقف على السور رجال يعرفون أصحاب الجنة بسيماهم ، كما يعرفون أصحاب النار بسيماهم .. فأهل الجنة بيض الوجوه ، أما الآخرون فسود الوجوه[1] .. والمشهد ـ ساحة العرض الفسيحة ـ مشهد الأعراف .. واقف كالحاجز وكأنما هو نقطة مرور ، ويفرز عندها أهل الجنة من أهل النار ، ويوجه كل إلى مستقره .. يعرفون سمات كلا الفريقين فيستقر كل فريق فى مستقره .. ويشيِّعون كل واحد بما يستحقه ..

ويتوجه هؤلاء إلى أصحاب الجنة بالترحيب والسلام وإلى أصحاب النار بالتبكيت والايلام[2]

ـ أيها المؤمنون أصحاب الجنة .. سلام عليكم .. وأهلاً بكم .. ويتقدم أهل الجنة .. بعد هذا الترحيب .. ويتلفتون لفتة حذرة .. إلى أهل النار ، وما يقاسونه من عذاب وألم .. فاستغاثوا بربهم .. أن يبعدهم عن هذا العذاب ، وينعم عليهم بنعيم الجنة التى ما كانوا يطمعون فيها لولا رحمة ربهم ..

---

(١) قال قتادة : يعرفون أهل النار بسواد وجوههم . وأهل الجنة ببياض وجوههم .
(٢) المشاهد ص ١٠٦ .

يمضى المؤمنون إلى الجنة فرحين مستبشرين ، يرحب بهم أصحاب الأعراف .. على حين يتوجه رجال الأعراف إلى الكافرين الظالمين .. أهل النار .. مبكتين لهم ، ساخرين منهم ..

– هل نفعكم جمع المال ؟ .. وكنزه ! هل نفعكم استكباركم عن الإيمان .. هل آزرتكم آلهتكم التى عبدتم من دون الله ! أم هل أسعفكم قادتكم الذين اتبعتموهم ..

انظروا .. إلى المؤمنين أصحاب الجنة .. أليس هؤلاء المؤمنون الضعفاء الذين كنتم تسخرون منهم فى الدنيا ، وتؤكدون أن الله لن يدخلهم الجنة ! .. ها هم الآن يدخلون أمام ناظريكم إلى الجنة .. يدخلونها بسلام غير خائفين ولا محزونين .. فلتطب لكم الحياة يا أصحاب الجنة ..

●● الاستغاثة :

استقر الظالمون فى نار جهنم ، واحسوا بالبلاء الشديد ، واشتد بهم العطش من حرارة النار .. وصدر منهم صوت ممتلىء بالرجاء والذلة والاستجداء صوت صادر من أهل النار إلى أهل الجنة ..

– أفيضوا علينا من الماء .. فلقد بلغ بنا العطش مداه .. واشتد بنا الجوع .. اعطونا من أشربة الجنة ، وتفضلوا علينا بأطعمتكم .. ويأتيهم الجواب واضحاً وحاسماً ..

– إنكم ممنوعون من شراب الجنة وطعامها .. وأنتم تستحقون ذلك .. فلقد هزئتم من دين الله وجعلتموه سخرية ولعباً .. وخدعتكم الزخارف العاجلة والشهوات القاتلة .. وفى هذا اليوم الحاسم أنتم متروكون فى العذاب .. لا شفيع ولا نصير .. كما تركتم

العمل الصالح فى الدنيا حين كفرتم بالله ولم تؤمنوا به ..

• • •

ويتوالى هذا الموقف الطويل مشهداً وراء مشهد .. يجىء ويذهب .. يختصر الزمان كله منذ البدء إلى المنتهى . الزمان فى حركة دائبة .. طوى الزمان كله ، وتداعت الأحداث ممتزجة بين الحياة والبعث .. فالاتصال قائم والامتداد بينهما موصول .. وهذا التراوح بين الزمن الماضى ـ الحياة الدنيا ـ والزمن الآنى ـ البعث والحساب .. يكشف لنا فى صورة كاملة هذا النمط من الحياة التى عاشها كلٌّ من أصحاب الجنة وأصحاب النار .. إن رجعة الزمن دليل ومبرر على حضور الوقت وآنية الزمن .. والفعل حدث فى زمن ، والإيمان ـ العمل صالح مسلك زمنى فى إطار مكانى . والكفر ـ الضلال والظلم مسلك زمنى فى إطار مكانى أيضاً .. ولكنهما فى البعث توحدا ، فالزمان دائم مستمر لا رجعة فيه بعد الحساب .. والمكان مستمر ومتوحد ومحدد .

وهذه الرحلة الطويلة فى عالم الغيب المشهود رحلة تعكس حركة الحياة كلها .. منذ بدء الخلق إلى البعث والنشور ..

ولقد عنى القرآن بمشاهد القيامة . البعث والحساب ، والنعيم والعذاب فلم يعد ذلك العالم الآخر الذى وعده الناس بعد هذا العالم الحاضر ، موصوفاً فحسب ، بل عاد مصوراً محسوساً ، وحيا متحركاً ، وبارزاً شاخصاً ، وعاش المسلمون فى هذا العالم عيشة كاملة .. رأوا مشاهده ، وتأثروا بها ، وخفقت قلوبهم تارة ، واقشعرت جلودهم تارة ، وسرى فى نفوسهم الفزع مرة ، وعاودهم

الاطمئنان أخرى ، ولفحهم من النار شواظ ، ورفّ إليهم من الجنة نسيم ، ومن ثم باتوا يعرفون هذا العالم تمام المعرفة قبل اليوم الموعود . هذا العالم بسيط كل البساطة ، واضح وضوح العقيدة الاسلامية ، موت وبعث ، ونعيم وعذاب . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم الجنة بما فيها من نعيم ، وأما الذين كفروا وكذبوا بلقاء الله ، فلهم النار بما فيها من جحيم ، ولا شفاعة هناك ، ولا فدية من العذاب ، ولا اختلال قيد شعرة فى ميزان العدالة الدقيق .. وهذه الحقيقة البسيطة الواضحة تعرض فى صور شتى وترتسم فى عالم كامل ، حافل بالمشاهد ، وتتراءى عشرات من الأوضاع والأشكال والسمات ، وتؤلف بذلك ملاحم فنية رائعة ، تتملاها النفس ، ويتابعها الخيال ، ويستغرق فيها الحس ، وتتراءى فيها الظلال ، وتضيف إلى الثروة الأدبية صفحات مفردة لا شبيه لها ولا مثال [١] .

---

(١) مشاهد القيامة فى القرآن ص ٤٢ ـ ٤٣ .

القصة الوعظية

إذا كانت القصة القرآنية تاريخاً لحركة الدعوة الدينية ومسيرتها فى الحياة ، وإذا كان عبء هذه الدعوة قد قام به الرسل والأنبياء .. فى مجالات الصراع بين الحق والباطل ، فثمة قصص أخرى لم يكن أبطالها أنبياء وإنما كانوا أفراداً عاديين ، ولم يكن الغرض الدينى منها هو إثبات التوحيد والدعوة إلى الوحدانية ، وإنما الهدف هو إبراز العظة الدينية والدعوة إلى التضحية فى سبيل الله ، والدعوة إلى التحمل والجهاد .

هذا النوع نستطيع أن نطلق عليه القصة الوعظية .. بحيث تأتى فى السياق القصصى بالقدر الذى يبلغ العظة ويوصلها إلى المتلقين ، حتى يتواصل التأثير . وهو القدر الذى يتفق مع الغرض الدينى ..

«قال صاحب الشهاب : ويتناول القرآن الكريم قصص الأنبياء والمرسلين ويذكر طرفاً من معجزاتهم . ومن المقرر أنه ليس الغرض من ذلك استقراء الوقائع ، ولا تحديد الأزمان ، ولا تناول الظروف والملابسات ، ولا تسجيل مجرد للحوادث والأشخاص ، ولا البحث التاريخى الاصطلاحى والفنى ، وإنما الغرض من ذلك الهداية والعظة والعبرة ، وتقرير قواعد هذه الهداية فى النفوس بذكر القصص وعرض وقائعها أمام السامعين والقارئين والقرآن الكريم

يصرح بهذا فى وضوح .[1]

والقصة الوعظية نجدها فى قصص أصحاب الأخدود ، وأهل الكهف والذى مر على قرية .. وأصحاب الجنتين .. وهى قصص تتضمن التضحية فى سبيل الايمان ، والاستشهاد من أجل اليقين .. كما فى قصتى الأخدود والكهف وهى من هذه الناحية عظة لكل جبار يصد عن دين الله ، ويسوم الناس البلاء والعذاب .. ذلك لأن مصيره النار والعذاب الشديد ، كما أنها فى هذا المجال تعطى النموذج الطيب لمسلمى مكة ، حتى يصمدوا أمام جبابرة مكة وظالميها .. وفيها تسرية عن المسلمين الذين يقع عليهم ظلم الجاهلين من مكة .. فضلاً عن أن حركة الدعوة تؤكد على سقوط كثير من الشهداء من أجلها .. وكأنما الحركة متصلة ..

.. أما قصة الذى مرّ على قرية ، فهى تدل فى وعظية واضحة على التأكيد على البعث والنشور وهو لب دعوة التوحيد وأحد أصوله الكبرى .. ولقد سيقت الموعظة فى صورة قصصية مجسمة أوصلت الهدف الدينى فى وسيلة حسّية سردية مؤثرة . أما أصحاب الجنة .. وقد وردت فيما سبق عن القصة المثل .. فهى هنا تأتى لإبراز العظة والعبرة فى مجال السلوك البشرى الذى يجب أن يتعالى على الغرور والجحود بنعم الله ..

● ولنأخذ فى هذا المجال .. قصة أصحاب الأخدود . وقصة الذى مرّ على قرية .. والقصة الأولى وردت فى إشارة موجزة .. فى

---

(١) نظرات فى القرآن . محمد الغزالى ص ١٢٢ دار الكتب الحديثة .

سورة البروج ..

قال تعالى : **﴿والسماء ذات البروج . واليوم الموعود . وشاهدٍ ومشهود . قُتل أصحابُ الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلَّا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شىء شهيد . إنَّ الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثمّ لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جناتٌ تجرى من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير﴾**[١]

والقصة القرآنية ــ كطبيعتها الفنية ــ أشارت إلى أصحاب الأخدود .. مجرد إشارة ، دون الاهتمام بالتفصيلات ، أو توضيح القصة ، وأشخاصها ، وملابساتها .. إنطلاقاً من أن القصة لا تهدف إلى سرد حكائى فقط وإنما تخترق القصة كلها إلى لبّها ومغزاها .. وغرضها الدينى . ولكن القصة وردت مفصلة فى كتب الصحاح ، والتفاسير .. وتنوعت القصص واختلفت ولكن المغزى واحد ..

● روى عن النبى ﷺ أنه كان لبعض الملوك ساحرٌ ، فلمَّا كبر ضمّ إليه غلاماً ليعلمه السحر . وكان فى طريق الغلام راهبٌ ، فسمع منه . فرأى فى طريقه ذات يوم دابة قد حبست الناس . فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان الراهب أحب إليك من الساحر فاقتلها . فقتلها . فكان الغلام بعد ذلك يبرىء الأكمه والأبرص ويشفى من الأدواء . وعمى جليس للملك فأبرأه . وأبصره الملك

---

(١) سورة البروج آيات ١ ــ ١١ .

فسأله فقال : من رد عليك بصرك ؟ فغضب فعذبه . فدل على الغلام . فعذبه فدل على الراهب . فلم يرجع الراهب عن دينه . فقدَّ بالمنشار . وأبى الغلام فذهب به إلى جبل ليطرح من ذروته . فدعا . فرجف بالقوم فطاحوا ونجا . فذهبوا به إلى البحر ليغرقوه . فدعا . فانكفأت بهم السفينة فغرقوا . ونجا . فقال للملك لست بقاتلي حتى تجمع الناس فى صعيد وتصلبنى على جزع ، وتأخذ سهما من كنانتى وتقول بسم الله ربّ الغلام ، ثم ترمينى به فرماه . فوقع فى صدغه . فوضع يده عليه ومات . فقال الناس آمنا بربّ الغلام . فقيل للملك نزل بك ما كنت تحذر .

فأمر بأخاديد فى أفواه السكك ، وأوقدت فيها النيران . فمن لم يرجع منهم طرحه فيها . حتى جاءت امرأة معها صبى فتقاعست أن تقع فيها . فقال الصبى : يا أماه اصبرى فإنك على الحق . فاقتحمت .[1] .

● وقيل وفد إلى نجران رجل ممّن كان على دين عيسى عليه السلام فدعاهم فأجابوه . فسار إليهم ذونواس اليهودى بجنود من حمير ، فخيرهم بين النار واليهودية . فأبوا ، فأحرق منهم اثنى عشر ألفا فى الأخاديد .. وذكر أن طول الأخدود أربعون ذراعاً وعرضه اثنا عشر ذراعاً .

.. ولا شك أن ما ورد عن رسول الله قد أوضح لنا القصة

---

(١) الكشاف جـ ٤ ص ٢٠٠ ، ووردت مفصلة وطويلة فى كتاب جمع الفوائد . الجامع لكتب السنة المطهرة : جمع محمد بن سليمان الروداني المغربى جـ ٢ ص ٣٨١/٣٨٢ وكذلك البخارى .

وحدّد معالمها وأشخاصها .. وهو ما سكت عنه القرآن ..

والقصة موقف من مواقف التضحية والفداء . وهى تحث على الاهتداء بنور الله والالتزام بما أوحى به والاعتقاد بأن الفلاح والنجاة فى التمسك بالعقيدة . والقصة تتحدث أيضاً عن قضية الالتزام اليقينى بالعقيدة الدينية السمحة . والتمسك بها ، وإن كلف ذلك التضحية والشهادة .. ولا شك أن تكرار نماذج التضحية يؤدى إلى ترسيخ العقيدة فى نفوس المسلمين .. فتستقر فى وجداناتهم .. وتلك قضية ذات أهمية بالغة بالنسبة لما كان يواجهه المسلمون من مشكلات إزاء تمسكهم بالدين .

● والقصة وردت فى سورة البروج .. وهى سورة مكية .. تتعرض لحقائق العقيدة الاسلامية .. والمحور الذى تدور عليه السورة هى حادثة «أصحاب الأخدود» وهى قصة التضحية فى سبيل العقيدة .. كما أن القصة كما وردت فى الحديث توضح جانبين هامين : أن الغلام المؤمن الذى تحدى الملك أقدم على التضحية لتعرية الملك وأتباعه . وإقناع من آمن بقوة العقيدة . وأيضاً إبراز الشخصية الظالمة المتمثلة فى الملك الطاغى ، وهى شخصية يسرى الظلم فى دمها ، وبها شهوة قوية فى الانتقام ممّن لم يسمعوا كلمته ، أو يدينوا بدينه . «ويأتى الموقف المشحون بكل معانى الانتقام لدى الملك ، التى فجرتها فى كيانه مواقفه الفاشلة فى صد هذا التيار المتدفق بالصحوة والإيمان . فإذا به ينتقم من المؤمنين بخد الأخاديد فى أفواه السكك ، وإضرام النيران فيها ، وإلقاء المؤمنين فى أحضان اللهب المتصاعد ! »[1]

---

(١) القصص فى الحديث النبوى ص ١٧٧ .

والسورة بدئت بالقسم . والقسم من المؤكدات . والتأكيد هنا لإبراز القدرة الإلهية . ولقد أقسم الله سبحانه بمنازل السماء ، وبيوم القيامة وبالأنبياء الشاهدين على أممهم على استحقاق أصحاب الأخدود للطرد واللعن من رحمة الله . ويصحب هذا التأكيد تشويق . فيثور فى الذهن : ومن أصحاب الأخدود؟ ولماذا استحقوا هذا العذاب؟ لابد أنهم ارتكبوا جرماً خطيراً . وفى التشويق إثارة لحواس الإنسان .

وبناء الفعل للمجهول يعطى دلالتين : دلالة وقوع العذاب والطرد من الرحمة . ودلالة التشويق وحب الاستطلاع لمعرفة هذا المجهول .. وهو الذى وضحه رسول الله فى حديثه .

ولقد ورد المشهد مركزاً غاية التركيز ، فها هم يحفرون ويوسعون فى الحفر وكلما حفروا ، كلما قست قلوبهم وانطوت على غلّ شديد ، للمؤمنين الذين سيلقى بهم فى الأخاديد . وها هى النيران مشتعلة .. والقوم يريدون أن يروا نتائج حسية مشهودة . كى يتلذذوا بإحراق المؤمنين ، فجلسوا حول النار وتحلقوا حافة الأخاديد ليشهدوا هذا الفعل الشنيع ..

ولك أن تتخيل الفجوة هنا وهى فجوة تصور مشهد المؤمنين وهم مُساقون إلى مصيرهم وكلهم ثبات ، وكانوا كلما عُرضوا على نار الأخدود استهزأوا بهم لثباتهم على العقيدة . وفجوة أخرى تصور مشهد الكفرة وهم يطلبون من المؤمنين الرجوع عن الدين .. ولك أن تتصور وسائل الترغيب والترهيب بما يتلوها من تلون فى حركة الوجوه وملامحها وذلك لصرفهم عن العقيدة . ولكنهم يفشلون ،

حيث يستقبل المؤمنون النار كما لو كانوا يستقبلون روضة من رياض الجنة .

إن قصة أصحاب الأخدود علاوة على أنها نموذج للتضحية بالنفس من أجل العقيدة . فهى أيضاً وعيد للكافرين وتسرية للمؤمنين ، وتوضيح أن التحريق البشع هو مصير الطغاة أنفسهم .. على حين ينعم المؤمنون برضى الله وبالفوز بالجنة .

يقول سيد قطب : «كذلك تنتهى رواية الحادث وقد ملأت القلب بالروعة . روعة الإيمان المستعلى على الفتنة ، والعقيدة المنتصرة على الحياة ، والانطلاق المتجرد من أوهاق الجسم وجاذبية الأرض . فقد كان فى مكنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم فى مقابل الهزيمة لإيمانهم . ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم فى الدنيا قبل الآخرة ! وكم كانت البشرية كلها تخسر ! كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير . معنى زهادة الحياة بلا عقيدة ، وبشاعتها بلا حرية . وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد ، إنه معنى كريم جداً ومعنى كبير جداً هذا الذى ربحوه وهم بعد فى الأرض ، ربحوه وهم يجدون مسّ النار فتحترق أجسادهم ، وينتصر هذا المعنى الكريم الذى تزكيه النار ! وبعد ذلك لهم عند ربهم حساب ، ولأعدائهم الطاغين حساب»[1] .

● أما القصة الثانية وهى قصة الذى مرّ على مدينة .. فهى تتناول قضية الموت والاحياء .. ولقد صيغت فى صورة حسية مشخصة

---

(١) الظلال جـ ٦ ص ٣٨٧٤ .

يتخللها الحوار والجدل لإثبات قدرة الله سبحانه على البعث بعد البلى والفناء كقدرته جلّ وعلا على الخلق من عدم .. وهى فكرة أساسية فى التصور الإسلامى لقضية التوحيد والبعث .. وهى دليل محسوس عيانى .. على تجسيد القضية تجسيداً واضحاً .

وإذا كانت ملابسات القصة وظروفها ، قد حدثت فى زمن بعيد يرجح أنه قبل بعثة المسيح وفى عصر بختنصر ، فإن القصة نفسها تتواصل فى الزمان إلى أن يبعث الله الموتى من جديد . لأنها تحمل فكرة أصولية وهى فكرة الحياة والموت ، والتى دار حولها صراع طويل بين الرسل والأنبياء وبين الأمم الغابرة واللاحقة ، فهى من كمال التوحيد وتمامه .. وانكارها ، كفر وضلال .. وهى من هذه الناحية تدخل فى باب التوحيد الخالص ، لأن الله سبحانه هو المتفرد فى الخلق ، وفى الحياة ، وفى البعث ، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد ..

وقد وردت القصة فى سورة البقرة وهى من السور المدنية التى تهتم بالأحكام الاسلامية والتشريع فى مجالات الدين والمعاملات ، وهى أيضاً مليئة بقدر كبير من الجدل والحوار حول قضايا التوحيد والألوهية .. فضلاً عن المواجهات التى حدثت بين المسلمين واليهود . ومن ثم فإن العبرة والعظة فى القصة واضحة جلية «فالتوجه إلى الله وحده بالشعائر التعبدية ، والطلب والرجاء والخشية والتقوى ، كالتلقى من الله وحده فى التشريع والتوجيه ومنهج الحياة ونظام المعيشة ، وقواعد الارتباطات وميزان القيم والاعتبارات كلاهما من مقتضيات التوحيد ، وكلاهما يصور المساحة التى تشملها

حقيقة التوحيد فى ضمير المسلم وفى حياته على السواء»[1] !

فقصة الذى مرّ على مدينة إذن .. تجسد فى إيجاز حىّ محور التوحيد والعبودية .. وهو تفرد الله بالخلق ، وتفرده بالبعث ، الأمر الذى يترتب عليه الإيمان الخالص والعمل بأحكام المنهج الربَّانى فكراً وسلوكاً ..

ولقد وردت القصة فى الآية الآتية :

قال تعالى :

﴿أو كالذى مرّ على قريةٍ وهى خاويةٌ على عروشها قال أنى يحيى هذه اللهُ بعد موتها ، فأماته الله مائة عامٍ ثمَّ بعثه ، قال كم لبثتَ ، قال لبثت يوماً أو بعض يوم ، قال بل لبثت مائة عامٍ ، فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنَّه ، وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس ، وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً ، فلما تبين له ، قال أعلم أنَّ الله على كل شيءٍ قدير﴾[2]

● وأوردت كتب التفسير كثيراً من الروايات حول الرجل صاحب القصة ، وأجمعت على أنه العزير ..

وخلاصة القصة أن عزيراً كان رجلاً صالحاً من بنى إسرائيل فى عهد بختنصر ، خرج ذات يوم على حماره فمر على قرية خربة ، فدخلها ومعه سلة تين وعنب ، فاعتصر العنب وأخرج خبزاً يابساً فألقاه فى القصعة التى معه ليبتل ليأكله ثم نظر سقف تلك البيوت الخربة ورأى ما فيها وهى قائمة على عروشها وقد باد أهلها ورأى

---

(١) خصائص التصور الإسلامى ومقوماته ص ٢٢٤ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٩ .

عظاماً بالية فقال ﴿**أنَّى يحيى هذه الله بعد موتها**﴾ قالها تعجباً ، فبعث الله ملك الموت فقبض روحه فأماته مائة عام .

فلما أتت عليه مائة عام بعث الله إلى عزيراً ملكاً .. فخلق قلبه ، وركَّب خلقه ، فاستوى جالساً فقال له الملك كم لبثت ؟ قال لبثت يوماً أو بعض يوم فقال له الملك : بل لبثت مائة عام . فانظر إلى طعامك وشرابك . الخبز اليابس والعصير الذى اعتصره فى القصعة ، فإذا هما على حالها لم يتغيرا ؟ وكذلك التين والعنب غضٌّ لم يتغير شىء من حالها . وانظر إلى حمارك . فنظر إلى حماره قد بليت عظامه وصارت نخرة . فنادى الملك عظام الحمار فأجابت وأقبلت من كل ناحية . فقام الحمار رافعاً رأسه وأذنيه إلى السماء . ثم ركب الرجل حماره حتى أتى محلته فأنكره الناس ، فانطلق فإذا هو بعجوز عمياء ، فأخبرها باسمه فقالت العجوز : إن عزيراً رجل مستجاب الدعوة فادع الله أن يرد علىّ بصرى حتى أراك .. فدعا ربَّه فابصرت فقالت : أشهد أنك عزير . وانطلقت إلى محلة بنى إسرائيل وهم فى أنديتهم فقالت : هذا عزير قد جاءكم فكذبوها . فأخبرتهم بما حدث لها ، فنهض الناس فأقبلوا عليه .

وقالت بنو إسرائيل : فإنه لم يكن فينا أحد حفظ التوراة فيما حُدِّثنا غير عزير وقد حرق بختنصر التوراة ولم يبق منها شىء إلّا ما حفظت الرجال ، فاكتبها لنا ..

.. وجلس فى ظل شجرة وبنو إسرائيل حوله ، فجدّد لهم التوراة . ونزل من السماء شهابان حتى دخلا جوفه ، فتذكر التوراة فجددها لبنى إسرائيل ..

.. وعن ابن عباس : أنه كان يجلس مع بنيه وهم شيوخ وهو شاب لأنه مات وهو ابن أربعين سنة ، فبعثه الله شاباً كهيئة يوم مات .. [1]

.. والقصة قد وردت ـ اعتراضية فى قصة إبراهيم . حيث فصلت بين موقف إبراهيم الجدلى مع الملك الطاغية ، عابد الوثن ، ودار الحوار حول الموت والحياة ، الإمانة والإحياء .. دليلاً على القدرة الإلهية .. وموقف إبراهيم الثانى حين طلب من ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ؟ وهو تساؤل قريب من تساؤل الرجل الذى مرّ على القرية .. فكأن هذه المواقف الثلاثة .. تتناول موضوعاً واحداً وهو البحث المتطلع إلى سر الحياة والموت . والإحياء والإمانة ظاهرتان مكرورتان فى كل لحظة ، وهما فى نفس الوقت سر يحير الألباب . ولا بد من اللجوء إلى الألوهية القادرة لحل هذا السرّ الملغز الذى يعجز عن ادراك كنهه كل الأحياء .. ومن ثم جاء التساؤل .. ﴿**أنّى يحيى هذه الله بعد موتها**﴾ وكذلك ﴿..**أرنى كيف تحيى الموتى** ؟ ..﴾

.. وفى قصة الرجل الذى مرَّ على القرية .. جاء الحدث موجزاً متلائماً مع طبيعة القصة القرآنية .. التى لا تحفل بالتفاصيل .. فلا الآيات أخبرت عن اسمه ولا أخبرت عن القرية التى مرّ عليها ، ولا الطريقة التى بعث بها . ولا الهيئة التى ركّب بها عظام الحمار النخرة .. لقد سكت القرآن عن ذلك كله ، لأن التفاصيل لا

---

(١) انظر قصص الأنبياء لابن كثير ص٣٢٦ جـ٢ وانظر الكشاف جـ١ ص١٥٦/١٥٧/١٥٨ .

تضفى جديداً على القضية الأساسية .. وهى قضية الحياة والموت .. الخلق والموت والبعث .. وتمر القصة بمشاهد متتالية .. يأخذ بعضها برقاب بعض .

●● مشهد البلى :

ركب الرجل حماره ومعه طعامه وشرابه ، ومضى حتى وصل إلى مكان خرب ، وكان الفناء يمرح فى كل مكان ، والبيوت أطلال ، لم يبق منها إلّا قواعد مهدمة .. والخواء يضرب فى كل مكان .. ويسيطر على الحس والنظر والمشاهدة ..

●● التســـاؤل :

ويمعن الرجل النظر فى هذا الخواء ، فالمشهد أمامه مرسوم ومجسّم وحواسه كلها تستقبل هذا المشهد وتندهش له .. وتضطرب مشاعر الرجل ، فما أعظم البلى ، وما أعنف تأثيره عليه .. ودار عقله بعيداً ، وقلبه ينبض بمشاعر متسائلة .. وكأنما يعيش لحظة حاسمة فى حياته .. حواسه كلها مستفزة ، وبصره مشدود .. ولا يملك الرجل فى هذا الجو المرعب المخيف إلّا أن يتساءل فى تعجب ودهشة كيف تدب الحياة فى هذا الموت من جديد !!

●● الموت والبعث :

وفجأة يضيع السؤال ويتلاشى .. ويضيع المشهد كله من أمامه ، فقد مات الرجل ، مات فجأة ، ولم يجد بعد إجابة للسؤال .. مات ولم يجد علاجاً يشفيه من تساؤله الملح ، فالرغبة فى بحث السر كامنة ، ولكن الموت خطفه . وظل مقبوراً فى مكانه مائة عام .. مائة عام كاملة .. تتغير فيها الدنيا من حال إلى حال ..

ويبعث الرجل إلى الحياة فجأة كما مات فجأة ..

●● المحـــاورة :

وجد الرجل نفسه حيًّاً .. مظاهر الحياة تدب فيه وفيما حوله .. المكان والشمس والكون كله وقيل له بعدما أظهر من الحيرة والدهشة :

ـ كم لبثت على الحالة التى أنت فيها ..

ولأن الزمن فى عالم الموت غير محسوب والاحساس به معدوم ، لأن الإحساس بالزمن من طبائع الوعى والحياة ، أسرع قائلاً .. فى عفوية ..

ـ لبثت بعض يوم أو يوما على أكثر تقدير ..

وقيل له .. وقد تبدت آثار واضحة لم يدركها الرجل .

ـ بل لبثت مائة عام ..

مائة عام ! ! ويندهش الرجل دهشة بالغة ، ويقع فى حيرة لا نهائية .. كيف ؟ .. وكأنما الرجل لم ينظر حوله ، ولم يتعرف بعد على المتغيرات التى حدثت فى تجربته المثيرة .. ولأنها تجربة حسيَّة مشخصة .. برزت الآثار المحسوسة التى تعطى الدليل القاطع على لبثه مائة عام ..

فقيل له ـ فى أمر علوى ـ أن يستقرىء المشاهدات التى حوله .

ـ ها هو طعامك الجاف الذى تركته من مائة عام لم يتغير .. وها هو شرابك الذى عصرته لم يصبه العفن أو العطب ..

ولكن عقل الرجل لا يزال مندهشاً .. إذا كان فى تصوره أنه لبث يوماً أو بعض يوم فإن العطب لن يصيب الطعام أو الشراب ..

إن الأمر يحتاج إلى دليل قوى وحاسم .. قبل أن يبدأ فى رحلته إلى ذويه ..

●● الآيـــة :

وتجىء الآية ، عظة وعبرة ، ودليلاً حاسماً .. على التساؤل الذى مات به ، وبعث به .

فقيل له :

– انظر إلى حمارك الذى تعرت عظامه وتفسخت وبليت وأصبحت كالرميم . ها هى العظام يأتى بعضها إلى البعض الآخر ، وانظر كيف تكسى باللحم ، وتعود فيها الحياة ، وتدب الحركة فى الأعضاء .. فأنت أمام حالين مختلفين .. حالة الطعام والشراب الذى بقى مائة عام ولم يتغير شىء فيها .. وحالة البلى التى أصابت الحمار .. إن كلتا الحالتين آية على قدرة الله ، القدرة المطلقة التى لا يعجزها شىء ..

ويدرك الرجل بحواسه كلها أطراف المشهد ، ويصل إلى الجوهر الحقيقى ، ويأتيه الجواب .. جواب السؤال الذى شقى به ، فمات مائة عام وبعث ليجد الإجابة .. فى إطار تجربة حسيّة مشاهدة ، لا تحتاج إلى تأويل .. تجربة تخترق القلب والعقل معاً ..

– إنك يا رجل آية للناس .. وما حدث إنما هو وسيلة مشاهدة لادراك قدرة الله سبحانه ، ولتصبح معجزة ظاهرة تدل على كمال القدرة الإلهية .. ولتصبح موعظة وعبرة لقومك ولغيرك من الأقوام .. على مر السنين والأيام ..

وحين أدرك الرجل ذلك كله ، ورأى بحواسه ما رأى ، أيقن

وعلم علم المشاهدة أن الله على كل شيء قدير ..

... وهكذا كانت التجربة الحسية المشاهدة ، والتى سيتبعها تجربة مشاهدة أخرى بالنسبة لإبراهيم عليه السلام ..

تمضى هذه التجربة ، فتضيف إلى رصيد أصحاب الدعوة رصيداً جديداً ، وإلى رصيد التصور الإيمانى بعداً صحيحاً . (وتقرر – إلى جانب حقيقة الموت والحياة وردهما إلى الله – حقيقة أخرى هى .. حقيقة طلاقة المشيئة .. التى يعنى القرآن عناية فائقة بتقريرها فى ضمائر المؤمنين به ، لتتعلق بالله مباشرة ، من وراء الأسباب الظاهرة والمقدمات المنظورة . فالله فعَّال لما يريد ! ! »[1]

.. ولقد قامت الألفاظ القرآنية بدلالة إيحاء المعانى الكامنة وراءها .. وتضافرت الألفاظ لتبرز المعنى الجوهرى الكامن وراءها ..

فلفظة «خاوية» تعنى البلى والفناء .. وهى ضد الامتلاء الذى يعنى الحياة والحركة وهى جاءت كمدخل حسى للتجربة الحسية المباشرة .. ليتولد عنها الإحساس بالدهشة والرهبة معاً .. والذى تحمله لفظة «أنى» .. وهى أداة استفهامية تحمل تساؤل الدهشة ، «والاعتراف بالعجز عن معرفة طريقة الإحياء .. واستعظام لقدرة المحيى»[2] .. وجاءت لفظة (لم يتسنّه) بالنفى لإثبات دوام الحال دون تغيره .

فضلاً عن أنها تحمل دلالة مرور الزمان الطويل .. ذلك أن

---

(١) الظلال جـ ١ ص ٣٠١ .

(٢) الكشاف ص ٢٥٧ جـ ١ .

الشيء يتغير بمرور الزمان .. أما الطعام والشراب فبقى على حالته ..

كما أن استخدام أداة العطف «ثم» التى تدل على العطف والتراخى ، يعطى دلالة الزمن فى التجربة ، بمعنى أن حركة الخلق قد تمت أمامه فى بطء وتراخ حتى يتأكد تأكُّد اليقين من مراحل الاحياء وكيفيتها ..

وتكرار كلمة (انظر) جاء متلائماً تماما مع التجربة الحسية المشاهدة ، ذلك أن النظر هو الحاسة الوحيدة القادرة على تمثل ورؤية حركة الخلق والاحياء بكمالها وتمامها .. وهى وسيلة حسية إدراكية يدرك بها الإنسان المرئيات والمشاهدات .. فالبرهان العقلى قد توارى تماماً فى هذا الموقف وحل محله البرهان التجريبى الذى أداته النظر ..

(فالمشاعر والتأثرات تكون أحياناً من العمق والعنف بحيث لا تعالج بالبرهان العقلى ، ولا حتى بالمنطق الوجدانى ، ولا تعالج كذلك بالواقع العام الذى يراه العيان . إنما يكون العلاج بالتجربة الشخصية الذاتية المباشرة .. التى يمتلىء بها الحس ، ويطمئن بها القلب ! [1]

(١) الظلال جـ ١ ص ٣٠٠.

التّنوّع القصصى

وردت القصة فى القرآن الكريم لتدل على حقيقة الدين ، وابراز الغرض الديني .. وتحديد الوسيلة لتحقيق رضى الله .. والاقرار بالعبودية المطلقة ، وهى فى هذا الجانب أداة فنية موصولة منذ بدأ الرسل يدعون إلى التوحيد ويبلغون أممهم بوحى الله .. ورسالته .. كما أنها تدل على طبائع البشر المتصادمة ووسائل علاجها ، وإبراز سنن الله فى العقاب والثواب .. ومن ثم تصبح القصة كما قلنا سابقاً من أنجح الوسائل التعبيرية فى تهذيب النفوس وتأديبها ، وصقل القلوب ورياضتها على الصلاح ، وتقويم السلوك وتعديله ، ورسم السياسة العامة الصالحة للجماعات المؤمنة .. وتشخيص الحقيقة المجردة بحيث تكون أكثر تأثيراً وفاعلية ، مما يجعل العبرة والعظة تنساب طيعة إلى القلوب .

فالقصة فى القرآن (ليست عملاً فنياً مستقلاً فى موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه ـ كما هو الشأن فى القصة الفنية الحرة التى ترمى إلى أداء غرض فنى طليق ـ إنما هى وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية . والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء ، والقصة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها)[1]

---

(١) التصوير الفنى ص ١٤٣ .

ومن ثم فقد خضعت القصة القرآنية فى موضوعها وفى طريقة عرضها لمقتضى الأغراض الدينية . الأمر الذى لمسناه فى عرضنا السابق لأنواع القصة فى القرآن ـ فبالرغم من انطلاق القصة من هدف دينى محدد وهو إقرار التوحيد والعبودية لله الأمر الذى يصبح به هذا الغرض محوراً موضوعياً للقصة جميعها .. إلّا أن التنوع واضح فى إيراد القصص .. إنه تنوع على لحن واحد إن صح التعبير . فوجدنا القصة التمثيلية تضرب فى مجالات الإنكار والجحود وغرور النفس ، وبُعد المسلك البشرى عن الحق الذى أمر به الله كما لمسنا فى القصة التاريخية الصراع الأبدى بين الحق والباطل . وموقف الأمم الغابرة من الرسل والأنبياء .. والعقاب الذى حل بهذه الأمم من خسف وزلزال ورياح .. مما يدل على وحدة الرسالة ، ووحدة الوسيلة ، ووحدة الفعل منذ آدم وحتى محمد ﷺ . كما ساهمت القصة التعليمية بما تضمنته من وسائل العرض والتربية فى خلق قيم دينية سليمة ، وإبراز المسلك القويم فى السلوك البشرى ، وإدانة الأفعال التى تتنكر للحق وتجحد بالرب .. كما أبرزت القصة النفسية حقيقة المشاعر الإنسانية .. التى تتراوح بين الغلظة والشفافية والعفة والابتزاز ، والمحبة والحقد ، وكانت فى كل هذه المشاعر .. ترصد النفس فى لحظة سموها ، وسفلها .. دون خروج على الإطار النظيف الذى التزمت به القصة .. ولم تخل القصة القرآنية من الإشارات الرمزية التى وردت عبر أدوات غير عاقلة كالبقرة أو الهدهد .. أو عبر حوادث مختزلة تشير إلى أسباب النزول القرآنى .. لتكشف من وراء هذا الرمز الإشارى عن معانى عميقة ، كامنة تحت هذا الرمز

الإشارى .. مَعَانٍ تحفل بالحياة ، والحركة والتنوع والصراع ، وكشف طبائع الناس . فضلاً عن القصص الوعظية البحتة ، التى تكشف معدن المؤمنين الصالحين الذين يضحون بأنفسهم من أجل العقيدة ، هروباً من الوثنية والظلم .. أو إثبات حقائق التوحيد الكلية من بعث ونشور ، دليلاً على قدرة الله وعظمته ، ولم تنس القصة القرآنية أن تنتقل إلى عالم الغيب ، فتتحدث عن مشاهد القيامة ، فى صور حسية مشخصة بحيث يتضح لنا فى موقف البعث أنماط البشر المؤمنين الذى رضى الله عنهم فدخلوا الجنة ، أو الكافرين الذين غضب الله عليهم فعاقبهم بالنار .. أو هؤلاء الذين يقفون على الأعراف انتظاراً لرحمة الله ..

... وإذا كانت هذه هى أنواع القصة القرآنية على قدر ما اسعفتنا به الدراسة .. فإن هناك تنوعاً قصصياً آخر .. يضاف إلى ما سبق ليعطى لنا صورة كاملة للتنوع القصصى فى القرآن الكريم ..

● وأول هذا التنوع القصصى .. يرتبط ارتباطاً بالشخصية المِحْور فى القصة .. بحيث نستطيع أن نضعها فى أطر ثلاثة ..

● الإطار الأول : هو القصة التى تتناول الأنبياء والرسل .. وجهادهم فى الدعوة إلى التوحيد ، وما كانوا يلقونه فى سبيلها من شر وأذى ومكابرة وعناد ، واعراض وجحود ، وكيف صبر أولوا العزم من الرسل على ما كذَّبوا به حتى جاءهم نصر الله عزيزاً مؤزراً .. وتبع ذلك .. أن ورود مثل هذه القصص اختلف طولاً وقصراً .. وتكراراً .. ولعل قصة موسى دليل واضح على هذه الشخصية الفاعلة القوية فى مواجهة حشد هائل من الصراع

المأساوى ..

● وتتنوع قصص القرآن مرة ثانية ، حين تتناول جماعة من البشر. وهى على قلتها .. نموذج حىّ للتعبير القرآنى فى مواجهة النفس البشرية .. لحظة الفعل الحاسم فى مجريات الدين والحياة . وهى تكشف ـ بطبيعة الحال ـ الجو الدينى الذى يغلف القصة ويحرك الأشخاص .. مع أو ضدّ الدين .. ولعل قصص أهل الكهف ، وأصحاب الأخدود . وأصحاب الجنة .. مثال واضح على ذلك .. فجماعة البشر تتحرك فى إطارها الدينى الخاص .. ولكنهم يتحركون على مسرح حىٍّ .. مجسم يعكس كل نأمة فى النفس وكل رد فعل فى السلوك ، وكل توجه فى الدين ..

وتتنوع مرة ثالثة فتتناول الأشخاص مفردين .. كقصة قارون .. الذى كان من قوم موسى فطغى وتكبر بما أوتى من مال وكنوز .. وكان إذا نصحه الناصحون أن يتذكر الله .. ونعمه عليه ، وأن يتذكر اليوم الآخر ، فيجعل للفقراء نصيباً من ماله .. يأبى الإصغاء ويتمادى فى سلوكه الجاحد .. فلحقه عذاب الله ، فخسف به وبداره الأرض ..

● والملاحظ على النوعين الأخيرين من القصص أن القرآن الكريم لا يكررهما مثلما يحدث فى قصص الأنبياء والرسل . فلم ترد إلّا فى موضع واحد وفى سورة واحدة بعكس قصص الأنبياء التى تتوزع على سور القرآن توزعاً واضحاً ومكرراً .. وربما كانت قصة يوسف هى الاستثناء الوحيد فى هذا المجال .. فلقد وردت كاملة فى السورة التى سميت باسمه . وهذا التوزع الذى انفردت به قصص الأنبياء مع

أممهم الغابرة تحتفظ دائماً بجوهر الأحداث ووحدة الموضوع مع تنوع فى الأداء التعبيرى واختيارات المواقف ليتلاءم مع النسق القرآنى الذى وردت فيه .

وقد تتنوع القصة بين الطول والقصر ، والإجمال والتفصيل (ولكل من الإجمال والتفصيل هنا عمل يراد . ففى الإجمال ضرب من الإيهام يبعث القلق فى النفس المكذِّبة ، ويحملها على التظنن وإعمال الخيال والذهاب معه مذاهب شتى فى تصور الواقع الموعود ، وفى التفصيل مكاشفة صريحة لا تدع لامرىء أثارةً من تعلل أو الخداع)[1]

وللقصة فى جميع مجالاتها بسطاً وإيجازاً ، غاية ثابتة لا تتغير ولا تتبدل وهى بسط العقيدة وتقريبها إلى أذهان الناس ووجداناتهم .. وتوصيلها هذه المفاهيم للمسلمين الذين يقفون مع الرسول فى صراعه ضد الجهل والجهالة العمياء ـ والعناصر التى تتضمنها القصة القرآنية فى جميع أحوالها لا تتغير ، فكل ما يخدم القصة ويبرز جوهرها ، وارد فى القصة ، لا حذف ولا انتقاص .. وكل ما يخرج عن الجوهر فى القصة أو يعطل تأثيرها أو ينتقص منه أو يحركه من مجاله ونسقه بحيث يغطى عليه موقف آخر .. لا نجده فى القصة القرآنية «سواءٌ كان هذا النبأ طويلاً متعدد الحلقات ، يمتد لزمن غير قصير ، وتتداخل فى تطوراته شخصيات كثيرة ، كقصة يوسف عليه السلام التى استأثرت بسورة كاملة ، أو كان من آيتين أو ثلاث أو

---

(١) مع القرآن الكريم ـ دراسة مستلهمة ص ٣٦ .

عشر كالأنباء والأحاديث العديدة التى انتشرت فى قصص القرآن ..»[1]

● ولعل الإيجاز هو السمة المميزة لما نزل من القصص القرآنى فى بداية الدعوة ذلك أن الله سبحانه جعل لأهل مكة قصصاً مميزة تتلاءم مع البيئة . فالبيئة وثنية ، والقوم يعبدون الأصنام ، وطال عهدهم بها ومصاحبتهم لها . أجيالاً وراء أجيال . حتى انطبعت قلوبهم بها وتشربت نفوسهم بطقوسها .. فقست القلوب وتحجرت المشاعر .. وأصبح اقتلاعهم من جذورهم يحتاج مجاهدة كبيرة . وصبراً طويلاً . وامتازت هذه القصص بالحدث الموجز ، واللفظ الموقَّع ، والرنين الصوتى ، والتنقل السريع حتى يحدث تأثيره فى النفوس . بما تتضمنه من زجر ووعيد وإثارة . ذلك أن الغرض الدينى الكبير هو تحذير مشركى مكة من العناد والضلال والاصرار على الباطل ، فجاء تخويفهم عبر سرد أحداث ما سبقهم من الأمم الضالة . تلك الأمم البائدة التى خالفت أمر الله وكذبت رسله فحق عليها العذاب والبلاء .. قال تعالى : ﴿**ألم تركيف فَعَل ربُّك بعاد . إرمَ ذات العماد . التى لم يخلق مثلها فى البلاد . وثمودَ الذين جابوا الصّخر بالواد . وفرعون ذى الأوتاد . الذين طغوا فى البلاد . فأكثروا فيها الفساد . فصبَّ عليهمْ ربُّكَ سوط عذاب . إنّ ربّك لبالمرصاد .**﴾[2]

● وسورة الفجر مكية ، ولقد ذكرت الآيات قصص بعض الأمم

---

(١) الإسلام والمذاهب الحديثة ص ١٧٦/١٧٧ .

(٢) سورة الفجر آيات ٦ ـ ١٤ .

الغابرة كقوم عاد وثمود وقوم فرعون .. وبينت ما حل بهم من عذاب . ولقد تتابعت القصص بعضها وراء بعض فى سرد موجز ولكنه يحمل المعنى المراد .. والتأثير المطلوب حيث تقبض على الأنفاس ، وتقطع على الضالين والكفرة الجدل واللجاج وتخترقهم مباشرة فى جوهر الوثنية الضالة ، وترصد العقاب الإلهى بهم .

إن هذه الآيات القصار قد جمعت مصارع أقوى الجبارين الذين عرفهم التاريخ القديم ..

ولا شك أن التصريف البيانى أعطى دلالات جمالية للنص القصصى السريع التنقل .. حيث بدئت الآيات بالاستفهام المنفى .. المتبوع بالاستفهام عن الكيفية والهيئة .. مما يثير الانتباه ، ويلفت الأذهان ، ويثير الشوق إلى التوقع والتلقى ..

كما توسطت الرؤية بين الاستفهامين لتعطى دلالتين فى المعنى .. الدلالة الأولى هى الرؤية الاسترجاعية عبر السرد الذى يقص قصصاً مجسدة ومشخصة كأنما تتحرك على مسرح الساحة .. أمام الذهن .. والرؤية المشاهدة المستقبلية التى ترى رأى العيان مصارع كفار قريش فيما بعد .. ومن ثم تلاءم التركيب الاضافى مع هذا المعنى فـ (ربك) فيها دلالة الطمأنينة والأنس والراحة والإيناس والمؤازرة . فعاد تلك القبيلة البدوية المتصفة بالقوة والبطش ، والتى تميزت عن غيرها من البلاد وثمود القوية المتجبرة التى جعلت من الجبال والصخور قصوراً ، وفرعون موسى المتجبر الطاغية الجبار ، الذى تمكن من البلاد وسامها الذل والعذاب .. هؤلاء جميعاً أفسدوا وطغوا ، فطهّر الله البلاد منهم ومن فسادهم حين صبّ الله

عليهم ألواناً من العذاب .. لتفيض الطمأنينة فى قلوب المؤمنين وهم يواجهون الطغيان والضلال .

●● إننا نرى فى هذه الآيات السردية نماذج من قدر الله فى أمر الدعوة . (وقد كان القرآن ـ ولا يزال ـ يربى المؤمنين بهذا النموذج .. أو ذاك .. وفق الحالات والملابسات ، ويعد نفوس المؤمنين لهذا وذاك على السواء لتطمئن على الحالين ـ وتتوقع الأمرين . وتكل كل شىء لقدر الله يجريه كما يشاء)[1]

.. وحين تطورت الدعوة واشتجر الصراع قوةً وعنفاً .. ودخل الناس فى دين الله ، وانتقلت الدعوة إلى مكان آخر بعد الهجرة .. أبرزت القصص القرآنية مجالات الصراع كاملة بين الرسل والأنبياء وبين أممهم .. وبرز الحوار واضحاً جلياً ، والقصة تُسرد فى تمهل وأناة ، تصوِّر الصراع ، وتتضمن الجدل ، وتعبر من الشخصية ، وتميل إلى البسط والتفصيل ، وتدعو إلى التأمل والتفكير .. وبرز على الساحة أهل الكتاب .. وهم قوم جاءتهم الرسالات السماوية السابقة .. من يهودية ومسيحية ـ وقد كانت عندهم البشارة برسول الله ﷺ .. إلّا أنهم عاندوا واستكبروا ، ونال المسلمين منهم أذىً كبير .

وتنوعت القصص فى هذا الطور بين حديث عن ماضى أهل الكتاب ، وبين حديث عن حاضر المسلمين فى جهادهم ضد المشركين واليهود معاً ـ ولقد كثرت القصص التى تناولت فضل الله

---

(١) الظلال جـ ٦ ص ٣٩٠٤ .

على بنى إسرائيل ، إذ نجاهم من بطش فرعون وجبروته ، وتولاهم بكثير من النعم ، بالرغم من عصيانهم وعنتهم والحاحهم فى الشطط والمساءلة ..

.. إن تفصيل القصة القرآنية وتنوعها فى الحدث والشخصية والحوار والجو العام .. جاء موافقاً لمقتضيات الدعوة وتطورها ... فحين اشتد الصراع بين الحق والباطل وهاجر المسلمون إلى الحبشة هروباً من الأذى وألوان العذاب الشديد ـ كان الصبر على الأذى وتحمل العناد ، مطلباً ضرورياً فى هذه المرحلة .. ولذلك نرى القصة القرآنية تعرض النموذج المفصل عن ثبات موسى وصبره أمام فرعون وقومه ..

قال تعالى : ﴿**وإذ نادى ربُّك موسى أن ائتِ القوم الظالمين . قوم فرعون ألا يتقون . قال ربِّ إنّى أخاف أن يكذبون . ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل إلى هارون . ولهم علىّ ذنب فأخاف أن يقتلون . قال كلَّا فاذْهبا بآياتنا إنَّا معكم مستمعون . فأتيا فرعون فقولا إنَّا رسول ربّ العالمين . أنْ ارسل معنا بنى اسرائيل . قال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين . وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين . قال فعلتها إذنْ وأنا من الضَّالين . ففررت منكم لمّا خفتكم فوهب لى ربّى حكماً وجعلنى من المرسلين . وتلك نعمة تمنُّها علىّ أنْ عبَّدْت بنى إسرائيل . قال فرعون وما ربُّ العالمين . قال ربُّ السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون . قال ربُّكم وربُّ آبائكم الأولين . قال إنَّ رسولكم الذى أرسل إليكم**

لمجنون . قالَ ربُّ المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون . قال لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين ... «إلى قوله تعالى» ... **وأنجينا مُوسى ومن معه أجمعين . ثمّ أَغرقنا الآخرين . إنَّ فى ذلك لآيةً وما كان أكثرهم مؤمنين . وإنّ ربَّكَ لهو العزيز الرحيم﴾**(١)

.. وها نحن نرى كيف تحولت الإشارة القصصية فى سورة الفجر إلى موقف قصصى كامل حافل بالأحداث ، والحوار ، والجدل العميق ، والتنقل فى الزمان والمكان ..

وهذا النص القصصى الباهر ما هو إلّا حلقة قصصية من حلقات قصة موسى مع بنى إسرائيل .. والنص الذى أمامنا يمثل مواقف متعددة يرتبط بعضها بالبعض الآخر .. دون لجوء إلى تفصيلات تعترض السياق السردى وتخل بوحدته . فالحلقة هنا هى حلقة الرسالة والتكذيب ، وما كان من غرق فرعون وملئه عقاباً لهم على كفرهم ، ونجاة موسى ومن معه من المؤمنين من بنى إسرائيل .

ولا شك أن ورود هذا النص القصصى وغيره فى سورة الشعراء ، إنما جاء متلائماً مع موضوع السورة .. حيث عالجت السورة موضوع الرسالة بما يتضمنه من أصول الدين من توحيد وبعث ووحى ، كما سردت السورة ألوان التكذيب والمعاندة التى اتسم بها كفار مكة .. وتحدثت عن القرآن الكريم الذى أنزله الله هداية للخلق ، وذكرت موقف المشركين منه (فقد كذبوا به مع وضوح آياته وسطوع براهينه ، وطلبوا معجزة أخرى غير القرآن

---

(١) انظر سورة الشعراء آية ١٠ ـ ٦٨ .

الكريم عناداً واستكباراً !)[1] .. وإذا كان بدءُ السورة تمثّل فى الحديث عن القرآن الكريم وموقف المشركين منه ومن صاحب الدعوة ، مروراً بذكر قصص الأنبياء فى مواقف الرسالة والتكذيب والمؤازرة ووقوع العذاب على المشركين فلقد (ختمت السورة بالرد على افتراء المشركين ، فى زعمهم أن القرآن من تنزيل الشياطين ليتناسق البدء مع الختام فى أروع تناسق والتئام)[2] ...

قال تعالى : ﴿**وإنه لتنزيل ربِّ العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربىٍّ مبين**﴾[3]

ولقد وردت قصة موسى فى كثير من السور القرآنية وفى كل مرة ترد فيها حلقة من حلقات القصة الطويلة (.. وكانت الحلقات التى تعرض فيها أو الإشارات متناسقة مع موضوع السورة ، أو السياق الذى تعرض فيه .. وكانت تشارك فى تصوير الموضوع الذى يهدف إليه السياق ..)[4]

والحلقة القصصية المعروضة تغرى بالتحليل والتفصيل ولكننا هنا نشير مجرد إشارة إلى المواقف المتتابعة فى هذه الحلقة ..

فالموقف الأول يمثل النداء وتلقى الرسالة ، ومناجاة قلبية بين موسى وربه .

والموقف الثانى يتمثل فى مواجهة موسى لفرعون وملئه ومعه تلك الآية الخارقة آية العصا .

والموقف الثالث يتمثل فى تجمع السحرة فى موقف عصيب ،

---

(١) صفوة التفاسير جـ ٢ ص ٢٧٣ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٧٣ .
(٣) سورة الشعراء آية ١٩٢ ـ ١٩٥ .
(٤) الظلال جـ ٥ ص ٢٥٨٨ .

احتشد له القوم ومظنة التآمر كامنة فيه من قبل فرعون وسحرته .

والموقف الرابع : مشهد المباراة ، وهو مشهد حيّ حافل بالمشاعر والانفعالات وفيه يعلن السحرة إيمانهم على حين يواجههم فرعون بالوعيد .

والموقف الخامس : مسرى موسى بأهله فى الليل البهيم هروباً من فرعون ونقمته . وحشد فرعون لجنوده لملاحقة بنى إسرائيل قبل أن يفلتوا منه .

والموقف السادس : يتمثل فى المواجهة أمام البحر حيث ينفلق البحر عن كتلتين هائلتين ، يسير بينهما موسى وقومه ، ثم ينطبق الموج فيغرق فرعون وملؤه .

● ولقد تتابعت المواقف بعضها وراء بعض فى حيوية أخاذة . منذ تلقى الوحى بالرسالة ومواجهة فرعون ثم النهاية الحاسمة ..

تفصيل مطول حافل بالمواقف الحيوية ..

ومع ذلك فإن أهل الكتاب من بنى إسرائيل ظلوا يكيدون للرسول ﷺ ويأتمرون على دينه .. بالرغم من النعم الجزيلة التى أنعم الله بها عليهم ، وبالرغم من الإشارات التى وردت فى كتبهم عن النبى وبعثه .. فجاء القرآن ليدين هذا المسلك فى الشخصية ، ويبين أنهم قوم يتصفون باللجاجة والشطط والخبث ونكران الفضل ، والمغالاة فى تتبع الأمور وتأويلها على غير مرادها ـ ولعل ما ورد فى قصة البقرة لدليل كافٍ على هذا المعنى[1] .

---

(١) انظر فصل القصة الإشارية .

● كما تنوعت أيضاً القصة القرآنية فى المدينة .. فتحدثت عن حاضر المسلمين وغزواتهم .. ولقد حظيت غزوة الأحزاب باسهاب وتفصيل لما تضمنته من كيد ومؤامرة . وما لابسها من ابتلاء ومحنة .. حيث تجمعت فرق المشركين يظاهرهم حلفاء من اليهود .. لكن الله كان لهم بالمرصاد حيث أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية ، قذفت الرعب فى القلوب ، فانقلب الميزان ورجع المشركون بالهزيمة والخسران .

ولقى حلفاء الغدر والخيانة من اليهود جزاءهم الذى يستحقونه .

وسجلت القصة القرآنية هذا الموقف الملحمى الهائل فى سورة الأحزاب .. [1] وأدانت موقف اليهود إدانة واضحة ، وحق عليهم العذاب فأنزلوا من حصونهم وقلاعهم وألقى الله الرعب فى قلوبهم بنقضهم عهدهم للرسول وتآمرهم ضده ، فقتل رجالهم من المقاتلين ، وسبيت نساؤهم وذريتهم وورث المسلمون أرضهم ومتاعهم .

قال تعالى : ﴿**وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب ، فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديراً ..**﴾ .

.. ولقد نتج عن الاجمال والتفصيل الذى ذكرناه سابقاً أن تنوعت أشكال القصة القرآنية تنوعاً يتراوح بين الطول والقصر ..

---

(١) سورة الأحزاب آية ٩ ـ ٢٧ .

فنتج عن ذلك تنوع واضح فى شكل القصة القرآنية .. فوجدنا القصة الملحمية الطويلة الزاخرة بالأحداث والصراع ، والجدل ، والمأساة ، والخارقة ، والوجدانات المتضاربة ، والشخصيات المتعددة .. فى إطار شخصية واحدة ، شخصية فاعلة ، يدور حولها الصراع .. تحركه وتقوده وسط جو هائل من الفزع والرعب . والخوف والرجاء ، والنجاح والفشل .. تلك الشخصية الفاعلة .. هى شخصية الرسول .. الذى يحمل رسالة ربه . إلى البشر .. ونموذج هذا النوع من القصص الملحمى الطويل .. قصة موسى عليه السلام .. وهى قصة مكتملة فى البناء التعبيرى ورسم الشخصية .. حيث وردت بجميع تفاصيلها منذ المولد حتى وقوفه بقومه أمام الأرض المقدسة .. حيث كتب على بنى إسرائيل التيه أربعين عاماً .

ولقد عرض القرآن هذه القصة الطويلة على حلقات تتوزع سوراً قرآنية عديدة .. بدءاً بالاشارة وإنتهاءً بالتفصيل والأطناب .. وقد جاءت فيما يربو على ثلاثين سورة قرآنية ما بين مكية ومدنية[1] .

والقصة لم تأت دفعة واحدة ، وإنما تكررت على مساحة السور القرآنية . مرحلة وراء مرحلة ، وإشارة يتبعها تفصيل ، وموقف يتبعه موقف .. وفى كل موضع يتلاءم الموقف القصصى مع السياق وموضوع السورة . فالتناسق بين حلقة القصة التى تعرض والسياق الذى تعرض فيه هو الغرض المقدم وهذا يتوافر دائماً ، ولا يخل بالسمة الفنية إطلاقاً . (على أن هناك ما يشبه أن يكون نظاماً مقرراً فى عرض الحلقات المكررة من القصة الواحدة ، فمعظم القصص

---

(١) انظر تفصيل آيات القرآن الحكيم ص ٨٣ـ ١٠١ .

يبدأ بإشارة مقتضبة ثم تطول هذه الإشارات شيئاً فشيئاً ثم تعرض حلقات كبيرة تكوّن فى مجموعها جسْم القصة ، وقد تستمر الإشارات المقتضبة فيما بين عرض هذه الحلقات الكبيرة عند المناسبات حتى إذا استوفت القصة حلقاتها عادت هذه الإشارات هى كل ما يعرض منها !)[1]

.. ويأتى نوع آخر متوسط الطول يتوزع أيضاً على السور القرآنية على نفس المنهج القرآنى ونظام القصة فيه . ويتمثل ذلك فى قصتى إبراهيم ويوسف عليهما السلام ، إلّا أن الأخيرة وردت دفعة واحدة ..

فقصة إبراهيم عليه السلام تعرض فى حلقات التزاماً بالمنهج السياقى القرآنى وملاءمته لموضوع السورة .. فثمة حلقة عن إيمانه وأخرى عن المحاورة والجدل حول الأصنام واعتزال القوم ، وثالثة عن اسماعيل واسحاق والذبح والفداء ، ورابعة عن بناء الكعبة والاذن بالحج وخامسة حول الاحياء والبعث ..[2]

وهكذا تتابع الحلقات فى سور كثيرة متنوعة لتكون جسم القصة ككل .. وكذلك تبدأ قصة يوسف منذ موقفه مع اخوته متتابعة حلقة وراء أخرى دون توزع أو تكرار .. لتحكى قصة يوسف والمحن التى مرّ بها ومؤازرة الله له حتى مكن له فى الأرض .

.. وهناك قصص قصيرة حافلة بالتفاصيل كقصة نوح عليه

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن ص ١٥٦ .

(٢) انظر تفصيل آيات القرآن الحكيم ص ٦٤ ـ ٧٠ وأيضًا نظرات فى قصص القرآن جـ ١ ص ١٢١ ـ ١٥٠ .

السلام حيث ذكر فيها تفصيلات الرسالة ودعوته لقومه بالإيمان ، واستكبار القوم ، وصنع السفينة والطوفان وغرق الابن .. الخ .

وهناك قصص قصيرة بحتة .. تعرض حلقة الرسالة وحدها حيث تتضمن الرسالة ، والدعوة إلى التوحيد والحوار حول العقيدة وتكذيب القوم ثم إهلاكهم جميعاً .. وقصة هود ، وشعيب ، نموذجان لهذا النوع من القصص ..

وتبقى القصة القصيرة جداً فتذكر الموقف القصصي ذكراً موجزاً غاية الإيجاز .. كقصة أيوب عندما مسّه الضر واستغاثته بالله وشفائه ورد أهله إليه ، ولقد وردت قصته فى سور ثلاث وفى آيات لا تتعدى سبعاً[1] .

قال تعالى : ﴿**واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربّه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب . اركض برجلك هذا مغتسل باردٌ وشرابٌ . ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمةً منا وذكرى لأولى الألباب . وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث ، إنَّا وجدناه صابراً ، نعم العبد إنه أواب**﴾[2]

فأيوب ينادى ربّه متضرعاً فلقد مسّه الشيطان بالأذى والمشقة . ويأتيه الأمر أن يضرب برجله الأرض فنبعت منها عين ماء فشرب منه واغتسل فذهب ما كان به من مرض . وأحيا الله له أولاده ورزقه مثلهم حتى كثر نسله رحمةً من الله لصبره على البلاء ، وعظة وعبرة لأصحاب العقول المستنيرة ، ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج .

---

(١) انظر تفصيل آيات القرآن الحكيم ص ٧٤ .

(٢) سورة ص آية ٤١ ـ ٤٤ .

وجاءه الأمر أن يأخذ حزمة من الحشيش اليابس فيضرب بها زوجته ليبرّ بيمينه . وذلك رحمة من الله به وبزوجته التى قامت على رعايته أثناء بلائه الذى صبر عليه وأناب فيه إلى ربه ..

... إن من أبرز خصائص الأسلوب القرآنى بعامة (واسلوب الحكاية والرواية فى أنباء الغيب والدول الغابرة . وأحاديث الرسل والأنبياء عليهم السلام بخاصة ، هو خاصية الإيجاز المعجز ، الذى ينقل إليك المعنى كاملاً ومؤثراً ، وحيًّا وموحياً ، ولكن فى أقل القليل من الألفاظ مع اسقاط مئات من التفاصيل الجزئية التى كانت تشغل حتماً أى كاتب مهما بلغت قدرته على الإيجاز) ...[1]

وهكذا تتنوع القصة القرآنية من حيث الشكل الفنى تنوعاً يتراوح بين الاجمال والتفصيل وفى كل حالاتها ، يتلاءم النوع مع السياق والنسق التعبيرى والغرض الدينى .

.. ولأن الهدف الدينى هو مقصد القصة القرآنية ، فلقد تنوعت القصة وتلونت فى طريقة العرض ما بين الإجمال والتفصيل ، الطول والقصر .. وكذلك زمان القصة وحدثها .. ذلك أن القرآن الكريم إيفاء للغرض الدينى كالفنّى معاً ، يورد من القصة الحلقة التى تتنامى وموضوع السورة وتتلاءم والغرض الدينى . واختلفت بدايات القصص .

فنجد ـ مثلاً ـ أن القصة القرآنية قد وردت منذ البدء .. أى

---

(١) القصة القرآنية ص ٥٦ فتحى رضوان .

منذ ميلاد الشخصية الفاعلة ، محور القصة كلها .. وإن حلقة الميلاد هنا ، قد سجلتها القصة لما تتضمنه من عظة وعبرة ـ ودلالة دينية سامية ـ وثمة قصص قرآنية تأتى حلقة الميلاد فيها بارزةً بروزاً فى إطار السياق القصصى العام ـ ومنها قصة آدم وقصة ميلاد عيسى عليه السلام وقصة ميلاد موسى عليه السلام .

فميلاد عيسى عليه السلام يعرض فى تفصيل كامل لأن «مولده هو الآية الكبرى فى حياته» ولأن هذا المولد كان مثار الجدل والخلاف ، وكان سبباً للاختلاف والفتنة ، وتوزع الناس فى توجهاتهم الدينية .

قال تعالى : ﴿**واذْكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً . فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً . قالت إنّى أعوذ بالرحمن منك إنْ كنت تقياً . قال إنما أنا رسول ربّك لأهب لك غلاماً زكياً . قالت أنى يكون لى غلامٌ ولم يمسسنى بشرٌ ولم أك بغيّاً . قال كذلك قال ربُّك هو علىّ هيّن ولنجعله آية للنّاس ورحمةً منا وكان أمراً مقضيّاً**﴾[1]

والآيات القرآنية تعرض القصة العجيبة والمعجزة الخارقة ، فمريم العذراء تنجب طفلاً من غير أب وقد شاءت الحكمة الإلهية أن تبرز ذلك الاعجاز ليظل أثراً للقدرة الإلهية ماثلاً أمام الأبصار يحمل عظمة الواحد القهار . ولتتواصل القدرة فى إنطاق الله للوليد وهو طفل فى المهد ثم ما جرى من أحداث غريبة رافقت الميلاد .

---

(١) سورة مريم آية ١٦ ـ ٢١ .

إن الفتاة الطاهرة الزكية تفاجأ برجل أمامها ، يهزها قوله هزًّا عنيفاً ويثير خجلها وحياءها الأنثوى .. إنه يريد أن يهبها غلاماً ، وهما الآن فى خلوة ولتكن شجاعة وتدافع عن نفسها ، وتسأل كيف يحدث ذلك ، دون رجل يتزوجنى ، وما علم أحد عنى إلّا خيراً ، نقاءً وطهراً ، إن حسم الموقف يقتضى المواجهة .. ويأتى الرد واضحاً ـ إن ذلك أمر هيّن وهو على الله يسير ، فمجيئه دلالة للبشر على قدرة الله ورحمته ببعثه نبياً يهتدى الناس به ، وهو أمر مقضى فى علم الله .

ولقد استتبع هذا الميلاد المعجز تباين فى التوجه الدينى ، ذلك التوجه الذى أدى إلى انحراف العقيدة فمالت إلى شبهات فى التأليه ، وقد أبرزت الآيات القرآنية ذلك الانحراف فى العقيدة على لسان عيسى عليه السلام حيث يعترف لله خالقه بعبوديته ويشهد بحقيقة الرسالة إلى قومه .. ثم يُوكل الأمر كله إلى الله ..

قال تعالى : ﴿.. **ما قلت لهم إلّا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربّى وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد**﴾[1]

.. وثمة تناسق كامل بين البدء والنهاية ، بين الميلاد والوفاة ، بين ذكر الحلقة الأولى والحلقة الأخيرة .. فالبدء دينى وفنى معاً .. دينى لأنه يحمل معجزة الله فى خلق عيسى ، كما حمل آدم المعجزة نفسها .. وترتب على هذا البدء تنوع فى تقبّل بنى إسرائيل لها فنهم

---

(١) سورة المائدة آية ١١٧ .

من آمن به ، ومنهم من ضلّ ، ثم جاء الانحراف فى العقيدة ، الأمر الذى تبرأ منه عيسى نفسه وأدان به قومه ، وأشهد الله على ذلك ، وترك الأمر لله .. فى العذاب ، أو العفو ـ وتنامت لحظة الوفاة حيث رفع الله عيسى على حين شُبّه بغيره فى عيون الآخرين .. فجاء المولد معجزة ، والوفاة معجزة ، لأنه خرقٌ لناموس الحياة ، ولم يدرك الناس هذا الأمر الاعجازى فى سنن الله ، فتشتت تصوراتهم فى العقيدة ، وأدانوا أنفسهم بأنفسهم .

وفنيا فإن التناسق وارد تماماً .. بين لحظة الميلاد ولحظة التوفى ، فبدت القصة كاملة ونامية نمواً عضوياً ومتكاملاً .. لقد جاء الختام ليسجل حركة الناس ومشاعرهم ، ويدين ذلك كله وفقاً للغرض الدينى ..

.. وقد تُعرضُ القصة القرآنية فى زمن متأخر نسبياً . غافلة عن لحظة الميلاد . ولما فى هذا التأخر النسبى من دلالة .. تكمن فى بداية الحدث نفسه ، الذى هو مناط القصة وتطورها ..

.. فقصة إبراهيم عليه السلام تبدأ وهو فتى كامل الفتوة يستقرىء كواكب السماء علَّها هديه إلى ما يشتجر فى ضميره من صراع حول العقيدة . طلباً للوحدانية والألوهية .. ذلك أن عبادة الكواكب مما كان عليه بعض قومه .. كعبادة الأصنام أيضاً .. وحين يأفل كل كوكب ، يؤمن أن الله واحد ، ويفىء إلى أمر الله .. ويبدأ الدعوة إلى عبودية الله ، وتوحيده[1]

---

(١) انظر نظرات فى قصص القرآن جـ ١ ص ١٢١ وما بعدها .

.. وتبدأ قصة يوسف وهو غلام صغير ، حين يرى الرؤيا التى كانت وراء قصته كلها ، ودافعًا إلى مجريات الأحداث التى حدثت والمحن التى وقع فيها حتى مكَّن الله له فى الأرض .

قال تعالى : ﴿**إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين . قال يا بنىّ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ، إن الشيطان للإنسان عدوٌّ مبين**﴾ (١)

.. تلك بداية القصة ، الرؤيا العجيبة التى رآها يوسف .. أحد عشر كوكباً مع الشمس والقمر ، تخر ساجدة له ..

.. قال المفسرون : الكواكب الأحد عشر كانت إخوته ، والشمس والقمر أبواه .. ولقد فهم يعقوب عليه السلام جوهر الرؤيا فحذر يوسف من قصها على إخوته حتى لا يكيدوا له ، ويحتالوا لإهلاكه .. لأن القص سيؤدى إلى إثارة الحسد فى القلوب .. وتمضى القصة ، مرحلة بعد مرحلة . وحدثاً بعد حدث ، ومحنة بعد محنة ، لتورد ألواناً من البلاء ، وأنواعاً من النكبات . وضروباً من المحن ، ويوسف المبتلى بذلك صابر على البلاء ، حتى يهيىء له الله أخيراً سبيل العزة ، ويمكن له فى أرض مصر ..

ولقد حددت الرؤيا مسرى القصة ، كما حددت الاتجاه الذى سيسلكه يوسف فى حياته ، وهو اتجاه مقدر من الله سبحانه لحكمة

---

(١) سورة يوسف آية ٤ ــ ٥ .

علياً ـ وتأتى نهاية القصة ، تبياناً وتوضيحاً لبدايتها ، وكشفاً لغموض الرؤيا وفك رموزها ومعانيها . مما يأتى تكاملاً فى الأداء ، وتناسقاً فى مسرى الحدث ، وتوحدًّا فى القصة ، موضوعاً ، وأداة وفعلاً .

قال تعالى : ﴿**فلمّا دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش وخرُّوا له سجَّداً ، وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربّى حقًّا وقد أحسن بى إذْ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى إنَّ ربّى لطيف لما يشاءُ إنه هو العليم الحكيم**﴾[1]

والآيات تتحدث عن مجىء أسرة يعقوب إلى مصر .. ودخولهم على يوسف وقد مكّن الله له فى أرض مصر ، عزًّا وسلطاناً . وتحققت الرؤيا التى رآها وهو غلام ، تحققت مشهداً محسا ملموساً ، وذلك بسجود إخوته الأحد عشر مع أبيه وأمه .. واجتمع الشمل بعد فرقةٍ ، وجاءت النهاية توضيحاً لبداية غامضة رامزة تحمل قدراً كبيراً من التشويق وإثارة الذهن والوجدان معاً .

.. لقد توافق مطلع السورة والختام فى السورة كما توافق المطلع والختام فى القصة وجاءت التعقيبات متناسقة مع موضوع القصة وطريقة أدائها .. فتحقق الهدف الدينى وتحققت السمات الفنية .

«وقد بدأت القصة وانتهت فى سورة واحدة لأن طبيعتها تستلزم

---

(١) سورة يوسف آية ٩٩ ـ ١٠٠ .

هذا اللون من الأداء . فهى رؤيا تتحقق رويداً رويداً ، ويوماً بعد يوم ، ومرحلة بعد مرحلة فلا تتم العبرة بها ، كما لا يتم التنسيق الفنى فيها ، إلّا بأن يتابع السياق خطوات القصة ومراحلها حتى نهايتها .»[1]

وثمة نوع آخر من القصة القرآنية يبدأ عرضه فى حلقة متأخرة .. وفى هذا النوع من القصص ، لا تُعرض إلّا حلقة الرسالة والدعوة إلى القوم بعبادة الله ، وإبراز وحدانيته . ومواجهة الرسل لأقوامهم وهم ينكرون ولا يعبأون .. إنها الحلقة الوحيدة فى حياة هؤلاء الرسل لأنها أهم حلقة ، تحمل العبرة كاملة ، والهدف الدينى واضحاً ..

وهذا النوع من القصص يتناول رسلاً وأنبياء أمثال نوح وهود وصالح وشعيب .. ولقد ذكرنا بعضاً من هذه القصص خلال هذه الدراسة[2]

.. إن التنوع لقصصى فى القرآن الكريم بابٌ كبير يحتاج إلى توفر كامل لدراسته ، لأنه يتناول طريقة العرض القرآنية فى السرد القصصى ، وإيراد الحدث بما يتضمنه من إجمال وتفصيل ، وخوارق ومفاجآت ، وفجوات تثير الذهن وتحمل الخيال على تجسيد المشهد وتصوره .. فضلاً عن طريقة العرض فى تصوير الموقف والشخصية ، والحدث ورصد الانفعال والشعور ..

ولكننا نخلص من ذلك كله إلى أن التعبير القرآنى يؤلف بين

---

(١) الظلال جـ ٤ ص ٢٠٣٧ .
(٢) انظر فصل القصة التاريخية .

الغرض الدينى والغرض الفنى ، فى وحدة واحدة ، فالفن والدين محوران كبيران يتغلغلان فى أعماق النفس البشرية .. وإدراك الجمال ، وتذوق الفن ، وحسن تلقيه وتذوقه دليل يوحى بمدى التأثر الدينى ، وسرعة النفاذ إلى جوهر النفس .

المراجع

١ ـ **القرآن الكريم** .

٢ ـ **تفصيل آيات القرآن الكريم : نقل محمد فؤاد عبدالباقى .**

٣ ـ الكشاف : **الزمخشرى** .

٤ ـ صفوة التفاسير : **محمد على الصابونى** .

٥ ـ فى ظلال القرآن : **سيد قطب** .

٦ ـ الجامع الصحيح : **الامام البخارى أبوعبدالله محمد بن اسماعيل** .

٧ ـ جمع الفوائد : **جمع : محمد بن محمد بن سليمان الرودانى** .

٨ ـ صصص الأنبياء : **ابن كثير** .

٩ ـ قصص القرآن : **محمد أحمد جاد المولى** .

١٠ ـ التصوير الفنى فى القرآن : **سيد قطب** .

١١ ـ مشاهد القيامة فى القرآن : **سيد قطب** .

١٢ ـ خصائص التصور الإسلامى : **سيد قطب** .

١٣ ـ مع القرآن الكريم . دراسة مستلهمة : **على النجدى ناصف** .

١٤ ـ القرآن الكريم . كتاب أحكمت آياته جـ ٢ : **أحمد محمد جمال** .

١٥ ـ لقرآن الكريم كتاب أحكمت آياته جـ ٣ : **أحمد محمد جمال** .

١٦ ـ القصص الرمزى فى القرآن : **أحمد محمد جمال** .

١٧ ـ منهج الفن الإسلامى : **محمد قطب** .

١٨ ـ القرآن المعجزة الكبرى : **محمد أبوزهرة** .

١٩ ـ التبيان فى علوم القرآن : **محمد على الصابونى** .

٢٠ ـ التعبير الفنى فى القرآن : **د . بكرى شيخ أمين** .

٢١ ـ سيكلوجية القصة فى القرآن : **د. التهامى نقرة .**

٢٢ ـ قصص وعبر : **محمد المجذوب .**

٢٣ ـ القصص فى الحديث النبوى : **محمد بن حسن الزير .**

٢٤ ـ الإسلام والمذاهب الحديثة : **فتحى رضوان .**

٢٥ ـ القصة القرآنية : **فتحى رضوان .**

٢٦ ـ السرد القصصى فى القرآن : **ثروت أباظة .**

٢٧ ـ المعانى الثانية فى الأسلوب القرآنى : **د. فتحى عامر .**

٢٨ ـ دراسات نفسية وتأملات قرآنية : **د. عزت الطويل .**

٢٩ ـ الإنسان فى القرآن الكريم : **عبدالكريم الخطيب .**

٣٠ ـ علم النفس : **د. جميل صليبا .**

٣١ ـ الصورة الأدبية : **د. مصطفى سويف .**

٣٢ ـ المذاهب الأدبية : **د. نبيل راغب .**

٣٣ ـ نظرات فى قصص القرآن جـ ١ : **محمد قطب عبدالعال .**

٣٤ ـ مجلة (منبر الإسلام) : **مايو ١٩٨٦ .**

٣٥ ـ الفن القصصى فى القرآن الكريم : **محمد أحمد خلف الله ط ١ .**

الفهــرس

صدر من هذه السلسلة

	العنوان	المؤلف
١	تأملات في سورة الفاتحة	الدكتور حسن باجودة
٢	الجهاد في الاسلام مراتبه ومطالبه	الأستاذ أحمد محمد جمال
٣	الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين	الأستاذ نذير حمدان
٤	الاسلام الفاتح	الدكتور حسين مؤنس
٥	وسائل مقاومة الغزو الفكري	الدكتور حسان محمد مرزوق
٦	السيرة النبوية في القرآن	الدكتور عبد الصبور مرزوق
٧	التخطيط للدعوة الاسلامية	الدكتور محمد علي جريشة
٨	صناعة الكتابة وتطورها في العصور الاسلامية	الدكتور أحمد السيد دراج
٩	التوعية الشاملة في الحج	الأستاذ عبد الله بوقس
١٠	الفقه الاسلامي آفاقه وتطوره	الدكتور عباس حسن محمد
١١	لمحات نفسية في القرآن الكريم	د. عبد الحميد محمد الهاشمي
١٢	السنة في مواجهة الأباطيل	الأستاذ محمد طاهر حكيم
١٣	مولود على الفطرة	الأستاذ حسين أحمد حسون
١٤	دور المسجد في الاسلام	الأستاذ محمد علي مختار
١٥	تاريخ القرآن الكريم	الدكتور محمد سالم محيسن
١٦	البيئة الادارية في الجاهلية وصدر الاسلام	الأستاذ محمد محمود فرغلي
١٧	حقوق المرأة في الاسلام	الدكتور محمد الصادق عفيفي
١٨	القرآن الكريم كتاب أُحكمت آياته [١]	الأستاذ أحمد محمد جمال
١٩	القراءات أحكامها ومصادرها	الدكتور شعبان محمد اسماعيل
٢٠	المعاملات في الشريعة الاسلامية	الدكتور عبد الستار السعيد
٢١	الزكاة فلسفتها وأحكامها	الدكتور علي محمد العماري
٢٢	حقيقة الانسان بين القرآن وتصور العلوم	الدكتور أبو اليزيد العجمي
٢٣	الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا	الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
٢٤	الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر	الدكتور عدنان محمد وزان
٢٥	الاسلام والحركات الهدامة	معالي عبد الحميد حمودة

طبع بمطابع رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة